



الدكتور مختار زواوي

دو سوسير من جديد

مدخل إلى اللسانيات

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

ابن النديم للنشر والتوزيع

دو سوسير من جديد
مدخل إلى اللسانيات

ابن النديم للنشر والتوزيع
دار الروافد الثقافية - ناشرون

دو سوسير من جديد

مدخل إلى اللسانيات

الدكتور مختار زواوي





دو سوسير من جديد

مدخل إلى اللسانيات

تأليف: الدكتور مختار زواوي

الطبعة الأولى، 2017
عدد الصفحات: 224
القياس: 17 × 24
الترقيم الدولي ISBN: 978-9931-599-??-?
الإيداع القانوني: السداسي الأول/2017

جميع الحقوق محفوظة

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1، المحمدية
خلـــوي: 03 76 20 661 213+

وهـــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 25 41 213+
خلـــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
خلوي: 28 28 69 3 961+
هاتف: 37 04 74 1 961+
ص. ب.: 113/6058
الحمـراء، بيروت–لبنان
Email: rw.culture@yahoo.com

المحتويات

«La langue n’a conscience du son que comme signe»

«ليس للسان وعي بالصوت إلا بوصفه علامة»

Ferdinand de Saussure,
Ecrits de linguistique générale,
2002, p.182

«Saussure n’a pas été compris et reste difficile à comprendre»

لــم يُفهم دو سوسير، ويظل عسيرا على الفهم.

F. Rastier,
Saussure au future,
2013, p. 177

مقدمة

الـحمد لله رب العالـمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والـمرسلين نبينا مـحمد وعلى آله وصحبه أجـمعين أما بعد، فقد أفلت مائة عام، منذ أن أخرج شارل بالي وألبير سشهاي للناس، سنة 1916، كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وقالا للناس آنذاك أن الناس ما انفكوا يثنون على فكر دو سوسير اللسانياتي الذي أودعه في المحاضرات التي ألقاها خلال السنوات الجامعية (1907-1908)، (1908-1909) و(1910-1911)، وحان جمعها وإخراجها للناس حتى لا يتسلل إليها النسيان، فهبا إلى جمع ما يكمن جمعه من تركته الفكرية، لكنهما لم يجدا آنذاك الكثير، فاستشارا القوم من أصحابه ومقربيه بعد أن نظرا في كراسات طلبته لانتقاء ما هو أحسن تعبير عن فكر أستاذهما.

استشار شارل بالي أنطوان مايي وسعى بكل ما أوتي من بلاغة إلى إقناعه عن العدول عن مشروع بول روغار، أحد الطلبة المثابرين على محاضرات دو سوسير، الرامي إلى نشر كراسات الطلبة دون تعديل فيها، وشكك في رزانة فكره اللساني ودقة ملحوظاته، وبدا له ولمعاونه ألبير سشهاي من بعد ما تبن لهما من عزوف الناس عن مشروعهما، استمالة السيدة دو سوسير وإقناعها بضرورة إخراج كتاب جامع للمحاضرات، منسق لها، موجز لما تكرر منها، بعد جمع كل ما وجد من كراسات الطلبة، عوض الاكتفاء بمقالات متفرقة تحوي ما دون عن دو سوسير.

ولقد كان شارل بالي في هذه المرحلة قد أخرج كتابه اللغة والحياة «le

«langage et la vie»، وكان آنذاك مضطلعا بمهام التدريس، فلم يكن له حظ في متابعة دروس دو سوسير في اللسانيات العامة، كما لم يكن لمعاونه ألبير سشهاي هو الآخر نصيب منها، ولعل ما وصل إلى مسامعهما من إعجاب المجتمع العلمي بأفكار دو سوسير اللسانية وإقراره بجدتها وحداثتها كان من طريق السيدة سشهاي، زوجة ألبير وقد كانت من بين المثابرين على حضور الدروس وتدوين الكثير منها، ولقلة ما علما من محتوى هذه الدروس قررا الاستعانة بألبير رايدلنغر، وكان من بين الذين حضروا كل دروس السنوات الثلاث، في تحرير الكتاب، ورسم معالمه، وتبويب مقاطعه، وترتيب فصوله، فلخصاه في مقدمة تتبعها خمسة أجزاء، لكل جزء منها فصول متفاوتة في الطول والعمق.

ولقد بدا لهما من بعد تأمل أن يتخذا من محتوى دروس السنة الجامعية الثالثة القاعدة التي ينبني عليها الكتاب، وتُرتب على منوالها فصوله، فما كان من دروس السنتين الجامعيتين الأخريين متتما لها أورداه، وما كان، في نظرهما، مكررا أهملاه. فهل بعد الذي جاءنا من العلم بالظروف التي رافقت جمع محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة ونشرها لا نزال نطمئن إلى محتوى الكتاب الذي حملها بين دفتيه، وسار بها في قلوب الناس، مائة عام؟ هل يحق لنا من بعد كل ما رأيناه من الأدلة التساؤل: من هو حقا مؤلف كاتب المحاضرات في اللسانيات العامة؟ ما حظ هذا الكتاب من فكر دو سوسير المتعدد، المتنوع؟ وما دلالته على ما كان دو سوسير يدرسه حقا، وما كان يختبره في خلوته ولا يبوح به إلا إلى مقربيه؟

مضت مائة عام، وأصبحت هذه الأسئلة مشروعة أكثر من أي وقت مضى، فقد بات في متناول المجتمع العلمي مجموعة كبيرة من مخطوطات دو سوسير، لا يقتصر مضمونها على اللسانيات بل تحوي أيضا جوانب أخرى من فكره كثيرا ما كانت مجهولة، منذ أن أودعت عائلته إرثه العلمي ومختبراته الفكرية بمكتبتي جامعتي جنيف وهارفارد. ولئن كنا في هذا الكتاب الموجز نروم التعريف بما جد في حقل الدراسات السوسيرية، لاسيما ما اتصل من فكر دو سوسير بمشروعه السيميائي، فذلك لأنه أضحى متاحا التعرف على فكر دو سوسير

الأصيل من خلال ما استجد من بحوث استفاضت في تحقيق مخطوطاته، ومنها على وجه التحديد الكتاب الذي قيل عن دو سوسير أنه أعرض عن إخراجه للناس. لكن القدر شاء أن يُعثر، سنة 1996، على مخطوط هذا الكتاب في اللسانيات العامة، ومنذ تحقيقه من قبل سيمون بوكي ورودلف آنغلر، ونشره ضمن السلسلة الفلسفية لدار غليمار، سنة 2002، ضمن نصوص أخرى لدو سوسير، كان آنغلر قد نشرها ضمن الجزء الثاني من طبعته النقدية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لسنة 1974، ما انفكت الدراسات اللسانياتية المعاصرة تسعى إلى استكشاف جوانب، كثيرا ما كانت مجهولة، من فكر دو سوسير اللسانياتي والفلسفي.

ولعل السمة البارزة من سمات فكر دو سوسير التي تهافتت الأقلام في التعريف بها سمة تعدد فكره، فقد بات معلوما أن ما أنتجه دو سوسير لا يمكن أن يُـختزل في جملة من الفروق المفهومية من قبيل التمييز بين اللغة، واللسان والكلام، وبين الدراسة الآنية والدراسة التاريخية، وبين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، وبين الدال والمدلول، وبين العلاقات الترابطية والعلاقات الاستبدالية، وغيرها من الفروق التي روج لها الكتاب الذي نشر من بعد موته، ونسب إلى دو سوسير، وما هو لدو سوسير، أو تلك التي روجت لها النظريات اللسانياتية التي بلورت كثيرا من مفاهيمها وتصوراتها انطلاقا من كتاب المـحاضرات في اللسانيات العامة، لاسيما النظريات التي انضوت في دائرة البنويات التي ملأت الآفاق وذاع صيتها في كل البلدان، طيلة عقود متوالية حتى هلت الثمانينيات ورُفعت للتداوليات رايتها ونودي في الناس بالتخلي عن مزاعم النظريات البنوية وضرورة تجاوز لسانيات دو سوسير الصورية.

ولئن كانت البنويات احتفت بلسانيات دو سوسير احتفاء كبيرا، وحذت علوم إنسانية من مثل الأنثروبولوجيات، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتحليل النفسي، وغيرها حذوها، وأشادت السيميائيات وفلسفة اللغة بأفكاره حول العلامة والأنساق السيميائية، إلا أن فكر دو سوسير الأصيل ظل في هاتين المرحلتين من تاريخ الدراسات اللسانياتية والسيميائياتية، جله مغمورا، لا يعلمه إلا نفر قليل من مقربي دو سوسير، وظل كتاب المحاضرات في اللسانيات

العامة المنفذ الوحيد لفكره، والمرجع الفريد في تدريس مادة اللسانيات العامة في كل الجامعات ومراكز البحث العالمية طيلة القرن الماضي.

إننا نشهد مرحلة مفصلية هامة في تاريخ اللسانيات الحديث، فقد بات الناس بين مرين وهم بذلك فريقان، فريق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من كتاب المحاضرات إلا وأشاد بها، وإن كان معظمهم في حقيقة الأمر لا يحصر اهتمامه إلا بما اتصل من هذا الكتاب باللسانيات الآنية، وفريق ما انفك منذ تحقيق النصوص السوسيرية الأصيلة ينادي بضرورة العودة من جديد إلى دو سوسير. ولعل العنوان الذي ارتضيناه لكتابنا الموجز هذا تعبير عن هذا التوجه الجديد، وهو موجز لأننا اكتفينا فيه بالقليل مما هو مبثوث في هذه المخطوطات، فلقد بات معلوما الآن أن تركة دو سوسير العلمية تناهز عشرة آلاف ورقة موزعة بين مكتبة جنيف الجامعية العامة ومكتبة هودغن لجامعة هارفارد.

لقد آن لنا أن نعيد النظر في موقفنا من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي لا يعبر عن فكر دو سوسير تعبيرا صادقا، فهو يحجب عنا حقيقة أنه كان عارفا بالألسن يجيد الترجمة فيها، فحاول منذ سن الرابعة عشر من عمره تصور نسق شمولي عن الألسن من خلال رد كلمات الألسن اليونانية واللاتينية والألمانية إلى عدد محدود من الجذور، ثم ما انفك منذ التحاقه بجامعة ليبزغ، المركز العالمي للسانيات التاريخية المقارنة، ثم عضوا بجمعية باريس، يؤسس لمنهج جديد في التعامل مع الوقائع اللسانية والسيميائية. لقد أدرك الباحثون كم هو تاريخ دو سوسير اللسانياتي حافل بالاستكشافات والمغامرات الفكرية، وأن هذا التاريخ أضحى في السنوات الأخيرة موضوع بحث واستقصاء، لاسيما بعد العثور سنة 1996 بمنزل عائلته على كتاب في اللسانيات كان دو سوسير يوما أومئ به إلى صديقه أنطوان مايي، واعتقد الجميع أنه عزف عن كتابته، وها هو الكتاب منشورا ضمن نصوص أخرى، قديمة وجديدة، تدل من جديد على أن معرفتنا بدو سوسير وفكره معرفة لا تتجاوز صفحات الكتاب في المحاضرات في اللسانيات العامة الذي ألفه من بعد موته شارل بالي وألبير سشهاي استنادا إلى وثائق تفصلها عن فكر دو سوسير الأصيل مسافة معتبرة.

وغايتنا في فصول هذا الكتاب الإسهام في تقليص هذه المسافة، وتبديد

الصورة النمطية التي ما انفكت كتابات بعض باحثينا العرب تسهم في الترويج لها. ولم يكن من اليسير اختيار السبيل الأمثل للوصول إلى هذا المبتغى، على الرغم من أن الفكرة التي سار إلى تحقيقها هذا الكتاب الموجز باتت لدينا واضحة راسخة، يجب أن نضع كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير جانبا والإقبال على النصوص السوسيرية الأصلية. فكان أوّل ما يجب تناوله الكتاب في المحاضرات، ليس من أجل قراءته من جديد، بل قصد التعريف بمصادره، ومناقشة بعض اجتهادات الناشريْن فيه، والظروف التي أسهمت في إخراجه للناس، وكان هذا صنيعنا في الفصل الأول. ولقد مكننا الإعداد لهذا الفصل من إدراك فحوى النقود التي وجهت إلى شارل بالي وألبير سشهاي وفهمنا حرص القوم على التنديد بصنيعهما، إذ إنهما أخلا – أولا – بالترتيب الذي انتهجه دو سوسير في التعبير عن أفكاره اللسانياتية، ثم إنهما ما أفصحا – ثانيا – إفصاحا تاما عن كل الأفكار التي عبر عنها دو سوسير في محاضراته، بل لجآ إلى التقليص والاختزال، ثم إنهما – ثالثا – كثيرا ما أضافا إلى أفكاره وتصوراته أفكارا وتصورات تبين من بعد أنها ليست لدو سوسير، وأنها في تضارب صارخ مع ما كان يمليه، بل أدهى من ذلك وأمر، تبين أنها تقوض مشروع دو سوسير برمته، فما بال الجملة الأخيرة التي ينتهي بها كتاب المحاضرات الذي وضعاه ونسباه إلى دو سوسير تقرر أن الموضوع الوحيد والحقيقي للسانيات إنما هو اللسان، بينما الأمر لـم يكن كذلك أبدا في فكر دو سوسير. فبأي حديث بعد الذي جئنا على ذكره من صنيع شارل بالي وألبير سشهاي نؤمن؟ أنركن إلى ما أورداه في مقدمة الكتاب من العقبات التي حالت التوصل إلى كل تركة دو سوسير الفكرية أم نُعمل العقل والنقد ونقرر دون تردد: ليس كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدو سوسير.

ولما انتهينا إلى حقيقة نسبة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، باتت مسألة تلقيه من قبل المجتمع العلمي مسألة وجب النظر فيها، وبتنا نفهم سبب عزوف كثير من اللغويين، لاسيما في العقود الثلاث الأولى التي تلت نشر الكتاب، عن جملة المسائل اللسانياتية التي تناولها، فرحنا، في الفصل ذاته، ننتقل من مرحلة إلى أخرى نتابع تطور تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي، وإنما هو في حقيقة الأمر تلق لمحتوى كتاب المحاضرات. ولئن كانت هذه المراحل

مراحل أربع والتي هي: مرحلة أولى وهي مرحلة تلقي المحاضرات في العقود الثلاث الأولى من القرن العشرين، ثم مرحلة تلقي المحاضرات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم مرحلة تلقي المحاضرات ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومرحلة رابعة هي مرحلة النصوص اللسانية الجديدة، فإننا لم نعنى إلا بالمرحل الأولى والثانية، ولو كنا تجاوزناهما إلى المراحل الأخرى لكنا تجاوزنا حدود هذا الكتاب. وليست هذه المراحل بطبيعة الحال مراحل منفصلة بيّنة الحدود، بل هي فترات متداخلة إلى درجة أن المرحلة الثالثة وهي مرحلة انتقل فيها الاهتمام بفكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائياتي من دائرة اللسانيات إلى دوائر متاخمة في الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والمرحلة الرابعة التي بدأت ببحوث روبار غودال حول الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات لا تزالا جاريتين، متجاورتين.

فلما فرغنا من تعداد مجمل النقود التي وجهت لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في أثناء العقود الثلاث الأولى من القرن الماضي، انتقلنا إلى المرحلة الثانية وفيها انتقل الاهتمام بفكر دو سوسير من بيئته الأوروبية إلى بيئة أخرى عبرنا عنها بالتلقي الروسي لفكر دو سوسير، وفيها تطرقنا إلى موقف حلقة موسكو وبراغ والبحث الفونولوجياتي من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة.

ثم أبنا مرة أخرى إلى التلقي الغربي لفكر دو سوسير، فبعد أن نظرنا في مراحل تلقي لسانياته بدأنا ننظر، في الفصل الثاني، في مسألة تلقي سيميائياته، ففحصنا - أولا - مصطلح السيميائيات وعرفنا بمجالها، ثم تناولنا - ثانيا - حقيقة السيميائيات السوسيرية بين كتاب المحاضرات وكراسات الطلبة، ثم انتهينا - ثالثا - إلى مدارسة التلقي الغربي للسيميائيات السوسيرية. وإننا نرجو أن يكون حديثنا عن حقيقة عدم نسبة كتاب المحاضرات في اللسانيات لدو سوسير قد بلغ مبلغه، لما لهذه الحقيقة التاريخية من آثار في تصور كامل عن تاريخ اللسانيات برمته، وكيف تعين على فهم كثير من المواقف المتضاربة بشأن فكر دو سوسير اللسانياتي، والأهم من ذلك، لعلها تفتح، وهذا أقصى ما نرجوه، آفاق بحث جديدة للباحث العربي في شؤون اللسانيات الغربية.

ولم نكن لنستوفي مسألة تلقي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير حتى نقف عند تلقيه من قبل الباحثين العرب، لذلك رحنا في الفصل ذاته ننظر كيف أقبل اللغويون العرب على لسانيات دو سوسير وسيميائياته، وكانت أولى المسائل التي استوقفتنا مسألة ترجمة كتاب المحاضرات في ثمانينيات القرن الماضي حين تهافت الباحثون من تونس، ولبنان، ومصر، والعراق، والمغرب إلى نقلها إلى اللسان العربي، ثم نظرنا فيما كتبه بعض باحثينا في سيميائيات دو سوسير. ولقد استقر الرأي لدينا - أولا - أن الباحث العربي ما اهتم قط بفكرة نسبة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى دو سوسير وما عني بالآثار الوخيمة التي نجمت عن ذلك، ثم إن معرفته - ثانيا- بالفكر السوسيري معرفة ثانوية، بمعنى أنه غالبا ما يستفتي مؤلفات أجنبية هي الأخرى نهلت من كتب تشبثت بنسبة كتاب المحاضرات لدو سوسير، على الرغم من مضي مائة عام على نشره، وظهر للعيان عدم انتساب الكتاب لدو سوسير، ثم إنه - رابعا - قليلا ما عُني، في دائرة السيميائيات، بسيميائيات دو سوسير حقا، بل أدبر وتولى عنها ولم تستهويه من السيميائيات غير بحوث بارت وإيكو، وغريماس، وأحيانا بورس، وغيرهم.

وإن نحن أفضنا من الفصلين السابقين، فإننا ندع الباب وراءنا مفتوحا لعلنا أغفلنا فيهما جملة من المسائل، ونحسب أننا فعلنا. فلقد اكتفينا - مثلا - من مسألة تلقي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة على رسم المعالم الكبرى لمراحله، بيد إن المرحلة الواحدة منها تتطلب لا محالة كتابا أو كتبا حتى تستوفى كل تفاصيلها وتجلى كل دقائقها. وإننا نرجو أن يكون ما بقي من الكتاب شفيعا لنا عن هذه القلة، ونحسب أننا تناولنا فيها مسائل غاية في الجدة، موغلة في التعقيد والتقعيد إلى درجة جعلت واحدا من أبرز الباحثين الغربيين في شؤون دو سوسير اللسانياتية السيميائياتية، السيميائي فرانسوا راستيي، يعترف قائلا: «إن دو سوسير لم يُفهم، وليس من اليسير فهمه».

لقد تناولنا في هذا الفصل جملة من المسائل والقضايا التي لا يمكن الحصول على أجوبة لها في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بل تتطلب اللجوء إلى ما كتبه دو سوسير حقا وخطه بخط يده، وليس ما خطه دو سوسير،

في اللسانيات العامة، واللسانيات التاريخية، وفلسفة اللغة، والسيميائيات، والإبستيمولوجيات، وغيرها من المعارف الأخرى، بقليل، إنها تركة فكرية مبثوثة في عشرة آلاف ورقة، ليس السبيل إليها بيسير، ناهيك عن قلة الاجتهاد في تحقيقها وإخراجها للباحثين قصد استثمار مضامينها. لذلك فإن جل ما كتبناه في هذه الفصول إنما استقيناه مما كتب مؤخرا عن فكر دو سوسير الأصيل، وإن كنا بين الحين والآخر لم نغفل عما توفر لنا من نصوص دو سوسير الأصلية سواء ما ضمه كتاب دو سوسير المنشور مؤخرا «كتابات في اللسانيات العامة»، أو ما تنشره تباعا مجلة «كراسات فردناند دو سوسير».

إن أولى المسائل التي تناولناها مسألة فكر دو سوسير، ولطالما اختزل هذا الفكر في جملة من التصورات اللسانياتية لا غير، فسارعنا في بداية هذا الفصل إلى رد هذا الاعتقاد وتبديد مزاعمه، فأوضحنا أن اللسانيات العامة أوسع من ذلك وهي تشمل قطاعات فكرية ثلاث هي إبستيمولوجيا اللسانيات، وفلسفة اللغة، والإبستيمولوجيات المبرمجة. ونظرنا في هذا الفصل في موقف دو سوسير من علوم عصره، ومسائل تتعلق بإبستيمولوجيات النحو المقارن وميتافيزيقا اللغة. وحاولنا في هذا الفصل أيضا اختبار ما جد من سيميائيات دو سوسير من خلال التعريف بدلالة السيميائيات, واللسانيات بوصفها سيميائيات خاصة، والنظر من جديد في بعض المسائل من مثل نسقية اللسان، والعلامة، واستقلالها عن الواقع والفكر، والعلامة اللسانية ومفهوم الاعتباطية، وغيرها من المسائل السيميائياتية الأخرى. وقد ارتأينا في ختام هذا الفصل أن نعيد النظر فيه في جملة من القواعد التي استندت إليها التداوليات اللسانياتية من منظور فكر دو سوسير الجديد، وفي هذا الفصل يجد القارئ مقارنة بين كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وبعض المؤلفات في التداوليات، وكتاب دو سوسير الجديد، بخصوص مسائل ترتبط بإزاحة الكلام من مجال اللسانيات، ومسألة الفرد المتكلم، والحال، والسياق، والاستعمال، وهي كما هو معلوم مفاهيم كثيرة التداول في أدبيات التداوليات.

وحتى نتمكن من التمييز في كتابنا هذا بين ما هو لدو سوسير وما هو من وضع شارل بالي وألبير سشهاي أشرنا إلى صنيعهما بعبارة كتاب المحاضرات

في اللسانيات العامة وإلى ما هو لدو سوسير بمحاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة، أو فكر دو سوسير اللسانياتي أو السيميائياتي. كما سيلاحظ القارئ استعمالنا لعبارتي «اللساني» و«اللسانياتي»، أو السيميائي والسيميائياتي، ولن يخف عنه أننا نريد بالأولى الصفة من اسم اللسان حين نقول مثلا البنية اللسانية، أو الوحدة اللسانية، أو التغير اللساني، وغير ذلك من الوقائع التي ترتبط باللسان من حيث هو نسق، ونريد بالثانية الصفة من اسم اللسانيات حين نقول مثلا البعد اللسانياتي، أو الفكر اللسانياتي، أو المنحى اللسانياتي، أو الممارسة اللسانياتية، وغير ذلك من التصورات والأفكار التي ترتبط باللسانيات من حيث هي علم، أو مجموعة من الممارسات العلمية.

إننا لـم نفصل القول في كل المسائل التي ألمحنا إليها في هذا الكتاب، ولو فعلنا ما وسعنا الوقت لإخراجه، لأن غاية ما نرجوه هي أن يسهم في حث الباحثين العرب على ضرورة وضع كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، سواء الأصل الفرنسي أو ترجماته العربية، جانبا والإقبال على نصوص دو سوسير الأصيلة، فإن فعل فقد أدرك غايته، وحقق أمنية كاتبه، والحمد لله من قبل ومن بعد، وصلى الله على نبينا محمد وسلم تسليما كثيرا.

مختار زواوي

سيدي بلعباس، ديسمبر 2016

الفصل الأول

في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، تكوينه وتلقيه

لقد أسهم العثور على إحدى الرسائل التي بعث بها شارل بالي إلى أنطوان مايي العام 1913 في استكشاف جانب هام من الجوانب التي حفت بمشروع نشر محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة، وهي تعد من هذا المنظور واحدة من الوثائق التي أضحت عند مؤرخي اللسانيات مصادرا لا يمكن الاستغناء عنها. وليس هذا ديدن تاريخ اللسانيات فقط بل إن تاريخ العلوم عموما لا ينفك يستقصي من فن التراسل ما أورده العلماء وتناقلوه من ظروف خاصة أحاطت بإنجازاتهم الفكرية، ولدو سوسير من هذا الفن نصيب وافر، فلولا الرسالة التي عثرت عليها السيدة مايي في مكتبة زوجها اللسانياتي أنطوان مايي، الصديق المقرب لدو سوسير، ما كنا لنعلم يوما أن دو سوسير كان، إلى جانب بحوثه في اللسانيات العامة، يستكشف في خلوته مجالات بحث أخرى صبت في نظرية الأدب، تقدمت بحوث كلود ليفي ستروس، ونيكيفوروف، وفلادمير بروب[1]، وأن له في سيميائيات النص أفكارا وآراء لم يكن يعلمها إلا من خصهم بالإسرار بها، من معاصريه والمقربين إليه[2]. لقد أسهم محتوى هذه الرسالة التي بعث بها دو سوسير إلى مايي بتاريخ الثاني عشر من شهر نوفمبر سنة 1906، والتي نشرها وعلق عليها رومان ياكبسون سنة 1971، في إبراز

(1) - D'atco Silvio Avalle, «La sémiologie de la narrativité chez Saussure», in Ch. Bouazis, Essais de la théorie du texte», Paris, Galilée, 1973, p. 26.

(2) ينظر على سبيل المثال لا الحصر الفصل السادس من كتاب:
- F. Rastier, Saussure au futur, Paris, les Belles Lettres, 2015.

عدد من الملامح الخفية من فكر دو سوسير اللسانياتي، ولعل أهم ما غاب منها عن جمهور قراء دو سوسير هو التماهي الحاصل في فكر دو سوسير بين بحوثه في الشعر وبحوثه في مبادئ اللسانيات(3)، وارتباطهما الوشيج إلى درجة جعلت النقاد المحدثين ينظرون في بحوث حول الجناسات التصحيفية «anagrammes» لاستخراج مبادئ في اللسانيات.

إن التراسل كان أهم طرائق التواصل العلمي بين الباحثين والعلماء ولا يزال، وإن اختلفت طرائقه في العصر الحالي، وظلت المراسلات حتى نهاية القرن التاسع عشر وعقود متوالية من القرن العشرين تعبر عن جوانب فكرية لا يجد لها الباحث المعاصر حضورا في كتب هؤلاء العلماء، بل كثيرا ما وجب اللجوء إليها قصد تفسير أمور أوجزوها فيها أو استغنوا عن ذكرها. وحتى لا نبرح مجال السيميائيات، فإن مراسلات السيدة ويلبي مع شارل سندرس بورس خير مثال على ذلك. إن الدارس لنظرية بورس السيميائية إذا ما رام تمثلها تمثلا عميقا لا يجب أن يعزلها عن سائر أبحاثه في الفلسفة، والمنطق، والرياضيات، والعلوم التطبيقية مثل علم الأجرام، والكيمياء، وعلم النفس التطبيقي، والدين واللغة وغيرها من مجالات المعرفة الأخرى، فلقد أسرّ، في إحدى رسائله من العام 1908، إلى السيدة ويلبي بالارتباط الوثيق الذي ما انفك، منذ تعرّفه على المنطق في حداثة سنه، يلامسه بين السيميائيات وسائر العلوم الأخرى التي اهتم بها، فقد كتب لها يقول: «اعلمي أنه منذ سن الثانية أو الثالثة عشر، منذ اليوم الذي تناولت فيه من على الأرض، في حجرة أخي الأكبر، نسخة من منطق رتشارد واتلي، وسألته ما المنطق؟ وأجابني إجابة بسيطة، فجلست على الأرض وباشرت قراءته، منذ ذلك اليوم، لم يعد في مقدوري أبدا أن أدرس أي شيء كان - رياضيات، أخلاقا، ميتافيزيقا، جاذبية، دينامية حرارية، بصريات، كيمياء، علم تشريح مقارن، علم نفس، صوتيات، تاريخ علوم، رجال ونساء، نبيذا - إلا بوصفها دراسات سيميائية»(4). وفي هذا إشارة واضحة إلى أن النظرية

(3) - R. Jakobson, «La première lettre de Ferdinand de Saussure sur les anagrammes», L'Homme, tome 11, nº 2, pp. 15-24.

(4) - C. S. Peirce, Ecrits sur le signe, tr. par G. Deledalle, Paris, éd. Seuil, 1978, p. 56.

السيميائية التي صاغها كانت من الشمولية ما مكّنها من أن تنطبق على جميع العلوم التي درسها، ودلالة على ما للمنطق من دور أساسي في إنجازها، ثم انظر إلى الدور الذي تضطلع به المعرفة بالمراسلات العلمية في تاريخ العلوم.

لقد اتضح لنا منذ الوهلة الأولى من اطلاعها على كتابات دو سوسير الأصيلة المنشورة سنة 2002 مدى صعوبة قراءتها(5)، وكنا نعزو ذلك أول الأمر إلى قصورنا عن بلوغ مرامي دو سوسير اللسانياتية إذ بان لنا الاختلاف الكبير بين أسلوب كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير وكتاباته هذه التي أبانت عن فكر متجدد، يختلف محتواه ومغزاه كما نسب إليه كل الاختلاف، ولولا اعتراف فرانسوا راستيي نفسه بصعوبة الولوج إلى فكر دو سوسير الأصيل، ولولا لقائنا مؤخرا بسيمون بوكي محقق كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة بالتعاون مع رودلف أنغلر، ومراسلاتنا المكثفة معه، لضربنا صفحا، إلى حين، عن التسلل إلى ميدان بحث لا يزال بكرا، على الرغم من تسارع الأقلام في الغرب إلى التعريف به وصبر أغواره الدفينة.

إن استخلاص فكر دو سوسير الأصيل مما هو شائع في أدبيات اللسانيات والسيميائيات الحديثتين ليس بالأمر اليسير، لأنه يقتضي التفرغ أولا للإحاطة بحيثيات مشروع نشر المحاضرات في اللسانيات العامة التي ألقاها دو سوسير بجامعة جنيف والتعرف على الظروف التي أحاطت به، ولأن الكتاب لم يكن من وضع دو سوسير، وجب ثانيا التحقق من مدى وفاء الناشريْن في التعبير عن فكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائياتي تعبيرا صادقا وأمينا، لا يداخله زيادة ولا نقصان. لكن البحوث أبانت عن عكس ذلك، أبانت عن فشل شارل بالي وألبير سشهاي في بيان فكر دو سوسير، لأنهما ما حضرا يوما درسا من دروس هذه المحاضرات، وما كانت كراسات الطلبة التي استعانا بها كفيلة بأن تعوض عنهم هذا النقص، فليس المخبر كالمعاين. ولذلك، يغدو من اليسير فهم طبيعة النقود التي وجهت لكتاب المحاضرات غداة نشره والتي توالت، في أوروبا، طيلة

(5) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, Texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002.

العقود الثلاث الأولى من القرن الماضي، غير راضية بالتصورات الجديدة التي حلت على اللسانيات التي ألفت المقارنة والبحث في تاريخ الألسن، فلا تفقه فصلا بين اللسان والكلام، ولا فصلا بين الآنية والدياكرونية، ولا بين العناصر الداخلية والعناصر الخارجية، ولا غيرها من المفاهيم والتصورات التي ما أحسن شارل بالي وألبير سشهاي في بيانها للناس آنذاك.

وعلى الرغم من إدراكنا غاية الإدراك بقصورنا عن استحضار كل ملامح الجو الفكري الذي رافق تلقي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة وآراء صاحبه وتصوراته في بيئته الأوروبية التي نشأ فيها، وفيها تبلورت أولى أفكاره المجددة فنالت إعجاب معاصريه، وبجامعاتها ألقى نصيبا من معارفه فشهد له أساتذته، وطلبته، وزملاءه بسعة الأفق، ودقة التحليل، والجرأة في التغيير، فإننا مدركون بأن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بدد ملامح هذه الصورة الأصيلة وأزال عنها ملامحها الخالصة، ولم يكن لطبيعة هذا التلقي بأن تتغير حتى ينتقل كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من بيئته الأوروبية التي نشأ فيها، إلى بيئة علمية أخرى لم يكن بينهما اتصال كبير، احتضنته، فقرأه لغويوها قراءة مخالفة، وأسهموا في استثمار تصورات دو سوسير الجديدة في إرساء دعائم علم جديد، الصوتيات الوظيفية، أو الفنولوجيات، وإبداع توجه جديد في مقاربة الوقائع اللسانية، مقاربة بنوية تتدارس الألسن من منطلق مفهوم النسق والبنية.

ولقد بدت الحاجة إلى ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في هذه المرحلة من تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي ملحة بالنظر إلى قلة معرفة اللغويين الروس باللسان الفرنسي الذي ألف به الكتاب، وما إن ظهرت الترجمة الروسية الأولى سنة 1922، حتى بدأت تتوالى الترجمات، فظهرت الترجمة اليابانية سنة 1928، ثم الترجمة الألمانية سنة 1931، ثم الترجمة الإسبانية سنة 1945، ثم الترجمة الإنجليزية سنة 1959، ثم الترجمة الصينية سنة 1963، ثم الترجمتين الإيطالية والبرتغالية سنة 1967، ثم الترجمة الكورية سنة 1973، ثم الترجمة السلوفينية سنة 1997، ثم الترجمة الرومية سنة 1998. ولقد وفقت جل هذه الترجمات، باعتراف المختصين، في نقل كتاب المحاضرات في اللسانيات

العامة نقلا أمينا وظلت الترجمة الوحيدة المعتمدة في لسانها وكفلت لأجيال تعاقبت عليها استقرارا مصطلحاتيا، خلافا للترجمة العربية التي ظهرت في ثمانينيات القرن الماضي خمس روايات منها، نهجت كل واحدة منها سبيلا، فأضرت أكثر ما نفعت.

مشروع نشر المحاضرات في اللسانيات العامة

كان يُعتقد أن فردناند دو سوسير لم يترك بعد موته سنة 1913 شيئا كثيرا من المحاضرات في اللسانيات العامة التي ألقاها بجامعة جنيف خلال السنوات الجامعية الثلاث (1906-1907)، (1908-1909) و(1910-1911)، وأن ما دونه طلبته هو وحده الكفيل باسترجاع ما عرف عن هذا المفكر الفذ من أفكار وآراء وتحليلات أسهمت إسهاما بليغا في تخليص اللسانيات من قبضة تصورات القرن التاسع عشر التاريخية المقارنة وإحلال مكانها تصورا أصيلا عن طبيعة الألسن الحقيقية، فكان له الفضل في إرساء قواعد جديدة لعلوم اللغة لا تزال الأجيال المتوالية تُشيد بصنيعه.

ولقد كان لهذه المحاضرات صيت كبير في أرجاء الجامعة والمحافل العلمية آنذاك، وغدا ضروريا تخليدها وصيانتها من النسيان والاندثار، فعمد عدد من طلبته إلى جمعها قصد طبعها وتقديمها إلى المجتمع العلمي للاستفادة منها، ومنها انطلق مشروع كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي أشرف على إعداده شارل بالي وألبير سشهاي، حتى أخرجاه للناس سنة 1916، وقالا حينئذ في تقديمهما للكتاب: «لقد كنا نأمل أن نجد ضمن مخطوطاته التي وضعتها السيدة دو سوسير في متناولنا، صورة أمينة، أو كافية على الأقل، للمحاضرات، وبدت لنا إمكانية النشر متيسرة لا تتطلب سوى ترتيبٍ لمخطوطات دو سوسير الشخصية وفق ما دونه طلبته من المحاضرات، لكن سرعان ما خاب أملنا ولم نجد منها شيئا يذكر يتوافق وما دونه طلبته، فقد كان دو سوسير يمزق تباعا كل مسوداته التي كان يخط فيها يوميا مخطط درسه»[6].

---

(6) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Séchehaye avec

ولما كانت الارتباطات المهنية قد حالت دون حضور شارل بالي وألبير سشهاي المحاضرات أضحى من الضروري الاستعانة بالمثابرين من طلبة دو سوسير فلجآ حينئذ إلى ألبير رايدلنغر، واستعانا به في النظر في مختلف كراسات الطلبة الخاصة بمحاضرات السنة الأولى والثانية قصد مقابلتها بعضها ببعض واستخراج منها ما هو أقرب إلى فكر دو سوسير، وهي كراسات كل من لويس كاي، وليوبولد غوتيي، وبول رغار، وألبير رايدلنغر. لكن ألبير رايدلنغر قاطع محاضرات السنة الثالثة، ولما كانت هذه السنة، في نظر شارل بالي، السنة الأكثر نضجا من فكر دو سوسير اللسانياتي، اعتُمدت كراسات السيدة سشهاي، زوجة ألبير سشهاي، وكراسات جورج ديغاليي وفرانسيس جوزيف، مادة أساسية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وهي الكراسات التي تكفل ألبير سشهاي بمقارنتها فيما بينها قصد استنتاج ما هو أقرب إلى تصور دو سوسير.

وقد يبدو من هذا العرض الموجز أن شارل بالي كان الفاعل الأساسي في صياغة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير. وقد جاء ليرجح هذا الرأي العثورُ على الرسالة التي بعث بها شارل بالي إلى أنطوان مايي يستشيره في إخراج كتاب المحاضرات وفق ما جئنا على ذكره من ظروف، لكن أنطوان مايي كان ميالا إلى المشروع المقابل لمشروع بالي وسشهاي، وهو المشروع الذي تحمس له بول روغار وكانت الغاية منه نشر محتوى كراسات الطلبة على النحو الذي أملاها به دو سوسير دون أي تدخل فيها أو إعمال ترتيب مخالف لترتيبها أو تركيب أو تلخيص لها.

---

la collaboration de A. Riedlinger, édition critique de T. de Mauro, Payot & Rivages, 1995, pp. 7-8.

رسالة شارل بالي إلى أنطوان مايي

جنيف، 29 ماي 1913

زميلي الفاضل.

لقد علمت أنك في سفر، ولم أتمكن من إطلاعك على مسألة هامة لا يمكنني مناقشتها إلا معك، فإلى حين عودتك أستبق الزمن كي أعلمك بما جد حتى لا يكون فيما أنا مقدم عليه سوء فهم. لم أحضر يوما محاضرة من محاضرات فردناند دو سوسير في اللسانيات العامة، ولا أعلم منها شيئا إلا ما دونه، تدوينا حسنا، أحد طلبته على مدى سنتين، فلما علمت بشأن مشروع السيد روغار، رحت أتحرى الأمر عند طلبته الآخرين، لاسيما ليوبولد غوتييه وألبير سيشهاي. ولما كانت رغبتي عدم التأثير في آرائهم، لم أخبرهم بالأمر، واستفسرت منهم عن طبيعة المحاضرات والشروط الملائمة لنشرها، فكانت إجابتهم متطابقة تماما فيما تعلق من المسائل التالية: على الرغم من أن المبادئ التي استند إليه التعليم لم تتغير، إلا أن لكل سنة من السنوات الجامعية (وعددها ثلاث) طابعا خاصا يميزها عن السنوات الأخرى، وكثير من تفاصيل إحداها من شأنها أن تثري الأخريين دون أن يكون لها فيهما تأثير. إن الأشخاص الذين استشرناهم كلهم موقنون بأن قيمة عمل دو سوسير تكمن في مجموعه والنزعة النسقية مثلما تكمن في أجزائه، ولقد أصروا على المسألة التالية: لا يمكن أن يستند العمل المراد إنجازه، مهما كانت طريقة النشر المراد انتهاجها، على مدونات طالب واحد، وعلى درس واحد، ونحن معتقدون بأنه من الجدير، قبل التفكير في الاكتفاء بمقال، النظر في إمكانية التحضير لكتاب مستقل، أو الاستغناء عن هذه الفكرة في حالة ما إذا كانت غير ممكنة. لقد زرت السيدة دو سوسير الأسبوع الماضي لأطلعها بالأمر فأخبرتني بأن السيدين ألبير سيشهاي

وليوبلد غوتيي حدثاها بشأن هذا الموضوع، وأنها لا تنوي إبداء الرأي فيه حتى يستكمل التحري المشار إليه آنفا. ثم يجب أن أضيف معلومة سرية، ذات أهمية بالغة والتي أرجو أن تبقى كذلك بيننا: لقد علمت من مصدر ثقة، اطلع على ما دونه السيد روغار، أن ما دونه، على الرغم من أمانتها، لا يستوفي فكر دو سوسير ويشوهه في بعض جوانبه. لا يمكنني أن أتحقق من هذه المعلومة، غير إنها قريبة من رأيي في الطرائق المتبعة من قبل السيد روغار، القائمة على تتبع الجزئيات دون تلمس الكل. كل ذلك عندي مدعاة للتفكير، وأرجو، زميلي الفاضل، ألا يتبادر من عملي هذا غير الحرص على المحافظة على ذاكرة لا نُكِّن لها جميعنا سوى الاحترام، أفلا يستحسن أن نرجئ هذا العمل لكي لا يكون له آثارا وخيمة غير متوقعة؟ وإذا سمحت لي، فإنه يسعدني أن أعلمك بما أنا مقدم عليه إزاء كل هذا، وإني حاليا أجتهد في تتبع مدونات الطلبة وجمعها، وأرجو ألا تبخل علي بالنصيحة. هل أنت راض عن سفرك، وهل سافر السيد غوتيي؟ أبلغ الجميع تحياتي. قد أتمكن في المستقبل القريب من أن أرسل إليك كتابي الصغير «اللغة والحياة». تقبل، زميلي الفاضل، تحياتي. شارل بالي(7).

(7) - R. Amacker, «Correspondance Bally-Meillet (1906-1932)», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 43, 1989, pp. 102-103.

رسالة السيدة ماري دو سوسير إلى أنطوان مايي

سيدي الفاضل.

أرجو أن تقبل اعتذاري هذه المرة أيضا لتأخري في التعبير عن شكري لك على رسالتك ليوم السادس مارس، كما أشكرك على إحيائك لذكرى زوجي بمناسبة درسيك الافتتاحيين بكوليج دو فرانس ومدرسة الدراسات العليا. لقد كان لذلك أثرا طيبا في نفسي وإني لأشعر بكل الآلام التي عبرت عنها لي، باسم العلم، بمناسبة فقدان زوجي. إني أعلم مقدار الاهتمام الذي كان يوليه للدروس والأبحاث لكل أولئك الذين خلفوه، وأنت تعلم أنه ما كان يغفل عن أي شيء في هذا الميدان. لقد أعطى جل وقته للتدريس وكان تحضيره للدروس يستغرقه إلى درجة لم يسعه نشر أبحاث شخصية أخرى. والآن وقد سألني عدد من طلبته عن إمكانية البحث، في مدوناته، عما يمكن نشره، فإني لا أرى مبدئيا أي مانع لذلك، ولكنك تعلم سيدي الفاضل، وقد عرفت زوجي حق المعرفة، كم كان حرصه شديدا على كل مسألة كان يتناولها، وإني أعتقد أن نتريث قليلا في نشر أي شيء، فما كنت قاطعة أمرا لم يكن ليوافق عليه. ربما وجب النظر فيما دونه عنه طلبته لعلنا ننتهي إلى تكوين فكرة عامة عن إحدى محاضراته، ولكني أرى ههنا أيضا ألا نتعجل. أليس هذا رأيك أيضا؟ قد يؤدي التسرع في نشر عمل ما إلى إفساده في حين قد يؤدي التريث فيه إلى الإجادة فيه، ولئن لست خبيرة في مثل هذه الأمور، فإنني على يقين من أن زوجي كان يعالج الأمور بروية وأن ما وهبه للعلم كان ثمرة لأعماله التي أعمل فيها تأمله وتفكيره. لقد كنت أنوي جمع كل المقالات والانطباعات التي تلقيناها بمناسبة وفاة زوجي، لكنني أود الانتظار حتى ينشر باقي المقالات. أتمنى أن أتمكن من الحصول على تلك التي ستنشرها ضمن مذكرات جمعية اللسانيات وحوليات مدرسة الدراسات العليا.

رأيت أن ذلك سيكون ذكرى من أجل العائلة والأصدقاء. أتمنى، سيدي الفاضل، أن تأتي لزيارتي عندما تكون في الجوار، سأكون دوما سعيدة بمصافحة أولائك الذين شاركونا حزننا. تقبل، سيدي الفاضل، تحياتي الخالصة.

ماري دو سوسير
ترتاص، 2، جنيف
الخامس والعشرون ماي 1913[8]

(8) - E. Benveniste, «Lettres de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 21, 1964, pp. 124-125.

لعلنا ندرك الآن أن شارل بالي كان حقا الفاعل الرئيس في الترويج لمشروع كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة وأن اليد الطولى في ترتيب أبوابه وفصوله، وتتابع أفكاره وآرائه، كانت له. لقد سعى بكل ما أوتي من حجج وقرائن بأن يدفع مشروع روغار القاضي بنشر كراسات الطلبة دون تعديل في محتواها أو تلخيص لها، من خلال التشكيك في قدراته، حتى يتحقق له إقبال زملائه على مشروعه فيكسب ثقتهم وثقة عائلة دو سوسير. والظاهر من محتوى الرسالة التي بعث بها إلى أنطوان مايي يرجو استمالته إلى مشروعه، أن بالي أبقى مشروعه سرا عن عدد من زملائه من مثل غوتيي وسشهاي، هذا الأخير الذي أصبح شريكا له في الإعداد لكتاب المحاضرات، لكن ظروف إشراكه له لا تزال مجهولة. غير إن الخلافات سرعان ما نشأت بين شارل بالي وألبير سشهاي حول الطريقة المتبعة في الإعداد لنشر المحاضرات، وعلى الرغم من أن بالي كان حريصا على المضي في طريقة عمله وتصوره في الإعداد لها، فإن سشهاي تمكن في عدد من المسائل من فرض آرائه(9). ويجب أن نشير إلى مسألة ذات أهمية بالغة في تصور الظروف التي اتصلت بمشروع نشر كتاب المحاضرات، وهي ترتبط بطريقة شراكة بالي وسشهاي في عملهما. لم يكن الإعداد لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من قبل بالي وسشهاي يُنجز في إطار لقاءات دورية بينهما، بل إن صحة سشهاي ألزمته النزول إلى البادية طلبا للراحة بينما استقر بالي بجنيف لإعداد لدرسه الافتتاحي بجامعة جنيف خلفا لدو سوسير. ولذلك عادة ما كان الشريكان يتواصلان عن طريق التراسل.

كتاب المحاضرات، مصادره واجتهادات الناشرِيْن فيه

ألقى دو سوسير خلال السنوات الجامعية (1907-1908)، (1908-1909) و(1910-1911) عددا من المحاضرات، لم يكن يُعلم منها من بعد موته الكثير، سوى ما أقدم على نشره شارل بالي وألبير سيشهاي، ولم يكونا

(9) - E. Sofia, «Cent ans de philologie saussuriennes: Lettres échangées par Charles bally et Albert Sechehaye en vue de l'édition du Cours de linguistique générale (1916)», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 66, 2013, pp. 185-186.

ممن حضر هذه المحاضرات وتابعا مسارات تطور فكر دو سوسير اللسانياتي، إنما اجتهدا قصد التعبير تعبيرا صادقا عن أفكاره في اللسانيات العامة فيما توفر لهما آنذاك من وثائق ومخطوطات. ولما كان المتاح شحيحا جدا مقارنة بما عرف آنذاك عن فكر دو سوسير اللسانياتي المتنوع أفقد الاجتهاد حقيقة النص السوسيري، فقال الناشريْن في مقدمتهم حينئذ: «لقد كنا نأمل أن نجد ضمن مخطوطاته التي وضعتها السيدة دو سوسير في متناولنا، صورة أمينة، أو كافية على الأقل، للمحاضرات، وبدت لنا إمكانية النشر متيسرة لا تتطلب سوى ترتيبٍ لمخطوطات دو سوسير الشخصية وفق ما دونه طلبته من المحاضرات، لكن سرعان ما خاب أملنا ولم نجد منها شيئا يذكر يتوافق وما دونه طلبته، فقد كان دو سوسير يمزق تباعا مسوداته التي كان يخط فيها يوميا مخطط درسه»[10].

إن اللجوء إلى هذا القدر الضئيل من المصادر، قصد التعبير عن فكر دو سوسير اللسانياتي، كان مجازفة ومخاطرة كبيرتين انتهتا بالناشريْن، أو قل المؤلفيْن، إلى فشل ذريع، فقد ألحقت به اجتهاداتهما ضررا لا تزال البحوث الفيلولوجية الحديثة، وكان روبار غودال[11] أول من باشرها، تكشف عن مداه، ووجهت اللسانيات وجهة غير الوجهة التي كان يرتضيها. وفضلا عن قلة المصادر فقد تناولت النقود التي وجهت إلى الناشريْن مسألة ترتيب الكتاب، ومسألة عدم تجانس المصادر التي استقياه منها، ومسألة الإضافات التي أكثرا منها. ولئن مكنت البحوث اللسانياتية التي اتخذت المحاضرات موضوعا فيلولوجيا لها، بما توفر لها من مصادر غير تلك التي اعتمدها الناشريْن، مكنت من الاقتراب من فكر دو سوسير اللسانياتي الأصيل، فإن كتاب المحاضرات، على الرغم من النقود التي وجهت له، مباشرة بعد نشره، من قبل عدد من اللغويين، ظل قرابة الأربعين سنة التي تلت المصدر الوحيد لفكر دو سوسير اللسانياتي، والمحرك الرئيس لجل نظريات اللسانيات ومدارسها.

---

(10) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, Préface de la première édition, Edition critique établie par T. de Mauro, Payot & Rivages, 1995, pp. 7-8.

(11) - R. Godel, Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, Genève, Droz, 1957.

مصادر كتاب المحاضرات

لم تكن المصادر التي استقى منها ناشري كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة مصادر تتصل مباشرة بشخص دو سوسير إذ لم يتوفر لهما آنذاك من مسوداته إلا النزر القليل، فقد كان دو سوسير كما أسلفنا القول يمزق تباعا كل المسودات التي كان يحضر بها دروسه على طول السنة الجامعية، لذلك لم يكن بيد الناشريْن آنذاك حيلة سوى اللجوء إلى ما نقله طلبته، وتناقلوه، عنه. لقد لجأ الناشران إلى كراساتِ سبعة طلبة، أما محاضرات السنتين الجامعيتين (1906-1907) و(1908-1909) فقد استقياها من كراسات كل من لويس كاي، وليوبولد غوتيي، وبول رغار، وألبير رايدلنغر، أما محاضرات السنة الجامعية (1910-1911)، وهي التي تمثل في نظر الناشريْن أهم المصادر التي يمكن الولوج منها إلى فكر دو سوسير، إذ هي تمثل في نظرهما المرحلة الأكثر نضجا واكتمالا، فقد استعانا في إعادة إنتاجها بكراسات السيدة سشهاي، زوجة ألبير سشهاي، وجورج ديغاليي، وفرانسيس جوزيف.

إن المصادر التي استقى منها ناشرا كتاب دو سوسير في اللسانيات العامة المادة العلمية التي احتوى عليها، كراسات يعتريها جانب من النقص والاختلاف. ولذلك ندرك مدى الصعوبة التي كان على الناشريْن مجابهتها، ثم إن الاطلاع على العمل الفيلولوجي الذي اضطلع به روبار غودال هو وحده الكفيل ببيان مدى هذه الصعوبة، واستحالة في بعض المواطن، استخلاص فكر دو سوسير الأصيل من كراسات مختلفة. ثم إن اللجوء إلى كراسات الطلبة من أجل إعداد الكتاب أدى إلى عدم التمييز بين فكر دو سوسير الأصيل وبين ما فهمه منه طلبته، وشتان بين هذا وذاك، فقد انعكس ذلك سلبا على تطور اللسانيات إذ نشبت بين متلقي محتوى المحاضرات خصومات فكرية أكثرها حدة ما دار حول مسألة اعتباطية العلامة اللسانية، منذ أن شكك إيميل بنفنست في دعائمها وهو يعاود البحث في طبيعة العلامة اللسانية[12].

---

(12) E. Benveniste, «Nature du signe linguistique», Acta linguistica, I, 1939, repris dans, Problèmes de linguistique générale, 1, Paris, Gallimard, 1966, pp. 49-55.

ولقد برزت الحاجة إلى التمييز بين كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة والمصادر التي استقى منها ناشريْه محتواه منذ العقود الأولى من القرن الماضي، وانتقل هذا الحرص من روبار غودال إلى رودلف أنغلر حينما أخرج طبعته النقدية لكتاب المحاضرات وفيها تتبع كل الأصول التي نُسجت منها فقرات الكتاب[13]، وقد رتبها فقرة تلوى الأخرى حتى يتبين للقارئ الباحث عن أصالة فكر دو سوسير مقارنة بما نقله عنه شارل بالي وألبير سشهاي، التفاوت القائم بين ترتيب المحاضرات كما هي مبثوثة في ثنايا الكتاب وبين ترتيبها الفعلي كما تلقاها طلبة دو سوسير عنه، وما أعملاه من تقديم وتأخير، وتبرز أمامه جلية الاجتهادات التي لجآ إليها والعدد المعتبر من المصطلحات التي أدرجاها.

كان يُعتقد أن فردناند دو سوسير لم يترك بعد موته سنة 1913 شيئا كثيرا من المحاضرات في اللسانيات العامة التي ألقاه بجامعة جنيف خلال السنوات الجامعية الثلاث، فبات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، منذ نشره سنة 1916، المنفذ الوحيد لفكره، والمعبر الوحيد عن آرائه في دراسة الألسن. لكن الدراسات الفيلولوجية التي عنيت بالتنقيب في مخطوطات دو سوسير، منذ أن أودع ولديه، رايموند وجاك، مجموعة منها بمكتبة هُغتن بجامعة هارفارد سنة 1968، يصل محتواها إلى 995 صفحة، ما انفكت تبرز مدى تنوع فكر دو سوسير اللسانياتي وتعدد اهتماماته وثرائها[14]، فلقد بات معلوما الآن أن ما خلّفه دو سوسير من كتابات يصل إلى قرابة 10 آلاف ورقة موزعة بين مكتبة جنيف العامة الجامعية[15] ومكتبة هُغتن[16]، وأنه كان عارفا بالألسن يجيد الترجمة فيها، حاول منذ سن الرابعة عشر من عمره تصور نسق شمولي عن الألسن من خلال رد كلمات الألسن اليونانية واللاتينية والألمانية إلى عدد

(13) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique de R. Engler, édition critique par R. Engler, Tome 1, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1968p. 49-55.

(14) - H. Parret, «Les manuscrits saussuriens de Harvard», Cahiers Ferdinand de Saussure, N° 47, 1993, pp. 179.

(15) - R. Godel, «Inventaire des manuscrits remis à la Bibliothèque publique et universitaire de Genève», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 17, 1960, pp. 5-11.

محدود من الجذور[17]، ثم ما انفك منذ التحاقه بجامعة ليبزغ، المركز العالمي للسانيات التاريخية المقارنة، ثم عضوا بجمعية باريس، يؤسس منهجا جديدا في التعاطي مع الوقائع اللسانية والسيميائية.

إن تاريخ دو سوسير اللسانياتي الحافل بالاستكشافات والمغامرات الفكرية أضحى في السنوات الأخيرة، لاسيما بعد العثور سنة 1996 بمنزل عائلة دو سوسير على كتاب في اللسانيات كان دو سوسير يوما أومئ به إلى صديقه أنطوان مايي، واعتقد الجميع أن دو سوسير عزف عن كتابته، موضوع بحث واستقصاء، وها هو الكتاب منشورا ضمن نصوص أخرى، قديمة وجديدة[18]، تدل من جديد على أن معرفتنا بدو سوسير وفكره معرفة لا تتجاوز صفحات الكتاب في المحاضرات في اللسانيات العامة الذي ألفه من بعد موته شارل بالي وألبير سشهاي استنادا إلى وثائق تفصلها عن فكر دو سوسير الأصيل مسافة معتبرة. وليس أدّل على ذلك من معاودة مقابلة كراسات الطلبة التي استندا إليها بمحتوى الكتاب الذي ألفاه، ورتبا أبوابه وفصوله، وأضافا إليه. وحقيقة الأمر أن عنوان الدروس التي أوكلت لدو سوسير من قبل كلية الآداب والعلوم الاجتماعية لجامعة جنيف، استخلافا لجوزيف ورتيمار، كان «اللسانيات العامة وتاريخ الألسن الهندية الأوروبية ومقارنتها»، مدتها ساعتين في كل أسبوع، فضلا عن أربع ساعات أخرى أسبوعيا كان دو سوسير يضطلع فيها بتدريس النحو المقارن واللسان السنسكريتي[19].

لقد أسهم نشر بعض كراسات طلبة دو سوسير في الكشف عن الكثير من

---

(16) - F. Johannesm, «Saussure : cours, publications, manuscrits, lettres et documents. Les contours de l'œuvre posthume et ses rapports avec l'œuvre publiée». Histoire Épistémologie Langage, tome 18, fascicule 2, 1996, p. 180.

(17) - F. de Saussure, «Essai pour réduire les mots du grec, du latin et de l'allemand a un petit nombre de racines», édité par B. Davis, Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 32, 1978, pp. 73-101.

(18) - F. de Saussure, F. de Saussure, Écrits de linguistique générale, édition de S. Bouquet et R. Engler, paris, Gallimard, 2002.

(19) - T. de Mauro, «Notes biographiques et critiques sur F. de Saussure», in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 235.

جوانب الخلل الذي طال الكتاب الذي ألفه انطلاقا منها شارل بالي وألبير سشهاي، ولعل الفضل الأول في التعريف بفكر دو سوسير اللسانياتي الأصيل يعود بالدرجة الأولى إلى روبار غودال الذي مكن المجتمع العلمي من الاطلاع على المخطوطات الأصلية لكتاب المحاضرات (1959)، وهو الكتاب الذي استند إليه رودلف أنغلر لإعداد طبعته النقدية لكتاب المحاضرات[20]، فحقق أمنية بول روغار من خلال مقابلة محتوى الكتاب بمحتوى كراسات الطلبة (1968)، وألحق طبعته النقدية بالجزء الثاني منها، سنة 1974، يحوي بعض ملحوظات دو سوسير في اللسانيات العامة[21]، وهي الملحوظات التي أعيد نشرها سنة 2002 ضمن نصوص دو سوسير الأصيلة التي عثر عليها سنة 1996. ويجب أن نشيد في سياق التعريف بأصول فكر دو سوسير اللسانياتي بالجهود التي بذلها تيليو دو مورو في إعداد طبعته النقدية لكتاب المحاضرات (2005)، كما أسهم أيسوكي كوماتسو في تحقيق مجموع محاضرات السنة الجامعية الأولى (1907) في اللسانيات العامة التي دونها ألبير رايدلنغر ونشرها سنة 1996[22]، ثم أتبعها العام 1997 بتحقيق كراسات ألبير رايدلنغر وشارل باتوا التي تحوي ما دوناه من محاضرات السنة الجامعية الثانية (1908-1909)[23]، وأخيرا ما دونه إيميل كنستونتان من محاضرات السنة الجامعية الثالثة (1910-1911)[24].

(20) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Tome 1, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1968.

(21) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Tome 2 : appendice. Notes de F. de Saussure sur la linguistique générale, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1974.

(22) - F. de Saussure, Premier Cours de linguistique générale (1907), d'après les cahiers d'Albert Riedlinger, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1996.

(23) - F. de Saussure, Deuxième Cours de linguistique générale (1908-1909), d'après les cahiers d'Albert Riedlinger et Charles Patois, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1996.

(24) - F. de Saussure, Troisième Cours de linguistique générale (1910-1911), d'après les cahiers d'Emile Constantin, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1993.

ترتيب المحاضرات

لقد أضحى مستحيلا الولوج إلى فكر دو سوسير اللسانياتي دون الاسترشاد بأعمال روبار غودال وطبعتي رودلف أنغلر وتيليو دو مورو النقديتين، فلقد كشفت هذه الدراسات بأن الترتيب الذي سار عليه تبويب كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة يختلف عن الرصف الذي انتهجه دو سوسير في طرح المسائل اللسانياتية التي عالجها على امتداد السنوات الجامعية الثلاث كل الاختلاف. كما كشفت هذه الدراسات النقدية أن شارل بالي وألبير سشهاي استندا للإعداد للكتاب إلى سلسلة الدروس التي ألقاها دو سوسير خلال السنة الجامعية الثالثة اعتقادا منهما بأن ما تأخر كان أفضل نضجا، لكن الأمر لم يكن كذلك. إن المقارنة بالتسلسل الحقيقي لأفكار دو سوسير اللسانياتية التي ألقاها على طلبته والخطة التي سار عليها ترتيب كتاب المحاضرات كفيلة بأن تكشف عن قلة وفائهما. ولذلك فإن أولى المسائل التي يجب على الباحث التحقق منها هي إعادة ترتيب المحاضرات على النحو الذي ألقاها به دو سوسير، ولقد كان لروبار غودل، في هذا الشأن، قصب السبق عندما أخرج للباحثين في فكر دو سوسير كتابه الذي جمع فيه الأصول المخطوطة للمحاضرات في اللسانيات العامة سنة 1957، وهو المصدر الذي استند إليه كريستيان بوتا في استخلاص الترتيب الفعلي لمحاضرات دو سوسير الحقيقية[(25)].

ولئن استند شارل بالي وألبير سشهاي إلى محاضرات السنة الجامعية الثالثة للإعداد لكتاب المحاضرات فإن دو سوسير ما استهل هذه المحاضرات بالتعريف بمفهوم اللسان، بل إن جل ما ابتدأ به الناشريْن كتاب المحاضرات إنما كان آخر ما تطرق إليه دو سوسير في هذه السنة. صحيح أن دو سوسير كان استهل هذه السنة الجامعية بالتعريف باللسانيات، والتمييز بين مادتها وموضوعها، والتمييز بين ملكة اللغة واللسان الذي هو نتاج اجتماعي، لكن دو سوسير تناول في هذه السنة مسائل تتصل بالألسن من حيث تعددها الجغرافي، وتنوع أشكالها، قبل أن

---

(25) - C. Bota, «La question de l'ordre dans les cours et les écrits saussuriens de linguistique générale. Essai de refonte géométrique», Cahiers Ferdinand de Saussure, N° 55, 2002, pp. 139-167.

يُقبل على مدارسة مفهوم اللسان، وتحديد موقعه من الوقائع اللغوية والوقائع الإنسانية، وتمييزه عن الكلام، والتقعيد لثنائيات لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، واللسانيات القارة واللسانيات التاريخية، وتعريف اللسان بوصف نسقا من العلامات، والوقوف عند طبيعة العلامة اللسانية، ومن ثم التطرق إلى مسألة القيمة، وهي كلها مسائل استهل بها شارل بالي وألبير سشهاي الكتاب الذي وضعاه، ونسباه إلى دو سوسير.

لـم يلتزم الناشريْن إذن بالتسلسل الطبيعي لأفكار دو سوسير اللسانياتية، وهو تسلسل ينطلق من الدراسة التطبيقية للألسن لينتقل إلـى مفهوم اللسان، ولقد وصف لويس جون كلفي هذا التدرج بأنه ينطلق من مفهوم القيمة الذي ينجم عنه، بصورة منطقية، مفهوم اعتباطية العلامة اللسانية، ويؤدي هذا الأخير إلـى التمييز بين اللسان والكلام، لأن القيمة حدث لساني بينما الدلالات حدث كلامي[26]. وإن نظرت فـي الكتاب فإنك تـجد الناشريْن لم يستوفيا هذا الارتباط الـمنطقي بين هذه المفاهيم، فقد وضعا التمييز بين اللسان والكلام فـي الفصل الثالث من مقدمة الكتاب، وأرجآ الـحديث عن طبيعة الوحدات اللسانية إلى الفصل الرابع من القسم الثانـي من الكتاب. لقد اجتهد شارل بالي وألبير سشهاي، وهما يحاولان، بالتعاون مع ألبير رايدلنغر، لملمة فيما عثرا عليه من نصوص ما يقربهما من فكر دو سوسير اللسانياتي زلفى، التعبير عن هذا الفكر تعبيرا صادقا، لكن اجتهاداتهما غالبا ما وارت التراب جوانب هامة من فكره، وقد قصرا عن التعبير عن عدد كبير من المصطلحات والمفاهيم التي تعامل بها دو سوسير في تـخليص اللسانيات من قبضة تصورات القرن التاسع عشر اللسانياتية التي طالما ركنت إلى التصورات الطبيعية.

ولقد بات معلوما أن دو سوسير كثيرا ما اجتهد، في محاضراته، في رد التصور الطبيعي للألسن على الرغم من تأصله في أدبيات لسانيات القرن التاسع عشر، حتى تبدو حقيقة اللسان الاجتماعية، والتاريخية، والنفسية ظاهرة للعيان.

---

(26) - L.-J. Calvet, Pour et contre Saussure. Vers une linguistique sociale, Paris, Payot, 1975, pp. 19-20.

ولئن نظرنا في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لألفينا مسألة علاقة اللغة بالفكر مقدمة استعانا بها للتعريف بمفهوم القيمة، وهي مدرجة ضمن المسائل التي تضمنها الفصل الرابع من الجزء الثاني المخصص للسانيات الآنية من الكتاب(27)، في حين أن دو سوسير لم يتناول هذه المسألة إلا في الدروس الأخيرة من السنة الجامعية الثالثة (1910-1911)، وهي ضمن الكراسة العاشرة من كراسات إيميل كنستنتان(28).

موضوع اللسانيات بين كتاب المحاضرات وأصولها المخطوطة

لقد مكنت هذه الجهود الفيلولوجية من تلمس مواطن الخطأ والزلل التي شابت كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي نسبه شارل بالي وألبير سشهاي إلى دو سوسير، ولا يمكننا تتبع كل هذه المواطن بشيء من التفصيل والدقة، بل حسبنا أن نمعن النظر في التعريف الذي ارتضاه دو سوسير للسانيات. استهل دو سوسير تدريس مادة اللسانيات العامة بالتعريف بها، إنها علم اللغة أو علم الألسن(29). وقبل أن نُـمعن في النظر في هذا التعريف الذي استقيناه من كراسة رايدلنغر، وهي الكراسة التي اعتمدها شارل بالي وألبير سشهاي، يجب أن نتحقق من مدلول لفظة العلم، إذ لا شك في أن مدلولها في تصور دو سوسير غير الذي اصطنعته لسانيات القرن التاسع عشر وتداولته أدبياتها حتى مطلع القرن العشرين. ولئن كنا نسجل هذا الاختلاف في اصطناع المعنى المراد من لفظة العلم، فإن تحديد محتواها ليس بالأمر الهين، فلطالما اختلفت المذاهب الإبستيمولوجية في هذا المسعى إلى درجة أضحى من العسير القبض على تعريف جامع لها، سواء مذ كانت الإبستيمولوجيات مجرد أفكار في نقد العلوم أيام تدريس دو سوسير للسانيات العامة، أو منذ أن تأسست كمادة علمية فرعية مستقلة في دائرة الفلسفة في النصف الأول من القرن العشرين. ويجب أن

(27) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 155.

(28) - F. de Saussure, Troisième Cours de linguistique générale (1910-1911), d'après les cahiers d'Emile Constantin, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1993, p. 138.

(29) - F. de Saussure, Premier Cours de linguistique générale (1907), d'après les cahiers d'Albert Riedlinger, p. 1.

نشير ههنا إلى أن اللسانيات كانت دوما حريصة على النظر في الطرائق التي عادة ما استعملتها في مناهجها، وطبيعة الأفكار والمعطيات التي كانت تتعامل معها[30].

وبعدُ، فإن اللافت الأول في تعريف دو سوسير للسانيات بأنها علم اللغة أو علم الألسن، أداة أو «ou» التي تفيد الخيار، أي أيما التعريفين اخترت جاز لك ذلك، وينطوي هذا التعريف على مسلمتين هما: إن اللسانيات بوصفها علمٌ للغة «langage» مرادف لوصفها بعلمِ الألسن «langues» من جهة، وأن مفهوم اللغة يختلف كل الاختلاف عن مفهوم اللسان من جهة أخرى، إذ الأول ميزته الإفراد أما الثاني فميزته التعدد والتنوع.

يمثل هذا التعريف الذي استقيناه من كراسة رايدلنغر تعريفا للسانيات من الداخل، ويستند تفسيره إلى المعنى الذي يراد به لكل من مصطلحي اللغة واللسان، لذلك توجه دو سوسير إلى تعريف اللسانيات من الخارج، بمعنى تحديد علاقاتها مع العلوم المجاورة، مع الإثنولوجيات أولا، ثم الفيلولوجيات وعلم النفس، ثم المنطق وعلم الاجتماع. وفي هذا الإطار اجتهد دو سوسير في هذا الشأن إلى رد بعض التصورات الفاسدة من مثل الاعتقاد في الاختلاف التدريجي للألسن، ولقد كان هذا الاعتقاد سائدا في أدبيات لسانيات القرن التاسع عشر التاريخية المقارنة، وهو تصور أخذت به عن علوم عصرها الطبيعية فنظرت إلى الألسن بوصفها كائنات حية، تحي، تنمو ثم تموت. كما إن اللسانيات، لارتباطها ردحا من الزمن بالفيلولوجيات، لطالما اتخذت الكلمة المكتوبة الوحدة التي تعالمت بها في تحرياتها.

وإذا أبنا إلى تعريف دو سوسير للسانيات كما تناقلته كراسات طلبته، بوصفها «علم اللغة أو علم الألسن»، ورحنا نتتبع كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة نبتغي التحقق من هذا التعريف ما وجدنا له أثرا، بل إن التصور الذي اصطنعه شارل بالي وألبير سشهاي عن اللسانيات يختلف كل الاختلاف عن تصور دو سوسير لها، إذ إنهما أزاحا مفهوم اللغة عنها، وتخليا

---

(30) - J.-C. Milner, Introduction à une science du langage, Paris, Seuil, 1995, p. 9.

عن ميزتي التعدد والتنوع اللتين هما من خصائص الألسن الثابتة، فأضحى اللسان، من وجهة نظرهما، «في ذاته ولذاته، الموضوع الوحيد والحقيقي للسانيات»[31]، بل إن التخلي عن مفهوم اللغة (والكلام أيضا)، واتخاذ مفهوم اللسان المفهوم المحوري الذي تدور حوله سائر المفاهيم هما الدعامتين الرئيستين، والكفيلتين في نظرهما، بصياغة اللسانيات علمية.

لقد أفقدت اجتهادات شارل بالي وألبير سشهاي لسانيات دو سوسير سعيها نحو العموم والشمول، بحصرها موضوع اللسانيات في اللسان دون غيره، بيد إن اللغة، بوصفها ملكة إنسانية وظاهرة من الظواهر التي يجب النظر فيها، تعد في نظر دو سوسير فصلا مهما من الفصول التي يجب أن تتعهدها اللسانيات بالدرس، وإننا ههنا نلمس جانبا مهما من جوانب فكر دو سوسير المتعدد، وهو نزعته نحو التجريد والعموم، فاللسانيات ستبقى، في نظر دو سوسير، عاجزة عن تفسير كثير من المسائل اللسانية ما لم تع ضرورة عدم الفصل بين دراسة اللغة ودراسة اللسان.

اجتهادات الناشريْن

لم تقتصر اجتهادات شارل بالي وألبير سشهاي على إعادة ترتيب محتوى المحاضرات ترتيبا لا يتناسب مع تطور فكر دو سوسير اللسانياتي، لا يفي طبيعة تحول تفكيره من مسألة إلى أخرى ولا يعي حقيقة تناوله للمسائل نفسها من وجهات نظر مختلفة، بل أكثرا من الزيادات، وبالغا في الاختزالات، وأفرطا في استعمال المصطلحات. ولئن كانت الغاية من هذا الترتيب التخلص من مواطن الإسهاب والإطناب التي كان دو سوسير يسترسل فيها للتعبير عن المسائل اللسانياتية تعبيرا دقيقا يستنفذ كل دقائقها، فإن هذا الترتيب أربك كل ذي بصيرة بفكر دو سوسير اللسانياتي.

لكن أخطر اجتهاد لشارل بالي وألبير سشهاي هو اختزال فكر دو سوسير اللسانياتي في لسانيات اللسان، بل إن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة

---

(31) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Séchehaye avec la collaboration de A. Riedlinger, p. 317.

الذي وضعاه، ونسباه إلى دو سوسير، قوامه هذا الاختزال: «إن اللسان هو الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات»، فليس بعد هذا الإخلال إخلال، وإنما كل ما أخفقا فيه تبع له، ونتيجة حتمية ناجمة عنه. صحيح أن دو سوسير تكشّفت له ضرورة التمييز بين اللسان والكلام حتى أضحى أمرا بديهيا، مثلما أسر بذلك إلى ليوبلد غرتيي، وهو تمييز كانت الغاية منه استخلاص المسائل اللسانية من كل ما هو فيزيولوجي(32)، فلا يبقى إلا ما هو نفسي، لكن التمادي في إخراج الكلام من دائرة اللسانيات كان عملا لا يستند إلى أي إقرار صريح من لدن دو سوسير، بل إن النصوص التي ما انفك الباحثون يستكشفونها تعبر عن عكس ذلك.

ولأننا أرجأنا النظر في مسألة التمييز بين اللسان والكلام إلى الفصل الثامن، فإننا نود ههنا أن ننتقل إلى تمييز آخر، يتعلق بالفصل بين الآنية والدياكرونية. لقد كانت هذه المسألة هي الأخرى موضوع خلاف كبير بين جمهور اللغويين الذين تلقوا محاضرات دو سوسير اللسانياتية نتيجة عدم توفيق شارل بالي وألبير سشهاي في التعبير عنها تعبيرا صادقا. ولعل السبيل الوحيد إلى استخلاص تصور دو سوسير لطبيعة هذه الثنائية هو اللجوء إلى كتاباته الأصلية. لقد أسهبت أدبيات اللسانيات الحديثة والمعاصرة في وصف تمييز دو سوسير بين الآنية والدياكرونية والتعليق عليها. ولقد بدا أن الاستفسار الرئيس المتعلق بهذه المسألة يمكن صياغته على النحو التالي: «هل هذا التمييز ناشئ عن طبيعة الموضوع ذاته، أم أن التمييز بينهما تمييز منهجي لا غير؟»(33).

لقد أوضح تيليو دو مورو كيف استقر لدى عدد من اللغويين جراء قراءة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أن التمييز بين الآنية والدياكرونية يستند، في فكر دو سوسير، إلى طبيعة في الألسن، وأن للألسن في الآن ذاته، آنية ودياكررونية. يقول بشأن هذا التمييز: «لقد أجمع جل الذين أسهموا في إثراء

---

(32) - L. Gautier, «Entretien avec M. De Saussure, 6 Mai 1911», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 58, 2005, p. 70.

(33) - S. Verleyen, «Les avatars d'une dichotomie saussurienne: Synchronie et diachronie dans les théories modernes du changement linguistique» Travaux de linguistique, nº 57, 2008, p. 135.

هذه المسألة على ضرورة تجاوز الفصل بين الآنية والدياكرونية. ولطالما اعتُقِد أن التمييز هذا يستند، في تصور دو سوسير، إلى واقع حاصل، أي أن الألسن لها آنية ودياكرونية مثلما للسيد ديرون قبعة وقفزات. ولقد نجم عن هذا الفهم اعتراضات أعرب عنها أصحاب النزعة التاريخية والنزعة البنوية على حد سواء»[34].

كما نجم عن هذا الفهم مواجهات أدبية بين أعضاء مدرسة جنيف وحلقة براغ بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول للغويين سنة 1929 حينما أعلن كل من ياكبسون، تروبتسكوي وكارشيفسكي عن ضرورة تجاوز الفصل الصارم الذي يقيمه دو سوسير بين الآنية والدياكرونية، ثم ما انفكت معظم المدارس اللسانية تدعو إلى هذه الضرورة. ولقد أشار تيليو دو مورو في هذا السياق إلى حالة اللبس التي غمرت هذه المجادلات، وغيرها من المسائل الأخرى التي تعلقت بتلقي محتويات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، مبرزا موقف دو سوسير الأصيل من التمييز بين الآنية والدياكرونية قائلا: «إن موقف دو سوسير من المقابلة بين الآنية والدياكرونية موقف منهجي، وهو قائم على تمييز بين وجهتي نظر مختلفتين، يتخذها اللسانياتي إزاء موضوعه ولا تخص مجمل الأشياء التي يعنى بها الباحث، أي المادة التي يشتغل عليها»[35].

وحتى نتمثل بيان تيليو دو مورو لهذا التوضيح لا بد لنا أن نستحضر في هذا السياق التمييز الذي يقيمه دو سوسير، وهو بارز في كتاب المحاضرات، بين مادة اللسانيات وموضوعها. لكننا يجب أن نبرز قبل ذلك دلالة مفهوم وجهة النظر «point de vue»، الذي توارد خمسين مرة في كتاب المحاضرات، وهو واحد من بين المفاهيم التي أضحى لها دور بارز في تفسير جملة من تصورات دو سوسير، إذ شاع عن دو سوسير، من خلال كتاب المحاضرات، قوله «إن وجهة النظر هي التي تحدد الموضوع»[36]. وعلى الرغم من توارده

(34) - T. de Mauro, «Notes biographiques et critiques» in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 452.

(35) - Idem, p. 453.

(36) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 23.

مرات عديدة فإن المفهوم لم يبد حينئذ لشارل بالي وألبير سشهاي من بين المفاهيم المؤسِسة، فغاب عن النقاشات التي دارت حول كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بُعيد صدوره، وظل غائبا حين انتقاله إلى بيئات فكرية أخرى عن أدبيات اللسانيات الحديثة فلم يجد تيليو دو مورو مدعاة لإثباته ضمن فهرست المصطلحات في نهاية طبعته النقدية لكتاب المحاضرات سنة 1972.

ولقد كان هنري ميشونيك من بين اللغويين المعاصرين القلائل الذين أشادوا بمفهوم وجهة النظر وأهميته في فهم فكر دو سوسير اللسانياتي[37]، كما أشار أندري روسو من جهته إلى عناية دو سوسير بهذا المفهوم الذي ينبئ عن تصور متأصل في فكره، فلقد دأب دو سوسير على إثبات وجهة النظر في تقاريره السنوية التي كان يعدها كل سنة للتعريف بمحتويات دروسه[38].

إن التقارير هذه تمثل بالنسبة للباحثين المحدثين مواد علمية تحتوي على جانب هام من جوانب فكره اللسانياتي، وإن الباحث وهو يطلع على تلك التي نشرها فلوري[39] مثلا يدرك حرص دو سوسير على التمييز بين وجهات النظر في مدارسة الألسن، كما هو بارز في التقرير الذي أعده عن دروسه في النحو المقارن من السنة الجامعية 1881-1882، «لقد ألقى السيد دو سوسير محاضرتين في كل أسبوع، يومي الأربعاء والسبت... ولقد خصصت دروس الأربعاء للصوتيات (النسق الكتابي، نسق الصوائت، نسق الصوامت، من وجهة نظر فيزيولوجية وتاريخية»[40]. ولقد تأصلت الفكرة القائمة على التمييز بين وجهات النظر في فكر دو سوسير منذ بداياته الأولى في مهنة التدريس التي باشرها منذ 1881 بمدرسة الدراسات العليا بباريس وامتدت لسنوات عشر إلى

(37) - H. Meschonnic, «Saussure ou la poétique interrompue», Langages, nº 159, 2005, pp. 10-18.

(38) - A. Rousseau, «Ferdinand de Saussure descripteur des langues», in L. de Saussure (éd.), Nouveaux regards sur Saussure, Genève, Droz, 2006, p. 77.

(39) - M. Fleury, «Notes et documents sur Ferdinand de Saussure (1880-1891)», École Pratique des Hautes Études, IV^{e} section, Annuaire 1964-1965, 1965, pp. 35-67.

(40) - Idem, p. 55.

غاية 1891، وكان عمره لا يتجاوز آنذاك أربع وعشرين سنة، وهي الفترة التي تبرز فيها بكل جلال، مثلما أوضحه بنفنست[41]، منهجية دو سوسير الآنية في مدارسة الألسن، وارتباط هذه بمفهوم وجهة النظر.

لقد مكنت النصوص المنشورة ضمن كتاب دو سوسير الجديد سنة 2002، لاسيما مخطوط «De l'essence double du langage»، من التعرف على القيمة المنهجية التي يكتسيها مفهوم وجهة النظر، ولقد تنبه محققيْ هذا الكتاب، سيمون بوكي ورودلف آنغلر، إلى ضرورة إدراجه ضمن فهرست المصطلحات، ففاقت تواراداته في الكتاب الأربعين. إن وجهة النظر موقف إبستيمولوجي، وهي في الآن ذاته موقع يتخذه الباحث إزاء المادة التي يرومه استخلاص موضوعه منها، ولئن اعتاد الفلاسفة والعلماء والمفكرون على استعماله في مؤلفاتهم، فإن العادة جرت عندهم على عدم وضع تعريف له، لانتفاء الحاجة إلى ذلك، ويذكر هذا بمؤلَف إميل ليتري، العلم من وجهة نظر فلسفية، الصادر سنة 1884، حين كان دو سوسير أستاذا بمدرسة الدراسات العليا بباريس، فلو تصفحت الكتاب بحثا عن العبارة لوجدتها تتوارد في الكتاب معبرة عن موقع الباحث من الأشياء[42]، لكن المفهوم ليس بعد مصطلحا فلسفيا مؤسسا، وبرهان ذلك غيابه من معجم لالاند الفلسفي[43].

ليس ثمة، في نظر دو سوسير، وجهة نظر وحيدة هي وحدها التي يمكن مدارسة الوقائع اللسانية انطلاقا منها، بل إن ثمة وجهات نظر متعددة، ثم إن وجهات النظر هذه ليست سابقة في وجودها على الوقائع اللسانية، إذ « ليس من الصواب القول إن واقعة لسانية ما تستدعي الفحص من وجهات نظر متعددة، كما ليس صوابا القول أيضا أن الواقعة اللسانية هذه ستختلف باختلاف وجهة النظر، لأن ذلك يؤدي بنا إلى الافتراض مسبقا بأن الواقعة اللسانية مستقلة عن

(41) - E. Benveniste, «Ferdinand de Saussure à l'École des Hautes Études», École Pratique des Hautes Études, IVe section, Annuaire 1964-1965, 1965, pp. 20-34.

(42) - E. Littré, La science du point de vue philosophique, Paris, Didier, 1884.

(43) - A. Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Paris, P. U. F., 4e éd., 1997.

وجهة النظر. يجب القول أن هناك، أساس، وجهات نظر وإلا من المستحيل إدراك الواقعة اللسانية»[44].

إن المتصفح لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة تبرز أمامه منذ الصفحات الأولى للكتاب أهمية التمييز بين مادة اللسانيات وموضوعها إذ خصص شارل بالي وألبير سشهاي لكليهما فصلا خاصا وهما بذلك يعدانهما مقدمتين من مقدمات علم اللسانيات الأساسية. لكن موقع المسألتين من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لا يطابق موقعها الحقيقي من الدروس التي ألقاها دو سوسير، إذ إن دو سوسير لم يتطرق إليهما إلا في بداية السنة الجامعية الثالثة، بعد أن استهل دروسها بتعريف للسانيات. وتفسير ترتيب المسألتين على هذا النحو ضمن كتاب المحاضرات يستقى من قناعة شارل بالي وألبير سشهاي من أن دروس السنة الجامعية الثالثة كانت أكثر نضجا من سابقتيها، وهي المحاضرات التي صيغت على منوالها باقي المحاضرات، على نحو ما باحا به في مقدمة الكتاب.

التلقي الغربي لفكر دو سوسير اللسانياتي بُعيد نشره

ليس من اليسير تتبع كل المراحل التي توالت على تلقي محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة ورسم معالمها، لأن ذلك ينتهي بالباحث إلى إعادة كتابة تاريخ اللسانيات برمته، إذ لم يخل كتاب في اللسانيات منذ مطلع ثلاثينيات القرن الماضي من ذكرٍ لأهم مآثر دو سوسير اللسانياتية كما هي مبثوثة في كتاب المحاضرات، ولا تكاد تصادف نظرية لسانية لا تجد عند منظريها إقرارا بفضل دو سوسير في إحداث القطيعة مع الممارسات اللسانياتية القديمة، وإمداد علوم اللغة التي نشأت بعدها بأهم مفاهيمها ومصطلحاتها. ولئن تأخرت بداية انتقال فكر دو سوسير اللسانياتي إلى البلدان العربية واختلفت معالمه من بلد لآخر فذلك مرده إلى تأخر ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إذ لم ينقل الكتاب إلا في أثناء ثمانينيات القرن الماضي في كل من تونس، والعراق،

---

(44) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 19.

ولبنان، ومصر والمغرب، فأدى اختلاف الترجمات إلى اختلاف في التلقي واضطراب في المصطلحات. ولا نحسب أنفسنا نغالي لو قلنا أن جل المصطلحات التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لم ينج من الاختلاف في التعريب وخلل في التصور.

بيد إن المتأمل في تاريخ الدراسات اللسانياتية السوسيرية من شأنه التمييز في تلقي محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة لدى الغرب بين مراحل أربع: مرحلة أولى تشمل العقود الثلاث الأولى من القرن العشرين، ومرحلة ثانية تبدأ بانعقاد المؤتمر العالمي الأول للغويين العام 1928 وتمتد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم تليها مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وتنتهي ببداية المرحلة الرابعة التي تتزامن مع بداية إخراج مخطوطات دو سوسير الأصلية إلى الناس وتحقيقها(45).

وقبل ذلك، يجب أن نشير إلى أن المراحل التي مر بها تلقي فكر دو سوسير لا تكاد تختلف اختلافا كبيرا في الأمصار الغربية، بل إن المراحل تكاد تكون هي عينها من بدل لآخر لارتباطها الوثيق بتوالي نشر الفكر السوسيري اللسانياتي، ابتداء بالمذكرة حول النسق الأصلي للصوائت في الألسن الهندية الأوروبية سنة 1879، ثم نشر كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة سنة 1916، ثم نشر الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لروبار غودال سنة 1957، والطبعة النقدية لكتاب المحاضرات لرودلف أنغلر سنة 1968 و1974. ويجب أن نشير في هذا الفصل أننا حينما نتحدث عن تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي من قبل المجموعة العلمية في أثناء العقود الثلاث الأولى من القرن الماضي إنما نعني تلقيها لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لا غير، إذ بات هذا الكتاب منذ نشره سنة 1916 إلى غاية ستينيات القرن الماضي المنفذ الوحيد لفكر دو سوسير وبات الناس لا يعلمون من إنتاجه الفكري إلا ما روج له كتاب المحاضرات.

(45) - C. Puech, «L'émergence de la notion de 'discours' en France et les destins du saussurisme», Langages, nº 159, 2005/3, p 95.

لـم تنل مـحاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة كما هي مبثوثة في الكتاب الذي نشره من بعد موته شارل بالـي وألبير سيشهاي القبول الحسن زمن نشرها، ولـم يرض جمهور اللغويين آنذاك عن عدد من التصورات التي احتواها الكتاب، فلقد توالت النقود مباشرة بعد نشره، فلو اكتفينا باعتراضات أنطوان مايي مـمثلا للمدرسة الفرنسية، وانتقادات إيغو شوشار مـمثلا للمدرسة الألـمانية، وتـحفظات أوتو يسبرسن مـمثلا للمدرسة الدنـمركية، وردود ليونارد بلومفيلد مـمثلا للمدرسة الأمريكية لألفيناها تـجمع على رفض جـملة من الـمسائل اللسانياتية. وتتميز هذه المرحلة بعلم نسبي للكتاب وجهل لأهم قضاياه، ولعل أهم الأطروحات التي قوبلت بالرفض من قبل لغويي هذه الـمرحلة هي تلك التي تتصل بـموضوع اللسانيات، والفصل بين الدراسة الآنية للسان والدراسة التاريـخية له.

لا يمكننا أن نتتبع كل فصول تلقي مـحاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة من قبل مـجموعة اللغويين في العقود الأولـى من القرن العشرين، لعدم توفرنا على كل التقارير التي تلت نشر الكتاب، أولا، ولأن هذه المرحلة من مراحل التلقي لم تحض، ثانيا، باهتمام المؤرخين مقارنة بمراحل التلقي الأخرى، لاسيما المرحلة البنوية التي استقطبت الأقلام من كل الأمصار والميادين. وعلى الرغم من الأهمية التي تكتسيها هذه الحقبة لكونها مرحلة مفصلية تختزن تحولات جذرية في الوعي اللسانياتي وصراعا خفيا بين القديم والجديد، بين ما هو قديم من بقية القرن التاسع عشر، التاريخي المقارن، وبين ما هو آت من حلول أنموذج اللسانيات العامة التي درجت بعض المؤلفات على الخوض في مسائلها ابتداء من منعطف القرن الجديد.

ولما كانت هذه المرحلة أفقر المراحل استكشافا من قبل الباحثين لأسباب لا يمكن الإلمام بجميعها، اكتفينا بإيراد بعض المواقف دون غيرها من مواقف اللغويين الذين عبروا عن آرائهم بُعيد نشر كتاب المحاضرات، ولو رمنا استقصاء كل ما قيل، في أثناء هذه المرحلة، بشأن دو سوسير وصنيعه في كتاب اللسانيات العامة ما وسعنا ذلك، لكن الظاهر مما توفر لنا من تقارير حول الكتاب يشير دون ريب إلى أن مسألة الفصل بين اللسان والكلام، وإقصاء

الكلام من دائرة البحث اللسانياتي هي التي أثارت الجدل في أوساط اللغويين آنذاك، وهي مسألة ارتبطت بمسألة أخرى ارتباطا وشيجا، وهي مسألة التمييز بين الآنية والدياكرونية وضرورة الاستقلال بالبحث في كليهما.

ولعل أخطر هذا المسائل على طبيعة تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي هي مسألة موضوع اللسانيات، وهي مسألة نحسبها ذات أهمية إبستيمولوجية بالغة، وهي تلك التي عبرت عنها الجملة التي اختتم بها الناشريْن الكتاب: «إن اللسان هو موضوع اللسانيات، في ذاته ولذاته، وهو موضوعها الوحيد والحقيقي»[(46)]، وهي الجملة التي أثبت روبار غودال[(47)] عدم صحة انتسابها إلى دو سوسير[(48)]، في ضوء ما استجد في المرحلة الرابعة من مراحل تلقي المحاضرات، وهي المرحلة التي تبدأ بالبحوث الفيلولوجية التي قام بها مجموعة من اللغويين بغية رد لدو سوسير ما هو حقا لدو سوسير، والكشف عما يعتري كتاب المحاضرات من نقائص، وإضافات واختزالات، وتحويرات وتعديلات، مما لا يسعنا إحصاءه ههنا.

لكن الاكتفاء ببعض النقود كتمثيل لبعض مواقف المدارس اللسانياتية إزاء محتويات كتاب المحاضرات لن يكون ملائما ما لم يوضع في إطاره الزمني من خلال التذكير بأهم التوجهات اللسانياتية السائدة وعلاقتها بالعلوم الرائجة آنذاك. لقد كانت الممارسات اللسانياتية حتى العهود الأولى من القرن العشرين كما هو معلوم تنحو منحى تاريخي ليس لها شغل سوى الاجتهاد في محاكاة العلوم الطبيعية والاعتقاد في القدرة على الوصول إلى إعادة تشكيل الألسن المنقرضة الأولى، أو اللسان الذي انبثقت عنه الألسن التي يتدارسونها.

ولم تكن الممارسات اللسانياتية في مطلع القرن العشرين متحللة كلها من تصورات القرن الذي خلا، بل ظلت متمسكة بأمانيه، متمرسة في مناهجه،

---

(46) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 317.

(47) - R. Godel, Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, Genève, Droz, 1957, p. 119 et 181.

(48) - T. de Mauro, «Notes biographiques et critiques» in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, pp. 476-477.

حاذية حذوه، ولئن هي اغتنت بـما توافر لها من استكشافات جديدة في مجالات فرعية من اللسانيات فقد بقيت وفية للمنحى التاريخي في معالجة الوقائع اللسانية، لاسيما تلك المتصلة بالتحولات اللسانية والقوانين التي تحكمها. ولقد استحكمت المقارنة في عدد من الدراسات اللسانياتية التي شهدتها هذه الفترة من بداية القرن العشرين وامتدت فيها سطوة النحاة الجدد إلى خارج حدود ألمانيا فلم تزل تعاليمهم يتلقفها طلبة الجامعات الأوروبية آنذاك(49)، لما شيع عنهم من اعتناقهم لمذهب أوغسط كونت الوضعي، وردهم لعدد من تصورات أسلافهم المقارنين القائمة على أسس ميتافيزيقية واهية، وجملة من المسائل التي تناقشوها من مثل البحث عن أصل الألسن. نعم، لم تزل اللسانيات المقارنة في مطلع القرن العشرين تعتد بإسهاماتها، ولم يزل عدد من المقالات يروج لها ويقدم الحصيلة تلوى الأخرى لإنجازاتها، ولعل مقال برتولد دلبروك، «حقيقة القوانين الصوتية»، الصادر سنة 1902 ضمن المجلة الألمانية «حوليات الفلسفة الطبيعية»، لا يزال يمثل أحد المصادر الهامة التي يرجع إليها المؤرخون للتعريف بما آلت إليه اللسانيات التاريخية المقارنة آنذاك.

ولئن مكنت تصورات النحاة الجدد من تخليص اللسانيات من هيمنة الرؤى الرومانسية والنزعة التاريـخانية من خلال إعمال المنهج التجريبي الذي أذاعه كلود برنار منذ منتصف القرن التاسع عشر(50)، وتلقفته، على غرار اللسانيات، علوم أخرى من مثل علم النفس والتحليل النفسي وغيرها من العلوم الإنسانية، فإن اعتقاد النحاة الجدد في شمولية القوانين الصوتية وعموميتها، وما استتبع عنه من رد التحولات الصوتية إلى أسباب آلية لا يمكن بأي حال من الأحوال تلافيها، لم يخل هو الآخر من نقود سرعان ما توالت عليهم من قبل الباحثين آنذاك في حقلي علم اللهجات والجغرافيا اللسانياتية. ولقد اتـجهت هذه الأخيرة في البحث عن أسباب التحولات الصوتية، خلافا لـمحاولات النحاة الجدد، إلى التفسير الذي يستند إلى آلية القياس، وضرورة استدعاء أسباب غير تلك

---

(49) - S. Auroux, «Les antinomies méthodologiques», in Histoire des idées linguistiques, Tome 3, Belgique, P. Mardaga, 2000, p. 410.

(50) - C. Bernard, Introduction à l’étude expérimentale de la médecine,

المتصلة بطرائق النطق من مثل اختلاف اللهجات وحدودها الجغرافية، وتأثير الاقتراض في تشكيلها، إلى غير ذلك من الظواهر ذات الصلة بالتمايز اللهجي بين الأفراد والجماعات[51].

وعندما انتقل النحو المقارن من ألمانيا إلى فرنسا، وقد أسهم علماء اللهجات الألمان في التخفيف من حدة أطروحات النحاة الجدد، عمد ميشال بريال، مترجم أعمال فرنز بوب اللسانياتية المقارنة من الألمانية إلى الفرنسية، وأنطوان مايي الذي استحكمت آراءه اللسانياتية لعقود متوالية، وإيميل بنفنست وغيرهم إلى تطوير النحو المقارن، والتحول بدراسة اللغة والألسن من المقارنة إلى أفضية غير تلك التي اعتاد على ارتيادها جمهور اللغويين من قبل. لقد أدت هذه الاستكشافات، رويدا رويدا، إلى ظهور أنموذج في مدارسة الوقائع اللسانية، وهو أنموذج اللسانيات العامة. لقد بدأت عبارة اللسانيات العامة رواجها منذ 1900، دالة آنذاك على مجموع الأفكار التي تسعى إلى توحيد اختلاف الألسن، وتقرر إدراجها في محتويات المحاضرات الجامعية، فقد بات معلوما أن دو سوسير أوكل إليه، بجنيف سنة 1906، تدريس مادة يجمع عنوانها بين اللسانيات العامة والمقارنة بين الألسن الهندية الأوروبية.

التلقي الفرنسي

تفاوت التلقي الفرنسي لمحاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة بين مقبل ومدبر، وبين متدبر ومتجاهل، ففي حين دافع ألبير سشهاي عن أصالة أفكار أستاذه مقارنة بالجو الفكري الذي كان سائدا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومنعطف القرن الذي تلاه، وجدية الطرح الذي استحدثه في مقاربة الوقائع اللسانية[52]، آخذ أنطوان مايي دو سوسير إقصاءه للكلام من حقل تحريات اللسانيات، وحصر موضوعها في اللسان «langue» والاستغناء عن باقي الوقائع اللسانية الأخرى، وهو تصور يتنافى، في نظره، مع ما انفكت تقرره

---

(51) - M.-A. Paveau et G.-É. Sarfati, Les grandes théories de la linguistique. De la grammaire comparée à la pragmatique, Paris, A. Colin, 2003, p. 23 et s.

(52) - A. Sechehaye, «Les problèmes de la langue à la lumière d'une théorie nouvelle», Revue philosophique de la France et de l'Etranger, nº 84, Juillet-Décembre 1917, pp. 1-30.

الدراسات الصوتية آنذاك، فهذه الأخيرة لا يـمكن لها أن تزداد قربا من اللسان إلا من خلال مدارسة دقيقة، مـمعنة في التفاصيل، للكلام[53]. ولئن كان لمثل هذه الردود ما يبررها بالنظر إلى الـجو العلمي السائد فـي فرنسا آنذاك، الـمتعطش إلـى معرفة ما بلغته اللسانيات التاريخية المقارنة التي أبدع الألـمان فيها، لاسيما على إثر ترجمة ميشال بريال لأعمال فرانز بوب، فإن جورج مونان ما انفك يشير إلـى قلة إدراك أنطوان مايي ومن حذا حذوه من مثل فندرياس ولوجان لـمفهوم النسق[54]، على الرغم من أن مايي ذاته كان مدركا لطبيعة تشكل الكتاب انطلاقا من كراسات لا تتوافق فيما بينها، وأن دو سوسير ما كان ليجيز نشر مـحاضراته على هذا النحو من الترتيب[55].

إن المتفحص للتقرير الذي أعده مايي بمناسبة نشر كتاب المحاضرات يبرز مدى تأثير السبيل الذي انتهجه ناشري الكاتب في أدبيات اللسانيات الفرنسية آنذاك، ولعله يبرر جملة المواقف التي اتخذها مايي وغيره من اللغويين من أفكار دو سوسير، فبعدما يقرر مايي أن «الفكرة الأساسية لكتاب المحاضرات هي تلك التي مؤداها إن موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان»[56]، يعود ليعيب على دو سوسير قلة عنايته بدراسة الكلام الذي هو في نظر مايي الطريق السوي لمدارسة اللسان، فعالـم الأصوات لا يمكن له بأي حال من الأحوال الحصول على وصف سليم للسان ما لم ينتهج دراسة الكلام سبيلا إلى ذلك.

ولعل اللافت للنظر في تقرير مايي تعلقه بمسألة التحولات اللسانية التي يعيب على دو سوسير عدم عنايته بها، فقد بدا له أن دو سوسير عمد إلى فصل التحول اللساني عن الظروف الخارجية التي تتحكم فيه، وهو عندما - أي دو سوسير - يعرج في كتاب المحاضرات على مسألة أسباب التحولات الصوتية لا

---

(53) - A. Meillet, «Ferdinand de Saussure. - Cours de linguistique générale», Bulletin de la Société de Linguistique de Paris, vol. 20, 1916, p. 35.

(54) - T. de Mauro, «Notes biographiques et critiques» in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 368.

(55) - A. Meillet, «Ferdinand de Saussure. - Cours de linguistique générale», p. 165.

(56) - Idem, p. 164.

يرى له أي إسهام جديد، ولا أي سعي في تصنيف مبتكر، إنما يبقى إسهامه في هذه المسألة مجرد أوهام(57). وعلى الرغم من النقود التي وجهها أنتوان مايي إلى عدد من المسائل التي احتوى عليها كتاب المحاضرات فإنه لا يمضي دون أن يذكّر بطبيعة الكتاب فيقول: «ليس من شأننا ههنا التفصيل في نقد محتوى الكتاب الذي لا يعدو أن يكون مجرد اقتباس لتعليم شفوي عابر، لا نعلم منه ما إذا كانت تفاصيله التي تعرضت للنقد من تأليف المؤلف أم مصدرها الناشرين»(58).

إن القارئ لتقرير مايي هذا لعله يدرك الحيرة الخفية التي انتابته وهو يحرره، إذ لا ينفك، من جهة، من تبرئة صديقه دو سوسير والتوكيد على عدم قبوله بنشر الكتاب على هذا النحو والإشارة إلى الاختلافات الجمة القائمة بين مدونات الطلبة التي استند إليها شارل بالي وألبير سشهاي للإعداد لنشر كتاب المحاضرات، ثم لا يتوانى، من جهة أخرى، عن توجيه نقوده إلى دو سوسير ذاته بشأن أمور قد يعلم عدم نسبتها إليه، من مثل إقصاء الكلام من دائرة اللسانيات. ويجب أن نشير ههنا إلى أن الصورة التي عادة ما تكونت عن دو سوسير بأذهان اللغويين الفرنسيين، في هذه المرحلة من مراحل التلقي، أثرت تأثيرا بليغا في طريقة تلقيهم لفكره اللسانياتي ومواقفهم منه، فلقد كان بالنسبة إليهم فقيها لغويا (فيلولوجيا) مولعا بالبحث في أصل الكلمات، من ناحية، وباحثا لسانياتيا يسعى إلى تأسيس علم اللسانيات لكنه لم يوفق في مسعاه، من ناحية أخرى(59).

ولعل في هذا التصور ما يبرره لما فيه من الحقائق ما يدعمه، ولقد أشار العديد من الباحثين المحدثين إلى علامات القلق، والتردد، والريبة التي كثيرا ما كانت تنتاب دو سوسير إزاء المسائل اللسانية التي برزت له. ولئن أسهم العثور على عدد من الرسائل في استكشاف جوانب هامة من الجوانب التي حفت

---

(57) - A. Meillet, «Ferdinand de Saussure. - Cours de linguistique générale», p.36.

(58) - Ibid.

(59) - J. Sumpf, «Les traits principaux de la tradition linguistique française», Langue française, nº 14, 1972, p. 87.

بمشروع نشر محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة، فإن عددا من هذه الرسائل أسهمت أيضا في التعريف بفكر دو سوسير وموقفه من عدد من المسائل اللسانية، والحالات التي كانت تنتابه وهو يجابه معوقات الولوج إليها. ولقد أسر عن هذه الحال إلى صديقه أنطوان مايي، وكتب له مفصحا: «... وإني لأشعر ببعض الاشمئزاز من كل هذا ومن الصعوبة التي يتلقاها الإنسان في إنشاء سطور قليلة فيما يتعلق بالوقائع اللسانية. ولطالما كنت مهتما بتصنيف منطقي لهذه الوقائع، وتصنيف لوجهات النظر المعالجة لها، لكن ما انفكت تتضح لي رويدا رويدا مدى جسامة العمل الواجب إنجازه حتى يتبين للباحث ما هو مقبل عليه، من خلال رد كل عملية إلى الصنف الذي يناسبها، وتتضح لي في الآن ذاته مدى سخافة كل ما يمكن إنجازه في اللسانيات. وبعد كل هذا، فإن الشيء الوحيد الذي لا يفقد أهمية عندي هو الجانب البديع من كل لسان، الذي يميز الألسن فيما بينها، بوصفها ألسنا تنتمي إلى شعوب ذات أصول معلومة، هذا الجانب هو الجانب الإثنوغرافي...»[60].

ولقد تلقى طلبة أنطوان مايي عنه موقفه من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وبدا إقبالهم على المفاهيم التي روج لها إقبالا تميزه الحيطة والحذر، ولقد تجسد هذا الموقف في سلسلة من النقود، وكان غوستاف غيوم من بين الذين ما انفكوا يحيلون، في أعمالهم، إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة[61]، وإن أوّل إحالة منه كانت في أوّل كتاب له، العام 1917، سنة بعد نشر كتاب المحاضرات، حين قدّم بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس مذكرة حول «مسألة أداة التعريف وحلولها في اللسان الفرنسي»، عدت آنذاك من بين الأعمال الجادة، المبتكرة، وباتت المذكرة بعد نشرها مرات متوالية ابتداء من 1918، المنوال الذي سار عليه تطور فكره اللسانياتي، وعليه، كثيرا ما ألح المؤرخون للفكر اللسانياتي الحديث على أن فكر غيوم تشكل أول الأمر بمعزل عن أي تأثير من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، أو من دو سوسير ذاته. ولعل أهم المسائل التي باتت تشغل غيوم بعد تواصله مع كتاب

(60) - E. Benveniste, «Lettres de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet», p. 95.

(61) - A. Dedet, «La référence à Saussure chez G. Guillaume», Linx, nº 7, 1995, pp. 461-469.

المحاضرات التمييز بين الدراسة الآنية والدراسة التاريخية[62]، وما انفكت تتوارد في كل أعماله اللاحقة[63]، والفصل بين اللسان والكلام، والانتقال من هذه الثنائية إلى ثنائية جديدة هي ثنائية اللسان والخطاب.

ولقد حذا جيل فندريس حذو أستاذه أنطوان مايي، كما فعل غوستاف غيوم، في رد عدد من المسائل النظرية التي احتوى عليها كتاب المحاضرات، وبدا موقفه منها بارزا في التقرير الذي أعده سنة 1921 عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ومنها، على سبيل المثال لا الحصر مفهوم الكلام، إذ على الرغم من إقراره بأهمية تمييز دو سوسير بين اللسان والكلام، فإن الخصائص التي استعان بها دو سوسير في هذا التمييز لا بد من إعادة النظر فيها. ولقد اجتهد في تأصيل البعد الاجتماعي، «وسواء علينا اتخذنا اللسان أو الكلام، فإن اللغة تبرز دوما منظمة بقواعد اجتماعية، بل يمكننا القول أيضا بأنها فضلا عن ذلك الحدث الاجتماعي الأساسي والجوهري. إن اللغة «langage» هي التي ترسخ الفكر الإنساني، وهي التي مكنته من الخروج من سديميته، ولقد ارتقى العقل، بفضل اللغة، إلى مرتبة التعميم والتجريد، ذلك لأن الكلمات علامات تمكننا من إجراء عمليات على أفكارنا مثلما نقوم بذلك بفضل الأعداد والأرقام، لكن اللغة ما كان لها أن تستقر إلا بإعمال قواعد عقد اجتماعي»[64].

لقد استقر في فرنسا منذ العقود الأولى من القرن الماضي في أدبيات اللسانيات اهتمام بالبعد الاجتماعي للحدث اللغوي، وباتت الألسن، لا بوصفها أنساقا سيميائية يتوجب مقاربتها مقاربة نسقية، بل بوصفها أحداثا اجتماعية، ولقد كان لأنطوان مايي إسهام كبير في تكريس هذا التوجه، ولقد شاع في أوساط اللغويين الفرنسيين أن زملاءهم السويسريين ما عبروا عن فكر أستاذهم تعبيرا صادقا. ولم يكن هذا الانطباع خاصا باللغويين الفرنسيين فقط، بل إن

---

(62) - G. Guillaume, Le problème de l’article et sa solution dans la langue française, Paris, Librairie Hachette, 1919, p. 67.

(63) - A. Boone, «La dichotomie synchronie-diachronie dans l’œuvre de Gustave Guillaume», Langue française, nº 107, 1995, pp. 36-42.

(64) - J. Vendryès, «Le caractère social du langage et la doctrine de F. de Saussure», Journal de psychologie normale et pathologique, nº, 1921, pp. 617-624.

اللغويين الروس ألمحوا هم أيضا إلى مسألة المسافة التي تفصل فكر دو سوسير الأصيل عما شيع منه ضمن كتاب المحاضرات المنسوب إليه، على الرغم من عدم خوضهم في مسألة نسبة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدو سوسير.

التلقي الألماني

أَلِفت أدبيات اللسانيات في ألمانيا البحثَ في تاريخ الألسن ومقارنتها فيما بينها، ولقد استحكمت المقارنة والرغبة في استطلاع أصول الألسن وما تكلم به الإنسان الآري الأول في عقول الباحثين، وغدا البحث في القوانين التي تسير التحولات الصوتية وتتحكم في تغير الألسن عبر الزمن الهاجس الأول في بحوث لغويي القرن التاسع عشر ومدرسة النحاة الجدد التي استلمت الريادة إلى غاية العقود الأولى من القرن الماضي. وعلى الرغم من العلاقات العلمية والمهنية التي ما انفك دو سوسير يعقدها مع جمهور اللغويين الألمان منذ وصوله إلى مدينة ليبزغ والانخراط في صفوف طلبة جامعتها العريقة حتى نال منها درجة الدكتوراه، فإن أطروحاته اللسانياتية ظلت غائبة عن الجامعات الألمانية حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية(65)، باستثناء عدد قليل من اللغويين الذين كان لهم اطلاع على محتوى كتاب المحاضرات من مثل سترايبارغ، ويونكر، ولومل، مترجم كتاب المحاضرات إلى الألمانية. لكن هذا العزوف العام عن فكر دو سوسير اللسانياتي في الجامعات الألمانية لم يمنع بعض اللغويين الألمان من الانخراط في هذه الأطروحات ابتداء من ثلاثينيات القرن الماضي، لاسيما ليو وايسجربر، ويوست تريي.

لقد كان إيغو شوشار أوّل من ألمح إلى محتوى كتاب المحاضرات في اللسانيات والإشادة بمحتوياته الجديدة سنة بعد صدوره، وأعد عن نشره تقريرا مستوفى ناقش فيه عددا من المسائل التي احتوى عليها الكتاب من مثل التمييز بين اللسان والكلام، وبين الآنية والدياكرونية ومفهوم النسق وغيرها من المسائل

---

(65) - T. de Mauro T., «Notes biographiques et critiques», in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 375.

التي نود التعريف بموقفه منها[66]. لكن موقف شوشار مما احتوى عليه كتاب المحاضرات لا يمكن تمثله دون التعرف على توجهه اللسانياتي. إن شوشار كان واحدا من لغويي القرن التاسع عشر الأوائل الذي عنوا بالألسن الرومية، وبتلاقي الألسن وامتزاجها، وكان منخرطا شأنه شأن معاصرين في البحوث التاريخية المقارنة، ومواقفه الرافضة لبعض تصورات النحاة الجدد معلومة، كما إن محاوراته مع أنطوان مايي بخصوص القرابة بين الألسن معلومة هي الأخرى[67]، وبحوثه في مجال اللهجات والصوتيات المقارنة كذلك معلومة، إذ يمكننا الولوج إلى محتوياتها لأنها كتبت باللسان الفرنسي[68]، خلافا لجل كتاباته الأخرى التي استأثرت الألمانية بها، فحالت دون انتشارها في أدبيات اللسانيات انتشارا واسعا، وهذا ما يفسر إسراع بعض اللغويين المحدثين إلى إصلاح هذا الوضع من خلال إطلاق مشروع ترجمة آثاره اللسانياتية، فصدر الجزء الأول منها سنة 2011[69].

ولعل ما يفسر قلة اهتمام أدبيات اللسانيات عموما ببحوث شوشار عدم عنايته بوضع كتاب جامع يخط فيه أهم آرائه اللسانياتية أو مدخلا إلى اللسانيات كما كان صنيع عدد كبير من اللغويين، كما إن اهتمامه باللسانيات العامة ما بدأ إلا في السنوات الأخيرة من حياته. وفضلا عن ذلك، فقد كانت حياة شوشار العلمية مليئة بالمساجلات، وغالبا ما كانت مداخلاته تثير من حولها جدلا أدبيا حادا، مثلما حدث عندما أنكر وجود ألسن خالصة، فأثار قوله بأن الألسن كلها إنما هي عبارة عن مزيج وأن هذا المزيج يعتري كل أجزاء اللسان حفيظة معاصريه من مثل ويتني وماكس مولر[70]. ومن ههنا يبدو واضحا ردّ شوشار

---

(66) - Cité et traduit de l'allemand par P. Caussat, in C. Normand et *al*., Avant Saussure, Choix de textes (1875-1924), Bruxelles, Editions Complexes, 1978, pp. 174-181.

(67) - D. Baggioni, «Le débat Schchardt/Meillet sur la parenté des langues (1906-1928)», Histoire Epistémologie Langage, nº 8, tome 10, 1988, pp. 85-97.

(68) - H. Schuchardt, «Phonétique comparée», Romania, nº 9, tome 3, 1874, pp. 1-30.

(69) - H. Schuchardt, Textes théoriques et de réflexion (1885-1925) (Œuvres choisies, tome 1, R. Nicolaï et A. Tabouret-Kellet (éd.), Limoge, Lambert Lucas, 2011.

(70) - P. Escudé (coor.), Jules Ronjat, 1913-2013, Unité et diversité des langues. Théorie et pratique de l'acquisition bilingue et de l'intercompréhension, 2016, p. 40.

لتمييز دو سوسير بين اللسان والكلام وإمكانية مقاربة الأول دون اللجوء إلى الثاني، ولقد تتبع في نقده اللاذع لمحتوى كتاب المحاضرات، أي لدو سوسير، المخطط الذي حاول شارل بالي وألبير سشهاي الاستعانة به قصد تلخيص ملامح الدراسة اللسانياتية[71].

اللغة	اللسان	الآنية / التاريخية	Synchronie / Diachronie	Langue
	الكلام			Parole

Langage = Langue (Synchronie, Diachronie) + Parole

اللغة = اللسان (الآنية، التاريخية) + الكلام

لقد عاب شوشار على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة عدم احتوائه على تعريف واضح للغة «langage» ومن ثم فإن تمييزه عن الكلام لا أساس له في حقائق الأمور، بل إن اللغة، في نظره، مرادفة للكلام. كما إن الفصل بين آنية اللسان ودياكرونيته فصل لا وجود له، ولذلك تجده يقول: «لا وجود للتقابل بين السكون والحركة، وهذا هو شأن الألسن، ما هو حقيقي فيها هي الحركة، أما سكونها فهو ما هو مدرك منها»[72]. ولقد اتسم موقف شوشار من الأفكار اللسانياتية التي احتوى عليها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بالنفور والازدراء، فكان له، ولا ريب، أثر سلبي في تلقي كتاب المحاضرات من قبل أجيال متوالية من الباحثين، كما كان عليه موقف مايي في عدد من تلامذته.

التلقي الدنمركي

لا يخفى على أحد أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة كان له أثر بليغ في أدبيات اللسانيات الدنمركية، ولقد بلغ هذا التأثير ذروته حينما تعرف

---

(71) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 139.

(72) - Cité et traduit de l'allemand par P. Caussat, in C. Normand et *al.*, Avant Saussure, Choix de textes (1875-1924), p. 177.

يمسليف على كتاب المحاضرات فكان له نصيب وافر في الحوارات والمبادلات الأدبية التي تمحورت، في دائرة البنويات، حول أهم المفاهيم اللسانياتية التي نسبت إلى دو سوسير آنذاك، وبرز هذا التأثير في كتاباته التي تناولت جملة من المسائل اللسانياتية التي نظر فيها دو سوسير، من مثل مفهوم النسق، والتمييز بين اللسان والكلام، وبين الآنية والدياكرونية وغيرها من المفاهيم التي تشكل بها الجهاز المصطلحاتي للنظريات البنوية خلال المرحلة الثانية من مراحل تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائياتي.

لقد كان أثر دو سوسير في كتابات يمسليف عميقا وأسهم في بلورة نظريته اللسانية. ولئن كان اسم دو سوسير أكثر أسماء اللغويين تواردا في كتابه المؤسِس، «مقدمات لنظرية في اللغة»، فلأن النظرية التي صاغها دو سوسير، تعد، في نظر يمسليف، النظرية الوحيدة التي يمكن الاستناد إليها من أجل صياغة نظرية في اللغة وأن صاحبها هو الرائد الوحيد في هذا الميدان[73]، لكن المصدر الوحيد الذي استقى منه يمسليف إنما هو كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بل أدق من ذلك، الجملة التي اختتم بها ناشري الكتاب : «إن اللسان هو الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات»، والتي أصبحنا ندرك أتم الإدراك أنها لم تكن لدو سوسير وأن دو سوسير ما ميز يوما بين دراسة اللسان ودراسة الكلام ليستثني هذه من تلك. لقد عبر شارل بالي عن ذلك عندما أشار في الرسالة التي بعث بها إلى يمسليف أشهرا معدودات قبل وفاته، واصفا عمله قائلا : «إنك تواصل بكل ثبات ما أوجزه دو سوسير في الجملة الأخيرة من كتابه في اللسانيات العامة»[74]. وعلى الرغم من انتقائه بعض مفاهيم دو سوسير دون غيرها مما اشتمل عليه كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة فإن الإجماع يكاد يكون معقد عند جمهور اللغويين والسميائيين المحدثين (غودال، بارت، غريماس، راستيي، دو مورو، بدير، إينو، وغيرهم) من أن يمسليف يعد بحق الوحيد الذي استطاع أن يبرز أفكار دو سوسير ويعبر عنها تعبيرا صادقا وتاما.

(73) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, p. 14.

(74) - L. Hjelmslev, «L'analyse structurale du langage» (1948), tr. J.-F. Brunaud, in Essais linguistiques, Paris, Minuit, 1971, p. 40.

لم يكن تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي، من خلال كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، من قبل اللغويين الدنمركيين في العقود الثلاث الأولى من القرن الماضي بالعمق الذي برز به في مؤلفات يمسليف ومعاصريه من مثل براندال، ولقد برزت أولى ملامح هذا التلقي في التقرير الذي أعده يسبرسن عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة سنة 1916(75). وليس هذا مقام الحديث عن إسهامات اللغويين الدنمركيين في تاريخ اللسانيات، إنما يكفينا التذكير بإنجازات رسميس راسك في نشأة اللسانيات التاريخية المقارنة. ولئن كان العام 1816 آذانا لميلاد عهد جديد في تاريخ اللسانيات، انتشل الدراسات اللغوية آنذاك من هيمنة المنحى الميتافيزيقي الذي كان يهمل طبيعة اللغة البشرية وميزاتها ليوجهها وجهة علمية جديدة ويتحرى البحث عن أصلها (لأن البحث عن أصل اللغة البشرية كان أول اهتمامات النحاة المقارنين ومن كان قبلهم) وتطورها بمناهج وطرائق لسانية بحتة، فإن إقرار سنة 1816 مَعْلما لنشأة النحو المقارن لأنها شهدت صدور كتاب بوب عن النسق التصريفي في اللسان السنسكريتي مقارنا بكل من اللسان اليوناني، اللاتيني، الفارسي والجرماني، الذي عد آنذاك أول كتاب مستوفي في المنهج اللسانياتي المقارن، لا يعبر عن حقيقة الأمور ولا يعدو أن يكون من باب الاصطلاح التأريخي للعلوم أملته ظروف لا يتسع البحث إلى تفصيلها في هذا السياق؛ فقد سبق بوب في البحث في أصل اللغة (لسان اسكندنافيا القديم) بمناهج لسانية خالصة الدرناركي رسميس راسك إذ يعده ملمبارغ الرائد الأول للدراسات النحوية المقارنة، فبحوثه حول أصل اللسان الاسكندنافي أو الإسلندي القديم التي أنجزها العام 1814 ولم تنشر إلا العام 1818 (أي عامين بعد صدور كتاب بوب) والتي ألفها دون سابق معرفة باللسان السنسكريتي الذي كان آنذاك الفاعل الأول في البحوث المقارنة، تعد من صلب النحو المقارن للألسن الهندية الأوروبية بالمعنى الحديث للكلمة، والأساس الأول لعلم الأصوات والتصريف(76).

---

(75) - O. Jespersen, «Compte rendu du Cours de linguistique générale» (1916), in Linguistica. Selected Papers in English, French and German, New York, Routledge, 1933, p. 108-115.

(76) - B. Malmberg, Les nouvelles tendances de la linguistique, tr. J. Gengoux, Paris, P. U. F., 1969, p 12.

وإذا كان العالمان قد توصلا إلى النتائج نفسها فإن راسك كان أكثر دقة من بوب في إثباته للأصل المشترك للألسن الجرمانية، اللسان اليوناني، اللاتيني، البلطيقي والسلافي، لكن كتابه هذا الذي أصدره باللسان الدنمركي الذي لم يكن له أثر كبير في التواصل العلمي لظروف لا يتسع البحث لها هي الأخرى في هذا السياق، لم تعرف به حتى توليه الطبقة المثقفة آنذاك الاهتمام اللازم. لقد بات اللسان الدنمركي معوقا عن بلوغ اللسانيات الدنمركية مرتبة العالمية حين إنتاجها، ولقد تقاسمت أعمال راسك ويمسليف هذا المصير، وظلت نظرية هذا الأخير اللسانياتية ضمن دائرة ضيقة من الباحثين لم تتخطى حدودها إلا حينما ترجمت أعماله إلى اللسانين الإنجليزي والفرنسي.

إن أوتو يسبرسن كتب، خلافا لراسك ويمسليف، باللسان الإنجليزي فكانت لكتاباته الأولى أصداء معلومة في أدبيات لسانيات القرن الماضي، ولئن كانت اهتماماته اللسانياتية ودراساته النحوية الأولى تنصب حول تعليم اللسان الإنجليزي للناطقين الدنمركيين(77)، فإن إسهاماته النظرية في اللسانيات العامة معلومة هي الأخرى، ومواقفه من اللسانيات التاريخية المقارنة معلومة هي أيضا، فلقد أوضح ملمبارغ موقفه من نظرية التحولات الصوتية التي صاغ النحاة الجدد قوانينها، من خلال توكيده على الدور الذي تضطلع به الدلالة فيها، والتنبيه على الطابع الاجتماعي للألسن في مقابل طابعها البيولوجي(78).

وعلى الرغم من الإشادة بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة منذ السنة الأولى لصدوره، فإن اسم دو سوسير ظل قليل الحضور في كتابات يسبرسن اللاحقة، فها هو كتابه في اللغة يكاد يخلو تماما من ذكرٍ لدو سوسير، لولا الإشارة العابرة التي خصه بها في سياق حديثه عن لغويي القرن التاسع عشر(79)، ويفسر هذا الإعراض عن تصورات دو سوسير اللسانية بموقف يسبرسن منها، وردّ عدد من الثنائيات من مثل ثنائية اللسان والكلام، ونقدها

(77) - O. Jespersen, Essentials of English Grammar, London, Routledge, 2006 (1e éd., 1933).

(78) - B. Malmberg, Les nouvelles tendances de la linguistique, p21.

(79) - O. Jespersen, Language, its nature, development and origin, London, Georges Allen & Unwin LTD, 10e éd., 1954 (1e éd., 1922), p. 98.

نقدا صريحا في قوله: «لقد كان دو سوسير أول من ميز بين اللسان والكلام تمييزا صريحا، ولقد كنت أعربت عن نقدي لوجهة نظره هذه، لأنه عزل الاثنين عن بعضهما البعض وادعى أن الفرد مالك للكلام لكنه لا سلطان له على اللسان»[80].

إن أهم المسائل التي تناولها يسبرسن في تقريره الذي أعده سنة 1916 بمناسبة نشر كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة تكاد توجه ما تبع من مواقفه المتأخرة إزاء فكر دو سوسير اللسانياتي، من مثل موقفه من تمييز دو سوسير بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام الذي لا يرى فيه سوى ترفا فكريا لا يجدي نفعا[81]، لكنه لا يتحرج من إيجاد بعض الشبه بين نظرية المقطع «syllabe» لدو سوسير ونظريته هو التي عرضها لأول مرة سنة 1899، أي سنوات من قبل محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة، وفي هذا تلميح إلى تأثر خفي لدو سوسير به. لقد ردّ يسبرسن تمييز دو سوسير بين الآنية والدياكرونية ردا قطعيا، لاستحالة مقاربة اللسان، من وجهة نظره، مقاربة علمية، وبدا له، من خلال الإشارة إلى عدد من فقرات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، مبالغا في بعض مواطنه، من مثل توكيده على مبدأ الاعتباطية والتقليل من أثر الأصوات المحاكية للطبيعة[82]. ولقد خلص يسبرسن إلى الإقرار بأن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لا يليق به أن ينعت بكتاب في اللسانيات العامة، «ليس ثمة شيء ذي أهمية يذكره الكاتب بشأن التركيبيات والأسلوب، وكل ما يقول به بشأن حدود اللهجات يمكن إعادة النظر فيه لا محالة في أبحاث تفصيلية مقبلة، ويمكننا أن نخلص إلى القول بأن الكتاب لم يستنفذ اللسانيات العامة ولا نعتقد أن كاتبه كان يروم ذلك»[83].

---

(80) - O. Jespersen, «Efficiency in Linguistic Change», in Selected Wrigtings, New York, Taylor & Francis, 2010, p. 194.

(81) - O. Jespersen, «Compte rendu du Cours de linguistique générale» (1916), in Linguistica. Selected Papers in English, French and German, p. 111.

(82) - O. Jespersen, «Compte rendu du Cours de linguistique générale» (1916), in Linguistica. Selected Papers in English, French and German, p. 114.

(83) - Idem, p. 115.

التلقي الأمريكي

لم تكن اللسانيات الأوروبية، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وثيقة الصلة باللسانيات الأمريكية كما هما عليه الآن، على الرغم من تكوين عدد من اللغويين الأمريكيين في بعض الجامعات الأوروبية، من مثل ويتني، وعلى الرغم كذلك من هجرة بعض اللغويين الروس ممن كانوا على تواصل متين مع اللسانيات الأوروبية إلى أمريكا. ولذلك نفهم تأخر ليونارد بلومفيلد في إعداد تقريره عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى سنة 1924، سنتين بعد صدور الطبعة الثانية منه(84). ولئن أشاد بلومفيلد إلى بعض مواطن الجدة من كتاب المحاضرات من مثل التمييز بين الآنية والدياكرونية، وبين اللغة واللسان، وغيرها، إلا أن ميزة الاقتضاب الذي ميزت تقرير بلومفيلد حالت دون انتباه اللغويين الأمريكيين في تلك الحقبة وظل كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى غاية مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية مجهولا، إلى أن أعد رولان ولز مقالا معمقا عن فكر دو سوسير اللساناتي(85)، ولقد صادفت هذه المرحلة انتقال الاهتمام بفكر دو سوسير من مجال اللسانيات إلى مجال العلوم الإنسانية، لاسيما مجال الأنثروبولوجيات عندما نشر كلود ليفي ستروس مقاله الموسوم بالتحليل البنوي في اللسانيات والأنثروبولوجيات(86)، ضمن العدد الأول من مجلة «Word» الأمريكية التي أسسها سنة 1945 رومان ياكبسون وزملائه.

إن أهم النتائج التي يمكننا استخلاصها بعد النظر في مجموع التقارير التي جئنا على ذكر البعض منها أن أصحابها ما قرؤوا كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلا قراءة جزئية، وكأني بهم عندما وصلوا إلى الفصل الرابع من مقدمة الكتاب الذي يبرز فيه التمييز بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام أعرضوا عن باقي الكتاب اعتقادا منهم، بأن ما بني على أصل فاسد فما ولي

---

(84) - L. Bloomfield, «Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale», The Modern Language Journal, Vol. 8, nº 5, 1924, pp. 317-319.

(85) - S. R. Wells, «De Saussure's System of Linguistics», Word, Vol. 3, nº 1/2, 1947, pp. 1-31.

(86) - C. Lévis Strauss, «L'analyse structurale en linguistique et en anthropologie», Word, Vol. 1, nº 1, 1945, pp. 33-53.

منه فاسد مثله. ولقد غاب عن هذا التلقي جملة المسائل التي اتصلت بفكر دو سوسير السيميائي، من مثل مفهوم النسق، والعلامة، وغيرهما من المفاهيم المرتبطة بهما، كالقيمة، وثنائية المماثلة والمخالفة، وغيرهما. كما باتت المسائل اللسانياتية الأخرى التي احتوت عليها أقسام الكتاب الأخرى غير ذات أهمية للاعتقاد بأن ما قيل عنها في كتاب المحاضرات لا يعدو أن يكون مجرد تكرار لما كان متداولا في أدبيات لسانيات القرن التاسع عشر.

لقد كان للسياق الثقافي والعلمي الأوروبي الذي اكتنف أدبيات اللسانيات في العقود الأولى من القرن العشرين أثرا حاسما في طبيعة تكوين تلقي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فما كانت البيئة العلمية لتجيز آنذاك التخلص، بين عشية وضحاها، من آراء وأفكار وتصورات لسانياتية ترسبت على مدى قرنين من الزمن، استحكمت فيها المقارنة واستفحلت فيها النزعة التاريخية والإقبال على فكر لسانياتي يشوبه كثير من الاضطراب والخلل. وليس أدّل على ذلك من المصير المختلف الذي آل إليه كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة عندما انتقل إلى بيئة علمية أخرى، فبرزت مفاهيم وآراء غابت عن الجليل السابق من اللغويين، من مثل مفهوم النسق والعلامة وغيرهما من المفاهيم التي ارتبطت بهما كالقيمة، وثنائية المماثلة والمخالفة، وغيرهما، فأضحت أدوات إجرائية تؤسس لمقاربات لسانياتية غير معهودة وتفتح آفاق مرحلة جديدة من التلقي، برزت فيها ضرورة ترجمة كتاب المحاضرات.

ثم إن هذه المرحلة تمثل أفول نجم اللسانيات التاريخية المقارنة واضمحلال سطوتها على العقول، وفتور غرور استكشافاتها، ولقد بدا من بعد ذلك أن اللسانيات التاريخية المقارنة شارفت على استنفاذ الأهداف التي سعت إلى تحقيها، ومنها صياغة نظريات للصوتيات والنحو المقارن للألسن الهندية الأوروبية، فسرعان ما دخلت في مرحلة من الركود وبان لها قصور ما استكشفته في دائرة الألسن الهندية الأوروبية عن مدارسة الألسن التي لا تنتمي إلى هذه المجموعة، فدخلت في حالة من التأزم الفكري لم تفق منه إلا وقد بدأت اللسانيات البنوية تستأثر بالعقول.

التلقي الروسي لفكر دو سوسير اللسانياتي

تزامنت بداية الـمرحلة الثانية من مراحل تلقي مـحاضرات دو سوسير فـي اللسانيات العامة مع انعقاد الـمؤتـمر العالـمي الأول للغويين بلاهاي سنة 1928، وتـمتد هذه الـمرحلة حتى نـهاية الـحرب العالـمية الثانية (1945)، إذ تنتقل العناية بالـمحاضرات بعد ذلك من مـجال اللسانيات إلـى مـجال أرحب تـجلب فيه أطروحات دو سوسير اهتمام الفلاسفة، وعلماء الاجتماع والأنثـروبولوجيات، لتبدأ مرحلة ثالثة من مراحل تلقي الـمحاضرات. ويمثل الانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية انتقال كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من بيئة ثقافية علمية أوروبية، استهوى رجالاتها البحث في أصول الكلمات وتاريخ الألسن وغدت المقارنة المقاربة العلمية الوحيدة التي بها يمكن بلوغ هذه الغاية، إلى بيئة ثقافية أخرى، بيئة علمية روسية كان استقر عند لغوييها، منذ ضرورة التخلص من تصورات النحاة الجدد والدعوة إلى إحلال مكانها مقاربة لسانياتية أخرى تعنى بالألسن بوصفها موضوعات قارة «statique» بغض النظر عن تحولها في الزمن. ولئن كنا نبتدئ المرحلة الثانية هذه بأهم مناسبة علمية منها، أي انعقاد الـمؤتـمر الـذي أسهـم في نـشأة عـلـم صـوتـيات جديـد، أي الـفـونـولـوجيـات أو الصوتيات الوظيفية، فإن المعرفة بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بدأت تنتشر في أوساط اللغويين الروس سنوات قبل ذلك، وتحديدا بمدينة موسكو منذ سنة 1918 حين كان ياكبسون قد ألمح إليه ضمن كتابه «الشعر الروسي الحديث» الذي انتهى من كتابته سنة 1919، ونشره سنة 1921.

ثـم إن ما يـميز هـذه الـمرحلة من مراحل تـلقي كـتاب الـمحاضرات في اللسانيات العامة من قبل اللغويين الروس هو عنايتهم بمدارسة الآثار الأدبية من شعر ونثر، خلافا لمعاصريهم من النحاة الجدد الألمان ومن انتهج منهجهم في مقاربة الألسن مقاربة مقارنة تاريخية لا تلتفت إلى الآثار المكتوبة من نشر ونثر، بل تدعها إلى أصحابها من متعهدي الفليلولوجيات القديمة. وفضلا عن هذا التوجه الأدبي فقد أسهمت الدراسات اللسانياتية التي عنيت بمدارسة اللهجات الروسية، ونشأة علم اللهجات «dialectologie» الروسي، إلى التخفيف من وطأة استفحال الدراسات التاريخية المقارنة.

ولقد شهدت المرحلة الثانية هذه ترجمة كتاب المحاضرات إلى عدد من الألسن الأوروبية والآسيوية من مثل الترجمة الروسية (1922، 1933)، والترجمة اليابانية (1928)، والترجمة الألمانية (1931)، والترجمة الإسبانية (1945). ولئن كان تلقي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير يختلف عن تلقيه في المرحلة السابقة لاختلاف البيئتين الفكريتين، فإن إسهام الكتاب في تطوير عدد من المعارف المرتبطة بالألسن وصياغة نظريات لسانياتية جديدة لم يحل دون النقود التي ما توانى ممثلو مدرسة براغ وغيرهم من اللغويين في تقديمها لكتاب المحاضرات، فها هو ياكبسون قائلا: «على الرغم من كثرة مواطن التناقض من مذهب دو سوسير، فإننا مدينون له ولمدرسته في الاهتداء للعلاقات القائمة بين الفونيمات، أي بالنسبة لمفهوم النسق الفونولوجي»[87]. لكن النقود التي وجهت لتصورات دو سوسير اللسانياتية في أثناء هذه المرحلة تختلف عن تلك التي وجهت لها في المرحلة السابقة، إذ بات عند اللغويون الروس انطباع بأن لغويي مدرسة جنيف، لاسيما شارل بالي وألبير سشهاي، ما أحسنوا التعبير عن آراء أستاذهم اللسانياتية، فتسلل إليه قدر غير قليل من الخلل والاضطراب. وهو ما قد يفسر، من جانب ما، الإقبال الذي حضي به كتاب المحاضرات، والالتفات إلى لسانيات دو سوسير لصلة القربى بينها وبين بعض تصورات عدد من اللغويين الروس، لاسيما بودوان دو كرتوني، ماتسيوس، وغيرهما.

ولقد كان ميخائيل باختين قد أشار منذ سنة 1929 إلى التأثير الذي ما انفكت تمارسه لسانيات دو سوسير وتلامذته من مدرسة جنيف، لاسيما شارل بالي وألبير سشهاي، على معظم ممثلي الفكر اللسانياتي الروسي آنذاك، كما أعرب حينئذ عن دهشته من عدم ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى الروسية[88]، وفي هذا الشأن، يعد كتابه «الماركسية وفلسفة اللغة» من بين

(87) - R. Jakobson, Six leçons sur le son et le sens, tr., 1941, p. 56.

(88) - M. Bakhtine (V. N. Volichinov), Le marxisme et la philosophie du langage; essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, préface de R. Jakobson, tr. M. Yaguello, Paris, Minuit, 1977, p 89.

المؤلفات الروسية المبكرة التي أسهمت في التعريف بأهم الأفكار اللسانياتية التي احتوى عليها، من مثل التمييز بين اللغة واللسان والكلام، واللسانيات الآنية واللسانيات التاريخية، ولعل اللافت للنظر في تصور باختين لهذه المسائل أنها ليست ذات طابع لساني محض، بل هي، في نظره، مسائل فلسفية لسانية. وهو واحد من المؤلفات التي ما فتئت في بداية العقد الثالث من القرن العشرين تشيد بمحتوى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة وتنتهج منهجه في التعاطي مع عدد من الوقائع اللسانية كما هو الحال مثلا بالنسبة لمؤلف شور، «اللغة والمجتمع»، الصادر سنة 1926 بموسكو(89)، إذ يبرز فيه اسم دو سوسير بوصفه مؤسسا للمدرسة الاجتماعية الفرنسية(90).

وفي هذا الشأن، يجب الإشارة إلى العلاقات التي ما انفك يقيمها ياكبسون وتروبتسكوي مع جمهور اللغويين الفرنسيين ومدرسة جنيف منذ 1919، والتي كانت عن طريق جمعية باريس اللسانياتية التي أسهم أنطوان مايي في إعادة إحيائها. ولقد تقدم تروبسكوي بطلب الانضمام إلى الجمعية منذ منتصف سنة 1921، وصودق على انتسابه إليها بإيعاز من مايي وفندريس، بينما تأخر انضمام ياكبسون إليها حتى سنة 1926(91). لكن انتقال الاهتمام بتصورات دو سوسير اللسانياتية إلى الفكر اللسانياتي الروسي لم يكن بادئ الأمر عن طريق أعضاء حلقة براغ، بل إن أعضاءً من حلقة موسكو كان لهم دور حاسم في الترويج لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدى جمهور اللغويين الروس في السنوات الأولى التي تلت نشر الكتاب بجنيف سنة 1916، والتعريف ببعض محتوياته، لاسيما تلك التي بدت قاسما مشتركا مع تصوراتهم اللسانياتية، لاسيما إمكانية مقاربة الألسن مقاربة آنية، تختلف كل الاختلاف عن تلك التي مارسها النحاة الجدد بألمانيا.

(89) - R. Shorr, Jazyk i obcestvo (Le langage et la société), Moscou, 1926.

(90) - P. Sériot «Changements de paradigmes dans la linguistique soviétique des années 1920-30», Histoire èpistémologie Langage, t. 17, fasc. 2, 1995, pp. 235-251

(91) - J.-C. Chevalier, «Trubetzkoy, Jakobson et la France 1919-1939», Cahiers de ILSL, nº 9, 1997, pp.35-36.

لقد كان سارج كارشيفسكي (1884-1955) الوسيط في إمداد ياكبسون وتروبتسكوي وغيرهما من اللغويين الذين التحقوا بحلقة موسكو ثم حلقة براغ، بالمعارف اللسانياتية الجديدة التي تلقاها عن دو سوسير، لاسيما تمييزه بين الدراسة اللسانياتية الآنية والدراسة التاريخية. وكان كارشيفسكي قد قدم إلى سويسرا فارا إليها من روسيا بعد أن قضى عاما (1906) سجينا نتيجة نشاطه السياسي، فاستقر بجنيف التي كانت آنذاك مأوى لعدد من اللاجئين السياسيين الروس والتحق بجامعتها منذ سنة 1908 وبها نال شهادة الليسانس في الآداب سنة 1914. وتابع كارشيفسكي بكلية الآداب منذ السداسي الأول من السنة الجامعية (1908-1909) إلى غاية السداسي الأخير من تكوينه (1914) دروسا في الآداب اليونانية، واللاتينية، والفرنسية، والفلسفة وتاريخها، والتاريخ القديم والحديث، واللسان الفرنسي القديم، واللسان السنسكريتي، والفيلولوجيا، والتركيبيات، والأسلوبيات الفرنسية، واللسانيات العامة، والأسلوبيات المقارنة. ولئن كان له الحظ في متابعة دروس دو سوسير السنسكريتية خلال السداسي الثاني من السنة الجامعية 1911-1912، إلا أنه لم يتابع دروسه في اللسانيات العامة التي ألقاها خلال السنوات الجامعية الثلاث (1906-1907)، (1908-1909) و(1910-1911)، وإنما أفاد من هذه المادة على إثر التحاقه بدروس شارل بالي خلال السداسي الثاني من السنة الجامعية (1913-1914)[92].

وعلى الرغم من اهتماماته الأدبية المبكرة، لاسيما دراسته لتولستوي ومشاركاته في مجلة Znanié التي كان يشرف عليها ماكسيم غركي، فإنه سرعان ما تفرغ لتدريس اللسانيات بجامعة إيكَتِيرِنوسلاف بعد عودته إلى مسقط رأسه سنة 1917، وعمل على نشر آراء دو سوسير اللسانياتية والتعريف بها من خلال تقديم عدد من المداخلات بأكاديمية العلوم بموسكو، واجتهد في الاستفادة منها في بحوثه في اللسان الروسي. كما تولى في الجامعة ذاتها على الرغم وتفرغ لدراسة اللسان الروسي. وفضلا عن مادة اللسانيات، تولى كارشيسفي تدريس

(92) - A. Chidichimon, «Karcevski étudiant à l'Université de Genève 1908-1914», Acta Structuralica, nº 1, 2016, pp. 67-68.

اللسانين الفرنسي والإنجليزي، بمعهد الدراسات البيداغوجية العليا عني بتدريس مادة الآداب الروسية(93).

حلقة موسكو ومشروع ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة

كنا ألمحنا في الفقرات السابقات إلى الدور الذي اضطلعت به حلقة براغ اللسانياتية في تطوير الفكر اللسانياتي عموما والتعريف بفكر دو سوسير على وجه الخصوص، فقد كانت الحلقة مكانا لالتقاء عدد من اللغويين من أقطار مختلفة، بجنسيات متعددة وثقافات متنوعة، بعد أن أضحت تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين، نظرا لموقعها الجغرافي المتميز، محور تواصل بين ألمانيا، والنمسا، والمجر، وبولونيا، ويوغسلافيا، وسويسرا، والدنمرك، والسويد، وأسهمت المراسلات العلمية بين اللغويين في التعريف بأبحاثهم اللسانياتية. وفضلا عن فن التراسل العلمي الذي كان له نصيب وافر في تسريع وتيرة التواصل العلمي بين اللغويين، أسهمت المؤتمرات العلمية هي الأخرى في نشر المعرفة اللسانياتية وأتاحت لهم فرص التعريف بأبحاثهم وتوجهاتهم الفكرية، ومناقشها وتطعيمها بوجهات نظر مغايرة، بعد أن أضحت ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة ضرورة ملحة لما شاع عن مؤلِّفه من مفاهيم وتصورات أسهمت في تأسيس اللسانيات الحديثة على أسس علمية موضوعية، فلا عجب أن تكون فكرة ترجمته الروسية أولى هذه الترجمات بروزا، سنة 1922.

لقد مكنت ترجمات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى ألسن مختلفة من التعريف بتصورات دو سوسير كما هي مبثوثة في الكتاب وأثارت اهتماما بفكره اللسانياتي، في عدد من البلدان، لكنها أفرزت في الآن ذاته عن مسألة من الأهمية بمكان، تتصل بترجمة المصطلحات اللسانياتية ونقل مفاهيمها من لسان إلى آخر. بيد إن المسألة والحال هذه ليست خصيصة من خصائص ترجمة جهاز دو سوسير المصطلحاتي، بل إنها تسع كل اللسانيات وكافة مدارسها وتوجهاتها، فقد أشار جون ليونز منذ سبعينيات القرن الماضي إلى

(93) - S. Stelling-Michaud, «Notice biographie», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 14, 1956, p. 5.

التباين الحاصل في ترجمة المصطلحات اللسانياتية، كما نبه إلى الصعوبة التي عادة ما أضحى يلقاها الباحثون في التمييز بين المفاهيم التي تعبر عنها، عندما راح يناقش عدد من المصطلحات المنتمية إلى السيميائيات الأمريكية[94].

ولئن أضحى تداول كتاب المحاضرات أكثر تواترا بين أيدي اللغويين مما كان عليه في أثناء العقدين الأول والثاني من القرن العشرين إلا أن ترجمته لم تنجز كاملة إلا في سنة 1933. صحيح أن ألكسندر إليخ روم (1898-1943)، وهو واحد من أبرز أعضاء حلقة موسكو اللسانية، كان منذ سنة 1922 أبدى رغبته في ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى الروسية فكتب إلى شارل بالي يستشيره في الأمر، وكان قد أنجز جزءا منها، لاسيما الفصل الثالث من مقدمة الكتاب التي تحتوي على التمييز بين اللغة واللسان والكلام، وفصول أخرى، وهي التي تمثل في نظر روم أهم مبادئ الكتاب النظرية. لكن الجدل الذي نشأ بين روم وناشريْ كتاب المحاضرات، شارل بالي وألبير سشهاي، حول حقوق الكتاب حال دون إتمامها، لاسيما وأن الناشريْن كانا قد منحا حق ترجمة الكتاب إلى روسي آخر، يعتقد أنه سارج كرشيفسكي[95].

ولقد كتب شارل بالي وألبير سشهاي إلى روم ما يلي: «لقد استلمنا رسائلك ونموذجا من ترجمتك. وإننا نبلغك أن مانعا ما حال دون تمكن صديقنا من مباشرة ترجمة الكتاب إلى اللسان الروسي، وإنا نعتقد أنه أحجم عنها، لكننا لا نستطيع أن نمنح ترخيصا لمشروع ترجمة قد يكون ذا نتائج غير مرضية على مبيعات الكتاب الأصلي، وفضلا عن ذلك فإننا مرتبطيْن بالناشر بحكم عقد، ولذا لسنا مخولان للترخيص لترجمة قد تكون منافسة للكتاب. وليست مسألة حقوق الترجمة هذه تقلل من حرصنا على نجاح أفكار دو سوسير في روسيا. لقد قرأنا ترجمتك باهتمام بالغ، ولقد بدت لنا، بعد الاطلاع عليها اطلاعا سريعا،

(94) - J. Lyon, Eléments de sémantique, tr. J. Durand, Paris, Larousse, 1978, p. 82.

(95) - M. O. Cudakova et E. A. Toddes, «La première traduction russe du Cours de linguistique générale de F. de Saussure et l’activité du Cercle linguistique de Moscou», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 36, 1982, p. 70.

أنها ترجمة صحيحة، لكن هذا الحكم لا يعدو أن يكون مجرد حكم وليس ترخيصا»[96].

لقد كانت هذه العبارات كافية بأن تصرف روم عن المضي في مشروع ترجمته لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، لكن الترجمة الجزئية التي أنجزها سرعان ما أضحت متداولة في أوساط اللغويين الروس وبدت البديل الوحيد عن كتاب المحاضرات، ولقد كتب غورنوغ، على ظهر إحدى ورقات مخطوط ترجمة روم، إلى غوستاف غوستافيتش شبيث، في الثاني والعشرين من شهر جوان سنة 1922 يقول: «صديقي المحترم غوستاف غوستافيتش. على الرغم من الجهود التي نبذلها، فإننا لم نحصل بعد لا على نسخة ثانية من كتاب دو سوسير ولا على مقال سشهاي. وإني أرسل إليك، عن طريق م. ب. ياكبسون، الترجمة الروسية للجزء الأول من كتاب دو سوسير»[97].

لقد كان لهذه الترجمة الجزئية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أثرا في تلقي حلقة موسكو لفكر دو سوسير، إذ بدأ أعضاء الحلقة في تخصيص عدد من الاجتماعات لمناقشة محتوى الكتاب، والنظر في بعض مفاهيم دو سوسير من مثل اللسان بوصفه نسقا، والتمييز بين الآنية والدياكرونية وثنائيات أخرى، وأسفرت عن نشر عدد من المقالات التي تراوحت بين العزوف عن تصورات دو سوسير والإقبال عليها. ولقد لاقت بعض أطروحات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة القبول الحسن عند فينوكير على وجه الخصوص إذ راح يستعين بها في أبحاثه حول الشعرية، ولقد كتب عن نفسه أنه سعى إلى استخدام نظرية دو سوسير في اللسانيات الآنية من أجل تحقيق مشروع في الأسلوبيات وأن الغاية من مجمل مقالاته كانت نشر أفكار دو سوسير لما لها من إسهام في ميدان الشعرية وتاريخ الأدب[98].

---

(96) - Idem, p. 70.

(97) - M. O. Cudakova et E. A. Toddes, «La première traduction russe du Cours de linguistique générale de F. de Saussure et l’activité du Cercle linguistique de Moscou», p. 74.

(98) - Idem, p. 76.

إن الحركية اللسانياتية التي أسهمت في تسريعها الترجمة الجزئية التي أنجزها روم، والكتابات والنقاشات التي نشأت في أعقابها، كلها أسفرت عن ضرورة ترجمة كتاب المحاضرات ترجمة كاملة، ولقد أنجزت هذه الترجمة في سنة 1933 من قبل سيخوتان تحت إشراف شور، لكنها سرعان ما نفذت إلى درجة أنها أضحت مفقودة في الخمسينيات من القرن الماضي، على الرغم من الطبعات الأربع التي عرفتها على امتداد الثلاثينيات والأربعينيات، مما دعا إلى إعادة نشرها، سنة 1977، ولكن بعد إعادة تعديل لها، ونشرت ضمن مجموعة من الكتابات من ثلاثة أجزاء تضم كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بعض مخطوطات دو سوسير في اللسانيات العامة، مذكراته حل شبابه ودراساته، إلى جانب بعض مراسلاته[99].

لقد مكنت ترجمة مقدمة الترجمة الروسية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لسنة 1933 إلى الفرنسية من التعريف بجملة من المسائل المتعلقة بمرحلة حاسمة من مراحل التلقي الروسي لفكر دو سوسير اللسانياتي، كما أنها كشفت عن الغاية من هذه الترجمة إذ عدت آنذاك إنجازا أولا لمشروع أوسع يسعى إلى ترجمة الفكر اللسانياتي الغربي إلى اللسان الروسي، كما حاولت رسم معالم تطور الفكر اللسانياتي الروسي منذ القرن الثامن عشر[100]. لكننا لا يجب أن نغادر الحديث عن حلقة موسكو دون أن نشير إلى الدراسات الأدبية التي عني بها بعض أعضاءه، كما سيكون عليه الشأن بالنسبة لأعضاء حلقة براغ. لقد بات الأدب، والشعر خصوصا، الحقل الأمثل للتطبيقات الفونولوجية والتصورات البنوية الوظيفية، وبرز الشكلانيون الروس آنذاك كفاعل رئيس في محاورة التصورات اللسانياتية الجديدة، وبدا النقد الأدبي الروسي

---

(99) - E. Ivanova, «Le problème de la traductibilité des termes linguistiques (l'interprétation de langue-langage parole de Saussure en russe)», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 53, 2000, pp. 179.

(100) - D. N. Vvedenskij, «Ferdinand de Saussure et sa place dans la linguistique [préface préface à la première édition soviétique du Cours de linguistique générale de F. de Saussure (Moscou, éd. SOCEKGIZ, 1933)]», tr. P. Seriot,, Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 53, 2000, p. 220.

الممتد ما بين سنة 1915 و1930، جد متحمس لتصورات مدرسة جنيف ومؤسسها دو سوسير، وكتابه في اللسانيات العامة، وليس أدّل على هذا التثاقف بين الدراسات اللسانية والدراسات الأدبية من المقال المشترك الذي أعده تينيانوف وياكبسون، الموسوم «الدراسات الأدبية واللسانية»، وفيه تجلت على وجه الخصوص إجرائية التمييز بين الآنية والدياكرونية، ومفهوم النسق الأدبي الآني[101].

حلقة براغ اللسانياتية وموقفها من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة

لقد كانت إسهامات حلقة براغ اللسانياتية امتدادا لما أسهم في ترسيخه من ممارسات وتصورات وأفكار لسانياتية جديدة أعضاء حلقة موسكو التي استطاعت من سنة 1915 إلى غاية سنة 1924، برئاسة ياكبسون في الفترة الممتدة بين 1915 و1920، من تمثل لسانيات دو سوسير وشق منهج جديد في مدارسة الوقائع اللسانية، انطلاقا من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة التي ألقاها بين سنتي 1907 و1911. ولئن كانت سنة 1911 سنة بارزة في تطور فكر دو سوسير اللسانياتي ونضجه المصطلحاتي، إذ تمثل أقصى ما بلغه تفكيره الفلسفي واللسانياتي من نضج، فإن السنة ذاتها تمثل حدثا بارزا في الفكر الأمريكي وفي الفكر الروسي. أما في الفكر الأمريكي فإن السنة تمثل تاريخ نشر كتاب بواز في وصف الألسن الهندية الأمريكية[102]، وهو الكتاب الذي رسم للفكر اللسانياتي الأمريكي سبيل المنهج الوصفي في مدارسة الألسن، مستندا إلى مقاربة آنية لا تركن إلى تاريخ الألسن المدروسة ولا إلى المراحل التي مرت بها في تحولاتها، إنما توجهها اعتبارات أنثروبولوجية تلقفها، من بعد، لغويون بارزون من مثل إدوارد سابير وليونارد بلومفيلد، فأسسوا إلى ما أضحى يعرف بالمدرسة التوزيعية. أما في الفكر الروسي فإن السنة تمثل الدعوة التي أطلقها ماتسيوس من أجل التفكير في منهج جديد، يتجاوز الفكر اللسانياتي التاريخي المقارن، ضمن

---

(101) - J. Tynianov et R. Jakobson, Les problèmes des études littéraires et linguistiques, in T. Todorov, Théorie de la littérature. Textes des formalistes russes, Paris, Seuil, 1965, pp.

(102) - F. Boas, Handbook of American Indian Languages, Washington, Government Office Printing, Part 1, 1911.

المقال الذي صدر أول الأمر سنة 1911 باللسان التشيكي وترجم إلى الإنجليزية ونشره سنة 1964 ضمن مجموعة من أعمال لغويي مدرسة براغ(103).

وليس غريبا أن يفتتح فاشيك ما انتخبه من أعمال لغويي مدرسة براغ بمقال ماتسيوس، فهذا الأخير هو الذي أنشأ حلقة براغ اللغوية بعد أن دعا إلى اجتماعات دورية منذ سنة 1926، شار فيها كل من هافرناك، ميكروفشسكي، ترونكا، فاشيك، ووواينغار، وسرعان ما التحق بهم ياكبسون، وتروبتسكوي، وكارشيفسكي. وعلى الرغم من أن ماتسيوس تنبه إلى ضرورة مدارسة الألسن دراسة آنية، سكونية قارة، لا تأبه بالتغيرات اللسانية التي تطرح على الأنساق اللسانية عبر الزمن(104)، فإن أفكاره اللسانياتية لا تكاد تختلف عن أفكار دو سوسير في اللسانيات العامة، ولعل ملمحهما المشترك هو الدعوة إلى تجاوز أطروحات اللسانيات التاريخية المقارنة وتصوراتها، والإقبال على دراسة التغيرات اللسانية الآنية، وهي التغيرات التي يمكن ملاحظتها في كلام الفرد الواحد بين ما بين الأفراد، وهي الفكرة التي ما انفكت الدراسات اللسانياتية الحديثة تقبل بها، واتخذت سبيلها في الفكر اللساني الأمريكي، من خلال ما روج له بولمفيلد في كتابه «اللغة»، مؤكدا على أن الكلام يختلف باختلاف الأفراد بل هو متغير لدى الفرد الواحد(105)، وهي الفكرة التي حاول ماتسيوس بيانها في مقاله المذكور. ولئن كانت مسألة موقع الفرد المتكلم يختلجها كثير من اللبس في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة التي نشره شارل بالي وألبير سشهاي، فإنها باتت واضحة المعالم لا يمازجها غموض ولا إبهام في كتاباته في اللسانيات العامة المنشورة مؤخرا، وإن المتصفح لما احتوت عليه هذه الكتابات ليدرك دون جهد الموقع البارز الذي حازت عليه مسألة الفرد المتكلم من تنظير دو سوسير اللسانياتي.

---

(103) J. Vachek, The Prague school reader in linguistics, Bloomington, Indiana University Press, 1964.

(104) G. Lazard, «Mathesius à la lumière de Saussure», Echo des études romaines, vol. III, nº 1-2, 2007, p. 13.

(105) L. Bloomfield, Language, New York, Holt, Reinhart and Winston, 1933, p. 45.

إننا نفهم الآن سر الإقبال الذي حضي به كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من قبل لغويي مدرسة براغ اللسانياتية، إذ فضلا عن اختلاف البيئة الأدبية والعلمية والفكرية الروسية عن البيئة الأوروبية التي غمرتها النزعة التاريخية الرامية إلى استكشاف الأصول الأولى للألسن المدروسة دراسة صوتية وصرفية مقارنة، كان التشابه بين فكر ماتيسيوس ودو سوسير اللسانياتيين حافزا قويا لأعضاء مدرسة براغ قصد التفكير في النسق الفونولوجي اللساني تفكيرا آنيا والالتفات إلى دراسة الألسن بوصفها أنساقا تبليغية، يكتسي مفهوم النسق الفونولوجي، ومفهوم الفونيم، ومفهوم الفوارق الخلافية منها أهمية بالغة.

إن ما يميز توجه ماتسيوس عن توجهات معاصريه من اللغويين الألمان انتهاجه المنهج الوظيفي في معالجة الوقائع اللسانية، ولقد بات هذا المنحى بارزا في مقاله الموسوم «اللسانيات الوظيفية»، الذي نشر أول مرة سنة 1929، وفي هذا المقال يقدم متسيوس عرضا موجزا عن واقع الدراسات اللسانياتية (التشيكية والأوروبية)، والخيار الجديد الذي أصبح متاحا لها، والذي يتمثل في التوجه الوظيفي الذي سرعان ما تبناه أعضاء الحلقة، كما تطرق فيه إلى صلات البحوث اللسانياتية بالحقل الاجتماعي للفن والإبداع. ولقد كان انتهاج الآنية «synchronie» العامل الحاسم في هذا التوجه الجديد، وهو كما أشرنا اختيار تمليه مقتضيات عملية إذ تبين قصور المنهج التاريخي المنتهج من قبل النحاة الجدد الألمان في التقرب من حقيقة الألسن، وفيه إشارة واضحة إلى أن «مدرسة النحاة الجدد كانت تعتقد أن المنهج التاريخي هو المنهج العلمي الوحيد وأن كل ما سواه يندرج في طائلة النحو الوصفي. لكن لسانيات حديثة سرعان ما أقرت وجود مقاربة أخرى، إلى جانب المقاربة التاريخية أو الدياكرونية، مقاربة غير تاريخية، آنية، تعنى بالبحث في الألسن، في زمن معين، دون النظر في وضعها السابق»[106].

---

(106) - V. Mathesius, «Functional linguistics», in J. Vachet et L. Duskova, Praguiana. Some Basic and less known Aspects of the Prague Linguistic School, Amsterdam-Philadelphia, John Benjamin Publishing Company, 1983, pp. 121-122.

صحيح أن جل كتابات ماتسيوس كانت نتاج أهم إسهامات اللسانياتية، لكن فكره لا ينحصر كله في دائرة البحث اللغوي، بل يتجاوزه إلى ميادين بحث أخرى فقد كان ماتسيوس أيضا عارفا بتاريخ الأدب الإنجليزي متخصص فيه، كاتب حوله، وله عدد من الإسهامات في مجال الثقافة والدور الذي تضطلع به في تطوير المجتمع التشيكي، ولئن تعددت آثاره اللسانياتية والأدبية والثقافية فإن من وراء هذا التعدد وحدة تعبر عن معالم فكرية ثابتة[107]. وتستند هذه الوحدة إلى التصور الذي عادة ما عبر عنه ماتسيوس بخصوص الألسن، فهي من وجهة نظره أنساق من وسائل التعبير الوظيفية، فلا عجب أن ينتهي بيشاك إلى الإقرار بأن رؤيا العالم التي تحدد كل تصرفات ماتسيوس، الاجتماعية والعلمية، وتتخلل كل كتاباته فتضفي عليها لمسة من الانسجام العميق، رؤيا بنوية، وظيفية، واقعية[108].

المؤتمر العالمي الأوّل للغويين

لا يسعنا الحديث ههنا عن الدور الذي باتت تضطلع به المؤتمرات العالمية في تسريع وتيرة تطور العلوم، وتحقيق التواصل العلمي بين الباحثين في ميادينها، فلقد تنبهت المؤسسات العلمية والجامعات والمعاهد العليا منذ مطلع القرن الماضي، في أوروبا، إلى ضرورة تكثيف الملتقيات العلمية وتمكين الباحثين من التعريف بمكتشفاتهم وتصدير نظرياتهم، ولئن باتت المؤتمرات العلمية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر تقليدا سار عليه العلماء على عقود متوالية حتى منعطف القرن العشرين حين أصبح للسانيات هي الأخرى مؤتمراتها الخاصة إلى جانب مؤتمرات علم الآثار، والإثنوغرافيات، والفيلولوجيات، وغيرها، ولعل مؤتمر الصوتيات الذي انعقد بهامبورغ الألمانية من التاسع عشر إلى الرابع والعشرين من شهر أبريل 1914، كان أكثر المؤتمرات اللسانياتية نجاحا، فقد خصص كليا للصوتيات التجريبية التي جلبت إليها اهتمام الباحثين

(107) O. Pešek «La culture de la langue selon Vilém Mathesius. Principes et conséquences d'une approche structuraliste et fonctionnelle globale», La linguistique, vol. 52, nº 1, 2016, pp. 5-20.

(108) Idem, p. 18.

آنذاك من كل البلدان بعد مسيرة ثلاثين عاما مذ أن وضع القس روسلو دعائمها الأولى(109).

ولم يزل هذا شأن مؤتمر هامبورغ على الرغم من تسارع وتيرة انعقاد المؤتمرات لاسيما بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، واستقرت المؤسسات العلمية وتمكن العلماء من التنقل بحرية من جديد، حتى كانت سنة 1928 تاريخ انعقاد المؤتمر الأول للغويين بلاهاي الهولندية من العاشر إل الخامس عشر من شهر أبريل 1928، وهي أولى المناسبات العالمية التي شارك فيها عدد معتبر من المؤسسات العلمية العالمية من مثل الجمعية العالمية للصوتيات، والجمعية البولونية للدراسات الشرقية، والجمعية الأمريكية للسانيات وغيرها ووصل عدد المشاركين (وأزواجهن) إلى 312 مشاركا، منهم 32 ألمانيا، و73 هولنديا، و11 سويديا، و6 إيطاليين، و7 أمريكيين (من بينهم ليونارد بلومفيلد وفرانز بواز)، و22 فرنسيا(110). إن عدد البلدان والمؤسسات العلمية العالمية التي كانت ممثلة في هذه المناسبة لدليل على أن اللسانيات قد بلغت في هذه المرحلة الثانية من مراحل تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي درجة من النضج وأضحت واعية بموضوع بحثها، متمثلة للاستكشافات التي باتت تحققها في ميادين الصوتيات، وعلم اللهجات وغيرها من ميادين البحث اللسانياتي الحديث.

لقد كان المؤتمر مناسبة لاستكشاف طرائق جديدة في التفكير اللسانياتي، وكان، خلافا للمؤتمرات السابقة، مخصصا كلية للبحث اللساني، وتشفع لذلك المسائل الست التي كانت مقترحة للنقاش وهي:

1) ما يجب أن تكون عليه الكتابة الصوتية؟ أ) قيمة الصوتيات التجريبية، ب) نظام الكتابة والعلامات الصوتية.

2) إنشاء العبارات التقنية وتحديدها. ما هي الترجمة الدقيقة للعبارات التقنية

---

(109) - J.-C. Chevalier, «Les congrès internationaux et la linguistique», in S. Auroux, Histoire des idées linguistiques, Tome 3, Bruxelles, Mardaga, 2000, p. 524.

(110) - Idem, p. 523.

في مختلف الألسن (الفرنسية، الإنجليزية والألمانية)؟

3) ما هي أنجع طرائق البحث في اللسانيات الجغرافية؟

4) ما هي الطرائق الملائمة لوصف شامل وعملي لنحو لسان ما؟

5) كيف يمكن تحديد ميادين ثقافية، من الماضي والزمن الحاضر، استنادا إلى كلمات معينة أو خصوصيات فونولوجية، ومورفولوجية وتركيبية؟ وما هو التأثير المتبادل بين هذه الميادين الثقافية؟

6) كيف يمكن تثبيت طرائق للبحث في الألسن التي لم تحض بمدارسة فيلولوجية مقبولة؟[111]

وعلى الرغم من الأهمية التي اتصفت بها مداخلات هذا المؤتمر إلا أن البحوث التي جلبت الأنظار كانت إسهامات لغويي مدرسة جنيف وهم شارل بالي، ألبير سشهاي وسرغاي كرشيفسكي، ولغويي مدرسة براغ وهم فيلام متيسيوس، رومان ياكبسون ونيكولاي تروبتسكوي، فقد اتصفت مقترحاتهم بقوة في الطرح وعمق في التنظير.

لقد كان المؤتمر مناسبة لقراءة جديدة لمحاضرات دو سوسير تختلف عما درجت عليه الدراسات السابقة في العقود الثلاثة السالفة، لكن المَعْلم البارز فيها كان بروز مفهوم النسق كمفهوم إجرائي استطاع لغويو مدرسة براغ من استثماره في حقل جديد من حقول اللسانيات وهو الفونولوجيا. إن الإجابة التي قدمها لغويي براغ عن السؤال الرابع، وانسحبت من النحو إلى الفونولوجيا، أبرزت بشكل واضح أهمية الأطروحة السوسيرية الجاعلة من اللسان نسقا من القيم النسبية (أي الخلافية)، والتي استُقي منها مفهوم النسق الفونولوجي ودور الثنائيات الفونولوجية في استقراره أو تغيره. كما يبرز بكل جلاء مفهوم الآنية ودوره في تفسير التحولات اللسانية[112].

(111) - J.-C. Chevalier, «Les congrès internationaux et la linguistique», p. 524.

(112) - R. Jakobson, «Proposition au premier congrès international de linguistes. Quelles sont les méthodes les mieux appropriées à un exposé complet et pratique de la phonologie d'une langue quelconque ?», in Selected Writings, I - Phonological Studies, Netherlands, Mouton & Co, 1962, p. 3-6.

ولـم تكن اللسانيات، في هذه الـمرحلة من مراحل تلقي مـحاضرات دو سوسير فـي اللسانيات العامة، تتطلع إلـى البحث في البعد التداولـي للغة، أو أن تنظر فـي بعض خصائص الألسن التداولية، إنـما كانت منشغلة في مناقشة بعض الـمسائل التي أثارها نشر الـمحاضرات، لاسيما مسألة اعتباطية العلامة اللسانية التي أثارها أوّل الأمر سنة 1939 إميل بنفنست(113)، وأبدى بشأنها عددا من الـملاحظات أهـمها عدم تـجانس الطرح السوسيري، كما مثلته الـمحاضرات المنشورة طبعا، في التعبير عن هذه الـمسألة. وسرعان ما أضحت موضوع حوار شارك فيه عدد من اللغويين من مثل أوجان لرش، ألبير سيشهاي، شارل بالـي، أونري فراي، إيريك بيوسنس، ألان هندرسن غردينار، وبول نيارت(114). وليس من شأننا أن نستعيد أجواء هذا الجدل، ولا أهم الأفكار التي أثيرت حول مسألة اعتباطية العلامة اللسانية، إنـما نريد التوكيد من جديد على ما خلفته الإضافات التي لجأ إليها شارل بالي وألبير سشهاي في إعدادها للكتاب الجامع لمحاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة من لُبس أعاق فهمها وتمثلها تمثلا صائبا.

ولئن كان انعقاد الـمؤتـمر العالـمي الأول للغويين بلاهاي في سنة 1928 الحدث البارز في هذه المرحلة من مراحل تلقي لسانيات دو سوسير، وفيه استعرضت أولى خطوات البحث الفونولوجي ورسمت أولى معالمه النظرية، فإن أهم المسائل التي من شأنها إثارة فضول الباحث هي السبل التي سلكها التفكير الفونولوجي للعبور من جنيف إلى براغ. إذ لم يعد يخفى أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير كان له أثر بليغ في نشأة الصوتيات الوظيفية (الفونولوجيات) وتطورها، وكانت حلقة براغ، شأنها في ذلك شأن سائر الحلقات اللسانياتية الأخرى التي برزت في النصف الأول من القرن العشرين، قد نهلت من كتاب المحاضرات الأسس البنوية التي مكنتها من صياغة أطروحاتها الفونولوجية.

---

(113) - E. Benveniste, «Nature du signe linguistique», Acta linguistica, t. I, 1939, pp. 23-29, repris dans Problèmes de linguistique générale I, Paris, Gallimard, 1966, pp. 49-55.

(114) - M. Leroy, Les grands courants de la linguistique moderne, pp. 106 et s.

صحيح أن البحث الفونولوجي ما توانى عن استقطاب المفاهيم السوسيرية ما وسعه ذلك قصد التمكن من الاستناد إلى أسس علمية متحررة من هيمنة تصورات النحاة الجدد، لكن البحث الفونولوجي ما أمكنه الصمود أمام جملة النقود التي توالت عليه، ولقد أشار هنري فراي إلى جملة منها قائلا: «ولو رمنا النظر في فونولوجيات براغ استنادا إلى نظريات دو سوسير، فإن ثمة سبلا عديدة يمكن إتباعها. منها أن ننظر مثلا في الكيفية التي يختلف بها تصور تروبتسكوي للفونيم عن نظرية الفونيمات التي يمكن صياغتها من خلال تطبيق لمناهج دو سوسير تطبيقا صارما، كما يمكننا أيضا أن نبين كيف يمتثل تروبتسكوي لبعض ملامح مذهب دو سوسير وهو لا يثق في صحتها، ويمتثل في الآن ذاته إلى البعض الآخر منها معتقدا في صحتها»(115). ومهما كانت طبيعة النقود التي وجهت إلى مدرسة براغ اللسانياتية، أو غيرها من المدارس التي تدارست مفاهيم دو سوسير وتصوراته، فإنها إنما تدارستها انطلاقا من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وأن هذه المدارسة كان قوامها محاولة تفسير كثير من المسائل التي باتت غامضة في كتاب المحاضرات ويشوبها الخلل والاضطراب.

ياكبسون ودو سوسير

لا شك في أن تلقي ياكبسون لفكر دو سوسير اللسانياتي يتجاوز مرحلة الأربعينيات التي نحن بصدد التعريف بها، ولئن بدأت مغامرة ياكبسون مع اللسانيات منذ إشارته الأولى لكتاب المحاضرات في اللسانيات سنة 1921 بمناسبة كتابه «الشعر الروسي الحديث» الذي انتهى من كتابته سنة 1919، فإنه ظل مستكشفا لفكر دو سوسير على امتداد مراحل تطور فكره اللسانياتي الخاص بدءا بمرحلة موسكو، ثم مرحلة براغ (1920-1939) ثم استقراره بالولايات المتحدة الأمريكية. أقول فكره اللسانياتي الخاص لأن ياكبسون، على الرغم من الإعجاب الكبير الذي ما انفك يقر به لدو سوسير، إلا أنه لم يكن يستأنس إلى بعض التصورات التي احتوى عليها كتاب المحاضرات لاسيما مبدأ الاعتباطية وخطية الدال.

---

(115) - H. Frei, «Saussure contre Saussure», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 9, 1950, pp. 7-8.

لقد تطور تلقي ياكبسون لفكر دو سوسير على مدى مراحل تحول فكره اللسانياتي ولعل الصداقة التي أبرمها مع روبار غودال ورايموند دو سوسير ومقامه بين الحين والآخر بجنيف، منذ مطلع الخمسينيات من القرن الماضي، مكنته من استكشاف بعض جانب فكر دو سوسير الخفية، لاسيما على إثر تعريف جون ستروبنيسكي بأبحاثه حول الجناس التصحيفي أول الأمر منذ 1964، ورأى فيها ياكبسون أسمى مراحل نضج الفكر السوسيري. ولعل أهم ما أثمرته هذه المرحلة المتقدمة من مراحل تلقي ياكبسون لفكر دو سوسير يقينه بأن الجملة التي اختتم به كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة «إن موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان في ذاته ولذاته» لم تكن من صياغة دو سوسير(116).

البنويات وكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة

لقد كان لنشأة الفونولوجيات وتطورها الفضل في تبوء اللسانيات هذه المكانة المحمودة بين العلوم الاجتماعية، فلقد أسهمت في شق المسالك الأساسية التي أحدثت تحولا في البحث اللسانياتي تحولا جذريا شبيها بذلك الذي أحدثته الفيزياء النووية في دائرة العلوم الدقيقة في العصر الحديث. وتتلخص هذه المسائل، في رأي ليفي ستروس فيما يلي: أولا، في انتقال الفونولوجيات من معاينة الظواهر اللسانية الواعية إلى إدراك البُنية غير الواعية، ثانيا، في رفض اعتبار العناصر ذواتا مستقلة عن بعضها بعض، واتخاذ العلاقات التي تنعقد بين العناصر قاعدة للتحليل، ثالثا، في إبداع مفهوم النسق، ورابعا، في استكشاف القوانين العامة، إن عن طريق الاستقراء أو عن طريق الاستنباط(117).

ولئن اختلفت البنويات باختلاف مؤسسيها وتنوعت بتنوع مجالات تطبيقها، فإن القاسم المشترك بينها يبقى اللجوء الدائم إلى دو سوسير، ونعني كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، فقد بات الكتاب، حين انتقل

---

(116) R. Godel, «Roman Jakobson. Quelques souvenirs», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 35, 1981, pp. 153-155.

(117) C. Lévi-Strauss, «L'analyse structurale en linguistique et en anthropologie», p. 35.

من بيئته الأوروبية إلى البيئة الروسية، منذ العقد الثالث من القرن العشرين، المعين الذي اغترف منه لغويو حلقة براغ، وحلقة كوبنهج، ومدرسة باريس، وغيرها من المدارس اللسانية التي نعتت نفسها بالبنوية، إلى درجة جعلت ياكبسون يقول: «لو أردنا أن نوجز في وصف الفكر الموجه للعلم الحديث في مختلف تمظهراته ما وجدنا له تعبيرا صادقا إلا عبارة البنوية، إذ لم تعد مجموعات الظواهر التي اتخذها العلم الحديث موضوعا له مجرد تجميع آلي، بل باتت في تصوره وحدة بنوية، أي نسقا وجب التعرف على قوانينه الداخلية، سواء أكانت قارة أو حركية».

كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة والمنهج البنوي

لقد كان كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الوعاء الذي نهلت منه بنويات القرن العشرين معالمها الرئيسة، وبات أهم كتاب يُحتذى به في فهم الألسن مثلما صار كتاب سيبويه في زمانه علما يحتذى به في فهم النحو، ولئن أضحى كتاب المحاضرات في السنوات القليلة الأخيرة يثير جملة من الردود لاسيما على إثر العثور على مخطوطات دو سوسير الأصلية، فإن الكتاب لسيبويه ما انفك معينا لا ينضب ومخزونا معرفيا لا يغض. لقد ولى زمن الاحتفاء بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولم يعد سحر البنويات يستهوي العقول ويستحكم في الألباب، فقد فتر افتنان الناس بها، واتخذ الباحثون منها مسافة نقدية أسفرت عن جملة من المواقف منها ما نعت بما بعد البنوية، ومنها ما نعت بالتداولية، ومنها ما نعت بالتلفظية وغيرها من المواقف التي لا يمكننا ههنا تتبع حيثياتها ومنطلقاتها.

ثم إن مختلف الدراسات النقدية التي اتخذت فكر دو سوسير موضوعا لها، ومختلف الدراسات الفيلولوجية التي تناولت نصوصه الأصلية التي باتت في متناول الباحثين، مكنت من قياس المسافة التي ما انفكت تفصل فرضيات البنويات عن فكر دو سوسير الأصيل. ولئن أضحى متداولا اليوم التمييز بين الفرضيات التي استندت إليها البنويات اللسانياتية وبين الطريقة التي استخدمت بها هذه النظريات في ميادين بحث أخرى، فإن الغالب أن مجمل البنويات

اللسانياتية أقامت تجاربها على فرضيتين اثنتين هما: فرضية الملاءمة والإبدال.

مبدأ الملاءمة

لقد أضحى مفهوم الملاءمة مفهوما إجرائيا مذ بدأت البنويات، والفونولوجيات تحديدا، تخطو أولى خطواتها ساعية إلى استخلاص البنية الفونولوجية للألسن من مادتها الصوتية، من خلال الارتقاء من المجسد إلى المجرد، من الصوت إلى الفونيم الذي ما انفكت مختلف توجهات الفكر البنوي، في أثناء مرحلة ما بين الحربين، تحتفي به احتفاء كبيرا. ولئن كان مفهوم الملاءمة «pertinence» وليد التفكير البنوي الفونولوجي فإن له أصلا في تفكير دو سوسير اللسانياتي، ونعني ههنا مفهوم وجهة النظر، وهي الفكرة ذاتها التي انتقلت من براغ إلى سائر نظريات اللسانيات البنوية، وعنها عبّر مارتني قائلا: «لا تقتصر ممارسة اللسانيات على النظر في وقائع اللسان أو الكلام دونما منهج محدد، أو وفق منهج اهتدي إليه بمحض الصدفة واختلف باختلاف الباحثين، إنما تتطلب ممارسة اللسانيات تحقق مبدأ تجريدي خاص يتخلص في تحديد زاوية نظر لسانية صرفة، هي الوحيدة الكفيلة بتحقيق وحدة علم اللغة الداخلية من جهة، واستقلاله في دائرة علوم الإنسان من جهة أخرى»(118). ولقد شاع عن دو سوسير قوله: «إن وجهة النظر هي التي تحدد الموضوع»، كما بيناه في موضع سابق من هذا الفصل.

وليست الملائمة بوصفها موقفا تتخذه النظرية إزاء المادة التي تبحث فيها موقف خاص بالفونولوجيات، بل هو مبدأ تصطنعه نظريات أخرى، لسانياتية كانت أو غير لسانياتية، عندما لا تتناول موضوعها إلا من زاوية ما فلا تبقي من خصائص هذا الموضوع إلا ما تستدعيه هذه الزاوية، وترتضيه وجهة النظر المستلزمة. ولقد كان رولان بارت، رائد بحوث سيميائيات الدلالة في فرنسا، قد اصطنع هذا المفهوم اصطناعا إجرائيا(119)، وارتبط لدى عدد من

---

(118) A. Martinet, «Au sujet des fondements de la théorie linguistique de Louis Hjelmslev», Bulletin de la Société de Linguistique de Paris, t. 42, I, 1946, p 19.

(119) R. Barthes, «Eléments de sémiologie», Communications, nº 4, 1964, pp. 95-96.

السيميائياتيين الآخرين بمفهوم مستويات التحليل، كما يبينه تعليق فونتانيل على انتقال السيميائيات من مدارسة العلامة إلى مدارسة النص قائلا: «لقد حدث، في تاريخ السيميائيات المعاصر، الانتقال من سيميائيات للعلامة إلى سيميائيات للنص في خضم السبعينيات، ولقد بات الاختيار بين العلامة أو النص كمستوى ملائم للتحليل السيميائياتي معادلا لاختيار طبيعة المجموعة التعبيرية وبعدها، قصد إجراء عمليات الإبدال والتقطيع وملء الفراغات، عمليات تمكن من التعرف عن القيم والمدلولات»[120].

ولقد أضحى مفهوم الملاءمة من بين مقدمات علم اللسانيات ومدخلاته، فها هي تركيبيات أندري مارتني، وهي تركيبيات بنوية ذات التوجه الوظيفي، تستدعيه منذ صفحاتها الأولى، وتستند إليه قصد تحديد أولويات البحث اللغوي، فهي أولا تستدعي ما تصطلح عليه بالملاءمة التواصلية بالنظر إلى طرائق اشتغال الألسن وإلى الكيفيات التي تتحول بها كي تتكيف مع تنوع حاجات المجتمع التواصلية، وتتفرع هذه الملاءمة التواصلية إلى ملاءمتين، ملاءمة فونولوجية وأخرى دلالية. أما الملاءمة الفونولوجية فإنها تسهم في التعرف على الوحدات المميزة الدنيا، أي الفونيمات، ومن ثم التوصل إلى التعرف على الكيفية التي تتآلف بها العلامات حتى تسهم في التعبير عن التجارب، فإذا ما انتهى التحليل من وصف نسق الوحدات المميزة التي تدخل في تشكيل العلامات، أصبح يسيرا الانتقال إلى ميداني التركيبيات والدلاليات[121].

لقد عاب بعض اللسانيين المحدثين، مم لم يتوفر لهم منفذ إلى فكر دو سوسير الأصيل، إلا الركون إلى ما احتوى عليه كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، عابوا عليه عدم استثمار مبدأ الملاءمة على الرغم من أنه أقر بضرورة اتخاذ وجهة نظر معينة في التعاطي مع الوقائع اللسانية، فها هما تريستيان بايلون وبول فابر، وهما يذكران بصلة مفهوم الملاءمة باللسانيات

(120) - J. Fontanille, Pratiques sémiotiques, Paris, P. U. F., 2008, p. 18.

(121) A. Martinet, Syntaxe générale, Paris, Armand Colin, 1985, p. 10.

الوظيفية، يدعيان أن «دو سوسير لم يهتدي، نظرا لركونه إلى النزعة الفلسفية للتثنية «dualisme»، وتمييزه بين اللسان والكلام، إلى التمييز، الذي هو أساسي، بين وقائع الكلام الملائمة (أي تلك التي تسهم في التبليغ) وتلك التي ليست ملائمة، وأنه لعدم إدراكه أن للفونيمات حقيقة لسانية مثلها مثل العلامات، وأنها وحدات مزدوجة، لم ينتهي إلى التقطيع المزدوج»(122) الذي قال به أوّل الأمر اللغوي الفرنسي أندري مارتني حينما وضع أولى كتبه في اللسانيات الوظيفية(123).

لكن موقف الكاتبين من دو سوسير لا يعبر على هذا النحو عن فكر دو سوسير تعبيرا صحيحا، بل هو مثله مثل عدد من اللغويين المحدثين لا يتجاوز حدود صفحات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة ويُعزي إلى دو سوسير ما لم يقله البتة، فقد توصل سيمون بوكي في قراءته لمخطوطات دو سوسير الأصلية التي باتت في متناول الباحثين المعاصرين إلى التوكيد على تصور فريد لطبيعة العلامة اللسانية وما أسماه بالتقطيع الثلاثي «triple articulation» وهو تصور تتألف الفونيمات وفقه، شأنها شأن سائر العلامات، من دال ومدلول. وهذا يعني أن الصوت في عرف دو سوسير لا يتمظهر إلا بوصفه علامة، ويبدو ذلك بكل جلاء في قوله: «ليس للسان وعي بالصوت إلا بوصفه علامة»(124)، أي أن الأفراد المتكلمين، المستعملين لأنساق اللسانية التي هي الألسن لا يدركون الأصوات من هي أصوات، بل يدركونها من حيث هي علامات، متكونة من دوال ومدلولات.

عملية الإبدال

لجأت البنويات الفونولوجية مذ بدأت تخطو خطواتها الأولى إلى عملية الإبدال «commutation» قصد تحقيق مبدأ الملاءمة، ولقد كنا حتى عهد قريب نحسب أن المصطلح كان من وضع أعضاء حلقة براغ حتى وقفنا على خبر

(122) C. Baylon et P. Fabre, Initiation à la linguistique, Paris, Nathan, 2 éd., 1990, p. 38.

(123) - A. Martinet, Eléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1980, pp. 18-19.

(124) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 182.

لياكبسون يقر بوضع المصطلح من قبل يمسليف(125)، ولقد كان هذا الأخير قد طرح تعريفا لهذا المفهوم في كتابه المشهور، «مقدمة لنظرية في اللغة»، منذ سنة 1943، تاريخ صدور الكتاب بالدنمركية، تتمثل العملية وفقه في إبدال عنصر من وحدة من مستوى التعبير أو من مستوى المحتوى بعنصر آخر من المستوى نفسه دون أن يكون لهذا الإبدال أثر، أو تغيير، في الوحدة، فإذا أنتج تغيير العنصر بعنصر آخر وحدة لسانية جديدة ونتج عنه تغيير في المستوى المقابل يصبح العنصرين محل إبدال في موقعها من الوحدة اللسانية(126). ولئن كان الإبدال، في نظر يمسليف، يمكن تطبيقه على مستويي التعبير والمحتوى فإن الفونولوجيين عادة ما اكتفوا باستثماره في مستوى التعبير، وعادة ما يبرر هذا الاختلاف باختلاف منطلق كل من يمسليف والفونولوجيين، تروبتسكوي على وجه الخصوص، إذ إن منطلق الأول كان النحو بينما كان منطلق الثاني، أي تروبتسكوي، الصوتيات(127).

والإبدال باب واسع من أبواب العربية، وفيه ميز اللغويون العرب بين الإبدال اللغوي والإبدال النحوي، ولقد أسهب عز الدين التنوخي، محقق كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي، في إبراز الفارق بينهما قائلا: «ليس الكلام على الإبدال واحدا عند علماء النحو واللغة، بل انقسم بطبيعته إلى نوعين بحسب المتكلمين فيه: الإبدال اللغوي، ونريد به ما جمعه رواد اللغة من تلك الألفاظ المتقاربة في صورها ومعانيها [...]. وأما علماء النحو فقد بحثوا عما له علاقة بالقلب النحوي، وجعلوه شاملا للإعلال ونقل الحركات والافتعال، ثم الإدغام على رأي من جعله في الإبدال داخلا، ويرى النحاة أن هذا الإبدال قد يقع في كل حروف الإبدال»(128).

---

(125) R. Jakobson et L. Waugh, La charpente phonique du langage, tr. A. Kihm, Paris, Minuit. 1980, p. 65.

(126) L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, tr. U. Canger, Paris, Minuit, 1971 (1968), pp. 94-96.

(127) O. Ducrot, «La Commutation en glossématique et en phonologie», Word, vol. 23, nº 1-3, 1967, p. 102.

(128) أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، كتاب الإبدال، تح. عز الدين التنوخي، دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1961، الجزء الأول، ص. 8.

ولئن كنا ارتضينا مصطلح الإبدال مكافئا لمصطلح «commutation» وترجمة له، فإن ذلك لا يعني البتة أن الإبدال كما مارسه اللغويون العرب مطابق للإبدال الذي مارسه الفونولوجيون الروس وغيرهم، ذلك أن الإبدال في اللسان العربي لا يفضي بالضرورة إلى تغيير في المعنى كما هو بارز في قول ابن فارس: «ومن سنن العربية إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض، يقولون: مدحه ومدهه وفرس رفل ورفن، وهو كثير مشهور، قد ألف فيه العلماء»[129]، وهو في الغالب سنة من سنن العرب في كلامهم استقصى اللغويون مواقعها وأبانوا عن الحروف (الفونيمات) التي من شأنها أخذ مكان بعضها بعض، أما الإبدال عند الفونولوجيون فهو إجراء يُعمد إليه للتمييز بين الأصوات التي تحدث تغيير في المعنى، فهي إذن فونيمات، وبين تلك التي لا ينتج عنها تغيير في المعنى وهي ليست فونيمات، بل سميت ألوفونات. ثم إن الزوجين (مدح/مده) و(رفل/رفن) لا ينتميان إلى طائفة الأزواج الدنيا التي يستند إليها الفونولوجيون من أجل استخراج الفونيمات.

الفونولوجيات البنوية

لقد بات الانتقال من دراسة الأصوات إلى دراسة الفونيمات أعظم منجزات البحث اللسانياتي الحديث، حين أدرك اللغوي السويسري يوست وينتلار (1846-1929) منذ سنة 1876 ضرورة التفريق بين نوعين من الأصوات، تلك التي تسهم في التمييز بين الكلمات والمعاني وتلك التي لا تضطلع بهذه الوظيفية. ولقد تزامن هذا التفريق مع المرحلة الأولى من المراحل التي اجتازتها الدراسات الصوتية، وهي المرحلة التي شهدت استقلال الصوتيات بوصفها مادة علمية لسانياتية بفضل أعمال سيفر ووينتلار، واستمرت حتى نشأة الصوتيات التطبيقية التي فتحت آفاقا جديدة في البحث الصوتي، لتتلوها المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التي بدأت بانعقاد المؤتمر العالمي الأول للغويين بلاهاي، سنة

(129) أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح. أحمد حسن بسج، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1997، ص. 154.

1928، وفي أثنائه نشأت الصوتيات الوظيفية[130]، الفونولوجيات. ولقد اتخذت فكرة التفريق بين الصوت المادي والصوت اللساني سبيلها في الفكر اللسانياتي الحديث دون أن يكون لها أثر بارز في التعاطي مع الوقائع الصوتية وظلت في أعمال هنري سويت وتلامذته، لاسيما يسبرسن، مجرد تفريق لم يستخلص منه منهج جديد.

لم يُسهم دو سوسير، بحسب رأي تروبتسكوي المستند إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، في تطوير فكرة التمييز بين الصوت المادي الذي يشّكل المادة اللسانية وبين الأثر النفسي يخلفه هذا الصوت، أي بين الصوت والفونيم، على الرغم من أنه أحسن تعبير عن هذه الثنائية من سويت، وعلى الرغم من أنه عبر تعبيرا صريحا عن الطابع غير المادي للدال والميزة الخلافية والنسبية للعناصر المكونة لهذا الدال، إلا أنه لم يميز، في نظر تروبتسكوي، بين مادتين علميتين، تنتمي إحداهما إلى مجال اللسان وتعنى بالعناصر الخلافية للدال غير المادي بينما تنتمي الأخرى إلى مجال الكلام وتعنى بأصول اللغة دون اعتبار لوظيفتها الخلافية[131]. صحيح أن ما روّج عن فكر دو سوسير بخصوص موقفه من الصوتيات لا يُنكر على تروبتسكوي ما جئنا على ما ذكره عنه الآن، بيد إنه رأي مستند، كما أسلفنا، إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وإن المتصفح في كتابات دو سوسير المنشورة مؤخرا يستكشف تصورا آخر، فشل شارل بالي وألبير سشهاي في التعبير عنه عندما ركنا في صياغتهما لكتاب المحاضرات إلى نصوص لا تمت بصلة مباشرة بفكر دو سوسير اللسانياتي.

ولئن كان التمييز بين الصوت المادي والصوت اللساني يذكرنا بالتمييز الذي اتخذه الخليل بن أحمد الفراهيدي عندما عمد، وهو يسعى إلى وضع معجمه العين، إلى جذور الكلم العربية الثلاثية، فاستخرج منها، رياضيا، كل

(130) E. Galazzi, «L'association phonétique internationale», in S. Auroux (dir.), Histoire des idées linguistiques, t. 3, Bruxelles, Mardaga, 2000, p. 499.

(131) - N. Troubeztkoy, «La phonologie actuelle», Journal de psychologie normale et pathologique, 1933, Paris, Librairie Félix Alcan, 1933, pp. 227-246.

الكلمات العربية التي يمكن أن تتألف منها، فما كان منها مستعملا أبقاه، وما كان منها غير مستعمله أهمله، فنشأت عن صنيعه ثنائية لسانية فونولوجية، هي ثنائية المهمل والمستعمل[132]، فهي من هذا المنظور تذكر بصنيع سويت وتلامذته، ويوست من قبلهما، وتذكر أيضا بصنيع دو سوسير في تمييزه بين الصورة الصوتية «figure acoustique» والشكل اللساني «forme linguistique»، وهي بطريقة أو بأخرى فكرة رائجة يمكن تلمسها في أدبيات الصوتيات العربية في مثل صوتيات ابن جني عندما يقول: «اعلم أن أصول حروف المعجم عند الكافة تسعة وعشرون حرفا فأولها الألف وآخرها الياء على المشهور من ترتيب حروف المعجم إلا أبا العباس فإنه كان يعدها ثمانية وعشرين حرفا ويجعل أولها الباء ويدع الألف من أولها ويقول هي همزة لا تثبت على صورة واحدة وليست لها صورة مستقرة فلا أعتدها مع الحروف التي أشكالها محفوظة معروفة وهذا الذي ذهب إليه أبو العباس غير مرضي منه عندنا »[133].

إن المفهوم الذي ارتضاه دو سوسير لمصطلح الفونيم يختلف اختلافا جوهريا عن ذاك الذي اصطنعه لغويو حلقة براغ، ومن اليسير اليوم فهم مستند النقود التي وجهوها إلى تصوره، فقد انتقل عندهم مفهوم الفونيم من تصور إلى تصور آخر، إذ بعدما كان الفونيم العنصر اللساني الأصغر الذي لا يقبل القسمة «indivisible»، بات عندهم مكونا من جملة من الخصائص الصوتية المميزة التي من شأنها التمييز بين الأصوات اللسانية التي تسهم في عملية التواصل والتبليغ، وهو تصور يختلف عن تصور دو سوسير إذ نظرته إلى العناصر الصوتية التي تسهم في عملية التواصل ليست موجبة، بل هي سالبة، بمعنى إن الفونيمات، أو بالأحرى العناصر غير الدالة، لا تستقي قيمتها إلا من الاختلاف الحاصل بينها. لكن ما يعنينا في هذا السياق هو ما يرتبط بالإسهامات التي قدمتها فونولوجيات حلقة براغ إلى عدد من العلوم الاجتماعية، لاسيما مفهومي العلاقات القائمة بين

---

(132) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهي السمرائي، إيران (قم)، دار الهجرة، الطبعة الأولى، 1405 ه، الجزء الأول، ص. 59.

(133) أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الأعراب، تح. حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، 1993، الجزء الأول، ص. 41.

العناصر والبنية. ولئن أنكر تروبتسكوي على دو سوسير وأعضاء مدرسة جنيف عدم عنايتهم بالعبد الفونولوجي للألسن خلافا لبعديها الدلالي والأسلوبي[134]، فإن التمييز بين الصوتيات والصوتيات الوظيفية إنما منشأه من التمييز الذي يقيمه دو سوسير بين اللسان والكلام.

ولقد اتخذ هذا التمييز سبيله إلى الفكر اللساني الذي تغذى من أطروحات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فانساقت معظم المدارس اللسانياتية الأوروبية ومدرسة بلومفيلد التوزيعية بأمريكا، إلى إخراج الكلام من حقل الدراسة، لكن المدارس هذه، وإن كانت نظرياتها استعانت كلها بمعايير خاصة تقيم بها هذه التفرقة، فإن جلها اختلف عن تلك التي جاء بها دو سوسير؛ فتروبتسكوي مثلا، وهو يمثل مدرسة براغ أحسن تمثيل، يحبذ التمييز بين علم الأصوات والفونولوجيات؛ ففي حين يسعى عالم الأصوات إلى وصف كل الظواهر المرتبطة بعملية استخدام اللسان دون تفضيل إحداها على الأخرى، يحاول الفونولوجي - عكس ذلك - استخلاص العناصر الوحيدة التي تسهم في عملية التبليغ[135] وهي التي تسهم أيضا في إرسال المعلومة، إنها العناصر الوحيدة التي تتعلق باللسان.

لكن على الرغم من اختلافها في كيفية توظيف المفاهيم السوسيرية، فإن الاتجاهات البنوية تتفق على وجوب دراسة اللسان في ذاته ولذاته، متخذة الجملة التي اختتم بها شارل بالي وألبير سشهاي كتاب المحاضرات: «إن موضوع اللسانيات الحقيقي والوحيد هو اللسان، في ذاته ولذاته»، المنوال الذي انتهجته في مدارسة الوقائع اللسانية[136]، ومن ثم يألف كل لسان من المنظور البنوي بنية علائقية وحيدة أو نسقا. والوحدات التي يتم تحديدها، أو افتراضها،

(134) N. Troubeztkoy, «La phonologie actuelle», p. 242.

(135) - N. Troubeztkoy, Principes de phonologie, tr. J. Cantineau, Paris, Klincksieck, 1949.

(136) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p 317.

ينظر:

- M. Leroy, Les grands courants de la linguistique moderne, p 90.

- ج. بياجي: البنيوية، تر: عارف منيمنة وبشير أوبري، بيروت، منشروات عويدات، 1980، ص 08.

بوصفها عناصر نظرية مكَوِّنة (الأصوات، الكلمات، المعنى)، أثناء تحليل الجملة، تستقي ماهيتها ووجودها في الآن ذاته من علاقاتها التي تقيمها مع وحدات النسق الأخرى(137)، لا شيء سواها.

لقد كانت إحدى إسهامات ياكبسون في المؤتمر العالمي الأول للغويين المنعقد بلاهاي سنة 1928 الاقتراح الذي قدمه للإجابة عن السؤال الرابع الذي طرحه منظمو المؤتمر وهو: ما هي الطرائق الملائمة لوصف شامل وعملي لنحو لسان ما؟ وهي الإجابة التي تبرز فيها لأول مرة بكل جلاء أهمية الطرح السوسيري في «تصور اللسان نسقا من القيم الخلافية»(138) في نشأة الفونولوجيات، والدور الذي ما انفك يضطلع به مفهوم التضايف «corrélation» الذي «يعد مفتاح التحليل الفونولوجي»(139)، وهو، أي التضايف الفونولوجي «مجموعة من النقائض الثنائية محددة كلها بواسطة بمعيار مشترك مستقل عن كل ثنائية تقابلية»(140)، أي أنها مجموعة من أزواج فونيمية يتقابل كل عنصر من عنصريْها باتصاف أحدهما بميزة صوتية بينما تختفي في الآخر، وتسمى هذه الميزة «marque» ميزة تضايفية، ويمكن التمثيل لهذا المفهوم في اللسان العربي باتخاذ صفة الجهر مثلا معيارا للتمييز بين عدد من الفونيمات العربية، وفي ذلك يقول ابن جني: «اعلم أن للحروف في اختلاف أجناسها انقسامات نحن نذكرها: فمن ذلك انقسامها في الجهر والهمس وهي على ضربين مجهور ومهموس فالمهموسة عشرة أحرف وهي الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والصاد والتاء والسين والثاء والفاء ويجمعها في اللفظ قولك ستشحثك خصفة وباقي الحروف وهي تسعة عشر حرفا مجهور»(141).

وهذا يعني أن المجموعة المتكونة من الأصوات (الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والصاد والتاء والسين والثاء والفاء) متضايفة من جهة الجهر مع

(137) J. Lyons, Eléments de sémantique, tr. J. Durand, Paris, Larousse, 1978, p 188.

(138) - R. Jakobson, «Proposition au premier congrès international de linguistes», in Selected Writing I, Phonological Studies, La Haye, Mouton & s-Gravenhage, 1962, p. 4.

(139) - J.-L. Duchet, La phonologie, Paris, P. U. F., Que sais-je?, 1e éd., 1981, p. 21.

(140) - R. Jakobson et L. Waugh, La charpente phonique du langage, p. 28.

(141) أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الأعراب، الجزء الأول، ص. 60.

مجموعة الأصوات المتكونة من (الهمزة والألف والعين والحاء والغين والقاف والجيم والياء والضاد واللام والراء والنون والطاء والدال والزاي والسين والظاء والذال والباء والميم والواو). ويمكننا أن نواصل البحث في ميزات التضايف الأخرى حتى نصل إلى استخراج الأزواج المتضايفة الدنيا المكونة للنسق الفونولوجي العربي. فالطاء والتاء فضلا عن اشتراكهما في المخرج إذ هما صوتين أسنانيين لثويين، كلاهما صوتين شديدين ومهموسين، لكن الطاء مفخم في حين أن التاء مرقق.

ويمكن والحال هذه اتخاذ مخارج الحروف منطلقا، أو معيارا عاما لبناء النسق الفونولوجي للعربية، فإذا نظرنا في الحروف العربية التي مخرجها أسناني لثوي، وهي الضاد والدال والطاء والتاء والزاي والصاد والسين، فإنه يمكننا تقسيم هذه المجموعة من الأصوات إلى عدد من الأزواج فالضاد والدال كلاهما فونيمين شديدين مجهورين، لكن الضاد مفخم في حين أن الدال مرقق، وهما خليقان بأن يبرزا في أزواج دنيا من مثل (ضلّ/ دلّ) و(مرض/ مرد) و(مضض/ مدد) وغيرها، وكذلك الصاد والسين فهما يشتركان في الرخاوة والهمس لكنهما يختلفان في كون الأول مفخم والآخر مرقق، ويبرزان في أزواج دنيا من مثل (سال/ صال) و(سد/ صد) و(مص/ مس) وغيرها. أما الزاي الذي ينتمي إلى هذه المجموعة فإنه يقابل الفونيم صفر، ويعنى بالفونيم صفر غياب هذا المقابل من اللسان العربي، ذلك أن النسق الصوتي العربي لا يتوفر على صوت أسناني لثوي، رخو، مجهور، مفخم، مثلما هو الفونيم /z/ كما في الكلمات zone,zèbre,lézard، وغيرها.

الفصل الثاني

في تلقي سيميائيات دو سوسير

لقد أدركنا منذ الوهلة الأولى من إعدادنا لهذا المؤلف الموجز أن محتواه سيتخذ منحى تأريخيا أكثر منه وصفيا تحليليا، لأن الفكرة الأساسية التي كنا وما زلنا نحاول ترسيخها هي ضرورة وضع كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير جانبا والإقبال على كتاباته المنشورة مؤخرا. وهي دعوة إلى إعادة قراءة فكر دو سوسير ومعاودة التفكير في اللسانيات وفق ما استجد في أدبياتها. ولعلنا في هذا الفصل لا ننكر مدى الصعوبة التي يلاقيها الباحث وهو يقبل على هذه الكتابات، فهي تُلزمه التحلل من كل ما رسخ في ذهنه سلفا من يقينيات ومسلمات شكّلت مسار اللسانيات على مدى قرن من الزمن، لم يكن لدو سوسير، في واقع الأمر، إسهام مباشر فيها، وهو الذي لُقب بأب اللسانيات الحديثة.

ولئن كنا نروم الإشارة في هذا الفصل إشارة موجزة إلى ما استجد في أدبيات السيميائيات على إثر العثور على مخطوط لدو سوسير في اللسانيات العامة العام 1996، ونشره سنة 2002 ضمن مجموعة من النصوص السوسيرية الأصلية، بعد تحقيقها من قبل رودلف أنغلر وسيمون بوكي، فذلك لأن الباحثين ما انفكوا، منذ ذلك الحين، يعاودون استكشاف فكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائياتي ويسعون جاهدين في محو الصورة النمطية التي طالما رسخت في أذهان أجيال من الباحثين فاختزلته في عدد من الفروق من مثل الفصل بين اللسان والكلام، والآنية والدياكرونية، واللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية، والدال والمدلول، وقليل من التعريفات من مثل التعريف بالعلامة والقيمة اللسانيتين، والعلاقات التركيبية والاستبدالية، والقياس وغيرها من

التصورات التي قدّمها شارل بالي وألبير سشهاي للمجتمع العلمي، ضمن كتاب أسمياه محاضرات في اللسانيات العامة، على أنها عصارة ما ألقى دو سوسير في محاضراته.

وتنبأ هذه الجهود عن حلول مرحلة جديدة من مراحل تلقي الفكر السوسيري الذي طالما تجاهلت الأقلام منه ما كان دو سوسير يختبره في خلوته، بعيدا عن منابر الجامعة ومثاقفة الأقران، وتستكشف جوانب خفية من جوانب فكره المتعدد. ولئن اختزلت هذه الصورة النمطية فكر دو سوسير في مسمّى اللسانيات فإن اللسانيات ما كانت بأي حال من الأحوال الهدف المنشود والغاية القصوى التي أجهد دو سوسير نفسه في بلوغها، كلا، إن ما استهواه كان أكبر وأعمق، لقد كان أكبر من مجرد البحث في لسانيات اللسان وأعمق مما اختبرته الكلمات.

سيميائيات دو سوسير وتلقيها

لقد تمكن الباحثون المحدثون، من مثل فرانسوا راستيي، وسيمون بوكي، وأنغي ميشونيك، وتيليو دو مورو، من التعرف ضمن فكر دو سوسير اللسانياتي، بما توفر لهم من وثائق ومخطوطات كانت مودعة بجامعتي جونيف وهارفارد، على حقول معرفية ثلاث صنفوها على النحو التالي: حقل الإبستيمولوجيات، وحقل فلسفة اللغة، وحقل الإبستيمولوجيات الـمُبرمـجة.

أما النوع الأول من الـمعارف فإنه يندرج ضمن نقد العلم، ويشتمل على ما اجتمع من أفكار دو سوسير النقدية للـممارسات اللسانياتية التي عاصر أصحابها، ونعي بـها اللسانيات التاريخية الـمقارنة. أما الحقل الثانـي فهو عبارة عن تـحليلات فلسفية، شبيهة بتحليلات أرسطو، حول اللغة، ومسألة الأنساق الدلالية الأخرى أحيانا، وأخيرا، يضم الـحقل الثالث مـجمل آراء دو سوسير فيما يـجب أن يكون عليه علم اللغة مستقبلا[1]، لسانياتٍ عامة تستعيد فضلا عن

(1) F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002, p 8.

موضوعات الصرف والـمفرداتيات والتركيبيات، موضوعات البلاغة والأسلوبيات ضمن إطار سيميائياتي عام ينبأ عن تصور أصيل لطبيعة العلامة اللسانية.

ليس من اليسير التفصيل في كل مكونات هذه الحقول المعرفية فقد حلت مرحلة جديدة في تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي لا تزال تحاول قراءة مخطوطاته قراءة سليمة تنأى عما رسّخه منذ 1916 كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في أذهان أجيال من الباحثين من أفكار وتصورات نسبت إلى دو سوسير وما هي في حقيقة أمرها إلا اجتهادات لشارل بالي وألبير سشهاي أفقدت الفكر السوسيري اللسانياتي حقيقته وأصالته.

السيميائيات، المصطلح والمجال

من الشطط الحديث عن السيميائيات بالإفراد، فالسيميائيات ليست واحدة؛ فلا هي مجموعة متجانسة من المفاهيم الإجرائية والطرائق التحليلية، ولا هي جملة من الآراء والتصورات التي تُستقى من معين واحد. ولذلك، عادة ما يتم الحديث عن السيميائيات بإسنادها إلى مؤسس بارز فيقال مثلا: سيميائيات بورس، أو سيميائيات دو سوسير أو سيميائيات يمسليف، أو سيميائيات غريماس، أو سيميائيات إيكو، أو سيميائيات كسيرر، فكل واحد من هؤلاء وغيرهم شق لنفسه نهجا في التعامل مع الموضوعات السيميائية فأحدث نسقا من المفاهيم الإجرائية وابتكر عددا من الآليات التحليلية ما يتفق ومنطلقاته الفلسفية والإبستيمولوجية.

وإلى هذا التعدد في الأصول ينضاف تعدد في التسمية، فالسيميولوجيات والسيميائيات كلاهما العلم الذي يدرس العلامات؛ أما الأول فهو تعريب للمصطلح الفرنسي «sémiologie»، وكان دو سوسير أول من أنشأه: «إن اللسان نسق من العلامات المعبرة عن معان، ولكونه كذلك فهو شبيه بالكتابة، وأبجدية الصم البكم، والطقوس الرمزية، وأشكال التأدب، والإشارات العسكرية، وغيرها، إلا أنه أهم هذه الأنساق، فيجوز لنا حينئذ أن نفكر في إحداث علم يدرس وجود العلامات في الحياة الاجتماعية، ينطوي ضمن علم النفس الاجتماعي، ومن ثم ضمن علم النفس العام، نطلق عليه اسم السيميولوجيات

(من كلمة سيميون «sèmeîon» اليونانية، التي تعني العلامة). وعلى هذا العلم أن يعرفنا عما هي عليه العلامات، والقواعد التي تنتظم وفقها، وهو إذ لم يوجد بعد، لا يمكننا التكهن بما سيؤول إليه، بيد إن إحداثه مشروع وموقعه محدد سلفا»[2].

وإلى هذا التوجه ينتمي عدد من الباحثين الفرنسيين من مثل بيوسنس، وبرييتو، ومونان، وغيرهم ممن حصروا إطار البحث السيميائياتي في دراسة نمط محدد من أنماط العلامة وهو الإشارة، دلالة على ضرورة التعامل مع العلامات وفق مبدأ القصد في التواصل مع الآخر والتأثير فيه، فأنشئوا ما أضحى يعرف بسيميائيات التواصل، فالفعل التواصلي فعل يراد به إبلاغُ واقعٍ مدركٍ مرتبط بحالة ذهنية خاصة، عن طريق تحقيقه، حتى يفقه الفرد الآخر هدفَ هذا التحقيق ويعيد في ذهنه ما كائن بذهن الآخر. وأضحت السيميائيات، منذ أن حدها بويسنس، «دراسةَ آليات التواصل، أي الوسائل التي تحقق التأثير في الآخر، وهي معلومة لديه»[3]، وهي، كما يراها بريتو، لا تضطلع إلا بالوقائع المدركة، المرتبطة بحالات من الوعي، والتي يتم إنجازها صراحة لغاية إعلام الآخر بها ويعلم هو ومن حوله أن هذا الإبلاغ مقصود له[4].

وفي المقابل من هذا التوجه الذي ينحو المنحى التواصلي ولا يدرج ضمن البحث السيميائياتي إلا ما هو من الأنظمة السيميائية قائم على القصد في التواصل، نشأ توجه سيميائياتي آخر يرفض إبعاد النمط الآخر من أنماط العلامة، وهو المؤشر «indice»، المفتقر من وجهة نظر سيميائيات التواصل إلى المقصدية، كما يرفض إلحاحَها على ضرورة الإفصاح في أثناء التواصل فيولي بدلا من ذلك عنايته بالبعد التضميني للغة. وقد عرف هذا التوجه باسم سيميائيات الدلالة، وكان لرولان بارت، الفضل في تأسيسه فقد اتخذ من المفاهيم اللسانياتية المستقطبة من لسانيات دو سوسير وسائل لمقاربة الأنماط

---

(2) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 33.

(3) - E. Buyssens, La communication et l'articulation linguistique, Bruxelles, Presses Universitaires de Bruxelles, 1967, p. 11

(4) - L. J. Prieto, La sémiologie, in A. Martinet, Le langage, Paris, 1968, p. 94.

السيميائية غير اللسانية من مثل الصورة، والإشهار، والعمران، والطب، والطبخ وغيرها، وبلغ ولوعه بمقترحات اللسانيات بأن جعل السيميائيات منضوية فيها.

إن السمة الغالبة على مجموع الدراسات المنتسبة إلى التيار السيميائياتي المنتشر أساسا في فرنسا، سواء ما انضوى منها ضمن التوجه التواصلي، أو ما انتهج الوجهة الدلالية، هي كونها تنطلق من مصادرات اللسانيات وتكاد، في بعض أحيانها، لا تنفك تترامى في أحضان الحركية البنوية التي كانت بمثابة الجو الفكري الذي تألقت فيه. البنوية، هذه الحركة الفكرية التي امتدت تطلعاتها إلى كثير من العلوم الإنسانية، غالبا ما كانت تعزى إليها طريقة جديدة في تعيين المسائل المرتبطة بالعلامة ضمن العلوم واستثمارها استثمارا جديدا، طريقة كان منطلقها الأول من لسانيات دو سوسير[5]. ولقد ألهمت أعمال ليفي سترواس الأنتروبولوجية البنوية، لاسيما دراسته لأنساق القرابة، الدراسات السيميائياتية التي اتجهت تُدارس الأدب وبعض الأنساق الاجتماعية من مثل الأسطورة، والموضة، وغيرها مما يكون انتظامه شبيه بالانتظام اللساني، مستوحية هي الأخرى من نظريات ياكبسون ويمسليف، اللسانياتية البنوية نماذجها التحليلية[6].

ولأطروحات يمسليف السيميائياتية اللسانياتية حضور بارز في سيميائيات بارت وسيميائيات غريماس. وثمة سمة أخرى تتسم بها السيميائيات الفرنسية وهي أن كثيرا من الدراسات التي تنضوي ضمنها، باستثناء دراسات كلود ماتز حول السينما، هي في حقيقة أمرها دراسات صورية للأدب وهي، كما هو شأن أعمال كلود برموند، وجيرار جينات، وتزيفتان تدوروف، لا تستند إلى سيميائيات عامة، خلافا لبحوث جوليا ترستيفا السيميائياتية، وغريماس، وكلود شبرول، وجون كوكي، وفرنسوا راستيي وغيرهم ممن أعمل مصطلح «sémiotique»، السيميائيات، بديلا عن مصطلح السيميولوجيات قصد التميز عن المنتسبين إليه.

---

(5) - O. Ducrot et al., Qu'est-ce que le structuralisme ?, Paris, Seuil, 1968, p. 7.

(6) - O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1995, p. 221.

هذا عن مصطلح السيميولوجيات عموما، أما مصطلح السيميائيات فهو يعرب عن مصطلحين: أحدهما المصطلح الفرنسي «sémiotique»، وهو يشمل كما قلنا أبحاث كرستيفا وأعضاء مدرسة باريس السيميائياتية التي أسسها غريماس، وقد أسهم فيها كل من كورتاس، وراستيي، وكوكي، وجنينسكا، وأريفي، وغيرهم ممن انتهجوا تحليل الأنواع الأدبية بوصفها مجالا من مجالات سيميائياتية توليدية تستند إلى دلاليات شمولية، وأسهموا في وضع منهجية كان قوامها اللسانيات، والأنتروبولوجيات، ودراسة الحكاية الشعبية.

لقد أسهمت هذه المدرسة في تثبيت استعمال مصطلح السيميائيات بدلا من مصطلح السيميولوجيات، وبات مصطلح «sémiotique» منذ نشر معجم غريماس وكورتاس السيميائياتي سنة 1979 ينطوي على دلالات ثلاث مختلفة هي: 1) الموضوع السيميائي الذي لم يتناوله التحليل بعد، وهو في هذه المرحلة من الطرح السيميائياتي مجرد مجموعة دالة يفترض امتلاكها لانتظام داخلي، 2) الموضوع السيميائي الذي تناوله التحليل، وهو في هذه المرحلة ينطوي على التصور الذي اقترحه يمسليف بوصف الموضوع السيميائي مكونا من عدد من العلاقات التراتبية «hiérarchie» ذات بعدين، بعد تركيبي وبعد استبدالي، ويختلف هذا التصور عن التصور السابق في كون الموضوع السيميائي، في هذه المرحلة، في إمكانية مقاربة هذا الموضوع السيميائي من جهة كونه نسقا، ومن جهة كونه إنجازا «procès»، من ناحية، ومن جهة تمظهره، من ناحية أخرى، في شكل تعبير ومحتوى3 .) أما الدلالة الثالثة التي ينطوي عليها مصطلح «sémiotique» فهي دلالته على السيميائيات العامة، أي على مجموع المفاهيم التي تؤسس للنظرية السيميائياتية[7].

أما المصطلح الإنجليزي «semiotics»؛ فهو يحيل إلى توجهات سيميائياتية نشأت كلها في حضن سيميائيات شارل سندرس بورس، المرتبطة بالبحث الفينومينولوجي، والتقعيد الرياضي المنطقي، وعلمية العلم، كان الحظ فيها

(7) - A.-J. Greimas et J. Courtés, Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Paris, éd. Hachette, 1979, pp. 339-345.

لشارل موريس، وتوماس سيبوك، وسميث، في تجسيد معالم سيميائيات تختلف كل الاختلاف عن الممارسات السيميولوجياتية أو السيميائياتية المنبثقة عن لسانيات دو سوسير، والأنتروبولوجيات البنوية.

لا يكفي كل ما ذكرناه عن مصطلحي السيميولوجيا والسيميائيات للإلمام بجميع ما اشتملت عليه البحوث السيميائية من وتوجهات وما استشرفته من آفاق، ولعلنا أشرنا إلى بعض الأصول الفلسفية واللسانية التي انبثقت عنها، وروادها البارزين: بورس، ودو سوسير وغريماس، لكن هذه الأصول ليست المنابع الوحيدة للسيميائيات الحديثة، فقد كان للفينومينولوجيات والمنطق إسهام بارز في إضفاء مزيد من التنوع والتجديد فيها، فقد مكنت الفينومينولوجيات إدموند هوسرل وإرنست كاسرر من إثراء المجال السيميائياتي بنظريتين جديدتين في دراسة العلامة، كما أتاحت لغريماس وضع إحدى لبنات نظريته السيميائياتية. أما المنطق فإنه وثيق الصلة بالسيميائيات وواحد من أهم مقوماتها، فقد كانت آليات الاستدلال المنطقي هي الآليات التي اعتمدها بورس في تصنيفه لأنماط العلامة، وانتهجها موريس وكثير من السيميائياتيين المحدثين، كما أسهمت أبحاث فريج وكرناب المنطقية في مد السيميائيات بمفاهيم إجرائية هامة.

وفضلا عن أصولها الفلسفية والمنطقية واللسانية، ارتبطت السيميائيات في كثير من مراحلها بالتأويليات، حتى غدت السيميائيات لا تقتصر على دراسة العلامة إنما تعنى كذلك بالآليات التأويلية. لكن التأويليات أصبحت أكثر قربا هذه السنوات الأخيرة إلى السيميائيات، وتجلت أحسن صورها في سيميائيات أمبرتو إيكو، التي كانت تنزع إلى التركيب ومحاولة صياغة سيميائيات عامة، واستطاعت على الرغم من انتهاجها المنهج السيميائياتي البورسي من الاستفادة من أبحاث الشكلانيين الروس، وبارت وغريماس، والإسهام في فلسفة العلامة.

حقيقة السيميائيات السوسيرية بين كتاب المحاضرات وكراسات الطلبة

لعلنا بعد هذا العرض المقتضب للاستعمالات المختلفة لمصطلحي السيميولوجيات والسيميائيات لم نحدد موقع فكر دو سوسير السيميائياتي من المجال السيميائياتي العام تحديدا يليق بإسهاماته وتصوراته الأصيلة إزاء اللسان

بوصفه نسقا سيميائيا وبسائر الأنساق السيميائية الأخرى، ولو رمنا ذلك لكنا ركنا إلى ما روج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة واقتصرنا على اجترار ما نسب إلى دو سوسير من أنه 1) نادى بضرورة التفكير في علم شامل يتخذ من العلامة موضوعا له، و2) تكون اللسانيات واجتهاداته في وصف العلامة اللسانية معينا على تصور قواعد عامة تسري على الأنساق السيميائية الأخرى. لكن الاقتصار على ما روج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة وعدم الاجتهاد في إعادة الكشف عما صادرته اجتهادات شارل بالي وألبير سشهاي سيُبقي على الصورة النمطية التي طالما نجحت في وضع دو سوسير في دائرة الرواد الأوائل للسيميائيات دون أن تحدد ما كان الرائد فيه.

ولئن كنا لجئنا أوّل هذا الفصل إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من أجل التعريف بالسيميائيات فذلك لأننا نروم الآن إعادة النظر فيه وفق ما استجد في أدبيات الفكر السوسيري، ولعل أهم مسائله في هذا الشأن تحديد الإعلان عن ضرورة التفكير في «إحداث علم يدرس وجود العلامات في الحياة الاجتماعية [...] ويعرفنا عما هي عليه العلامات، والقواعد التي تنتظم وفقها»[8]، ضمن مسار تطور الفكر السوسيري على مدى السنوات الجامعية الثلاث، ثم ضمن مسار أبحاثه الأخرى التي لا نكاد نعلم عنها الكثير نتيجة بقاء جزء كبير من مخطوطاته دون نشر أو تحقيق. لقد أضحى معلوما نتيجة نشر بعض كراسات طلبة دو سوسير، لاسيما تلك التي اعتمدها شارل بالي وألبير سشهاي مادة لكتابهما، والاهتداء إلى الترتيب الزمني لمحتوى المحاضرات الفعلية التي ألقاها دو سوسير، أن دو سوسير تطرق أول الأمر إلى المسألة السيميائية في خلال السنة الجامعية الثانية مباشرة أثناء الدرس التمهيدي الذي دأب فيه، في كل سنة جامعية، على التعريف باللسانيات وموضوعها.

وقد عمل دو سوسير في هذا الدرس على تحديد موقع اللسانيات ضمن سائر العلوم التي من شأنها اتخاذ الألسن موضوعا لها وعلاقاتها بها، ولما كان هذا التحديد لا يكفي في رسم معالم اللسانيات وجب التفكير في علم آخر من

(8) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique préparée par T. de Mauro, Paris, éd Payot, 1983, p.

شأنها الانضواء تحته من منطلق أن اللسان نسق من العلامات، ورسم بعض المعالم التي تشترك فيها الألسن بوصفها أنساق سيميائية مع أنساقا أخرى وتختلف معها في معالم أخرى، لذلك كانت الكتابة، لأنها أولى الأنساق قربا من الألسن، موضوع حديثه في هذا الدرس الافتتاحي. لكن الاعتقاد بأن المحاضرات في اللسانيات العامة كانت المناسبة الأولى التي تحدث فيها دو سوسير عن مشروعه السيميائياتي من بين المسائل التي وطدت هذه الصورة النمطية الزائفة، فقد بيّن رودلف أنغلر أن معالم المشروع السيميائياتي بدأت تتضح أول الأمر منذ 1894 في عدد من الكتابات، ومنها ما دونه لإعداد مقال حول فكر ويتني اللسانياتي، ثم فيما دونه لإعداد كتاب في اللسانيات العامة، لاسيما الكتابات التي تحمل عنوان «status et modus»، وفيها تبرز مفاهيم ومصطلحات سيميائياتية أخرى من مثل «sème» و«aposème» و«parasème»، وهي المصطلحات التي لا تجد لها ذكرا في كتابا المحاضرات التي أعده شارل بالي وألبير سشهاي[9].

ولئن كانت الكتابات هذه لـم تنشر إلا في سنة 1974 ضمن الجزء الثاني من الطبعة النقدية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة التي أعدها رودلف أنغلر، فإن أوّل تداول للمصطلح السوسيري، السيميولوجيات، خارج الكتابات السوسيرية كان منذ مطلع القرن الماضي، أي قبل قرابة عقد من الزمن على المحاضرات في اللسانيات العامة، حينما أدرج أندري نافيل أول الأمر سنة 1901 علم السيميولوجيات ضمن تصنيفه الجديد للعلوم، إذ ذكر، في سياق حديثه عن علم الاجتماع ضمن كتابه «تصنيف جديد العلوم»، : «لقد ألح السيد سوسير على أهمية علم شامل سماه السيميولوجيات موضوعه قوانين إنتاج العلامات ومعانيها وتحولاتهما. وهي جزء من علم الاجتماع، ولما كانت اللغة «langage» أهم أنساق العلامات، فإن العلم السيميولوجياتي، أو علم القوانين الخاصة بحياة اللغة، الأكثر تطورا هي اللسانيات»[10].

(9) - R. Engler, «Sémiologies saussurienne. 2. Le canevas», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 34, 1980, p. 3.

(10) - A. Naville, Nouvelle classification des sciences. Etude philosophique, Paris, 1901, pp. 103-106.

لكن الطبعات المتوالية لكتاب نافيل سرعان ما تناست علم السيميولوجيات وأخرجته عن تصنيفات العلوم المتوالية. ولئن أبنا إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي يكتفي بالتبشير بعلم العلامات، فإننا ندرك أن الغاية من استحضار علم أوسع من علم العلامات اللسانية من شأن هذا الأخير الانضواء تحته، هي محاولة بالي وسشهاي التعريف بمفهوم اللسان بوصفه نسقا اجتماعيا من العلامات، بعدما ميزاه عن اللغة من جهة وعن الكلام من جهة أخرى، في مقدمة كتاب المحاضرات[11].

وتتكون مقدمة الكتاب من سبعة فصول تمثل في نظر بالي وسشهاي المسائل التي يجب التعريف بها قبل الولوج إلى المسائل المركزية للسانيات وهي أولا: تقديم لمحة موجزة عن تاريخ اللسانيات، ثانيا: التعريف بالمادة التي تشتغل عليها اللسانيات وموضوعها، وعلاقتها بالعلوم التي من شأنها اتخاذ اللغة موضوعا لها، ثالثا: التعريف باللسان من حيث كونه موضوع اللسانيات، من خلال تحديد موقعه ضمن الوقائع اللغوية والوقائع الإنسانية (السيميولوجيات)، رابعا: التعريف بلسانيات اللسان ولسانيات الكلام والتمييز بينهما، خامسا: تحديد العناصر الداخلية والعناصر الخارجية عن اللسان، سادسا: الكتابة، سابعا: مبادئ في الفونولوجيات (بمعنى الصوتيات الحديثة). لذا يجب الانتقال إلى الفصل السادس من كتاب المحاضرات، أي بعد أن يعرج القارئ، خلافا لما كان عليه عرض دو سوسير في دروسه، على مسائل ترتبط بلسانيات اللسان ولسانيات الكلام، وأخرى بالعناصر الداخلية والعناصر الخارجية عن الألسن، حتى يصادف مسألة الكتابة. ثم إن كراسة رايدنغر المنشورة من قبل كوماتسو[12] تظهر جليا مدى استرسال دو سوسير في التعريف بالسيميولوجيات مقارنة بما اقتضبه شارل بالي وألبير سشهاي أو صادراه من أفكار دو سوسير السيميولوجياتية.

(11) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique préparée par T. de Mauro, pp. 36-43.

(12) - F. de Saussure, Premier Cours de linguistique générale (1907), d'après les cahiers d'Albert Riedlinger, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1996.

ولعل القارئ يتساءل بعد هذا عن الغاية من إدراج هذين الفصلين والأصول التي استند إليها بالي وسشهاي، أم إنهما في حقيقة أمرهما نتيجة اجتهاداتهما. أما أحدهما وهو الذي يؤسس لنوعين من اللسانيات هما لسانيات اللسان ولسانيات الكلام استنادا إلى التمييز بين اللسان والكلام والفصل بينهما، فإنه لا يخلو من تناقض صريح، إذ بعدما ميز بالي وسشهاي، ضمن دائرة اللغة، بين اللسان والكلام، انتهيا إلى ضرورة التوكيد على أن اللسان هو الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات، ثم نلفيهما لا يردّان فكرة وجود لسانيات أخرى تتخذ من الكلام موضوعا لها لا مجال لأن يتطرق لها الكتاب الذي وضعاه ونسباه إلى دو سوسير، ووسماه بالمحاضرات في اللسانيات العامة، وغاية ما يدل عليه هذا العنوان عدم عناية اللسانيات العامة بما هو في صلة مباشرة بالكلام، وعناية بما هو لساني أي سيميولوجي.

لقد اختزل كتاب المحاضرات قرابة عقدين من بحوث دو سوسير السيميولوجياتية (منذ 1894 حتى سنة وفته 1913). ولعل القارئ قد لاحظ عدم وفاء شارل بالي وألبير سشهاي، وهما يعدان لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، للتعريف الذي ارتضاه دو سوسير للسيميولوجيات ولاسيما للمجال العلمي الذي تنتمي إليه، ففي حين يرى دو سوسير انتماء السيميولوجيات إلى علم الاجتماع كما حرص على تقييده في التعريف الذي بعث به إلى نافيل لإعداد كتابه في تصنيف العلوم، أدرجاها في علم النفس.

تلقي سيميائيات دو سوسير

لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نرسم بدقة معالم المراحل التي مر بها تلقي سيميئيات دو سوسير لأسباب عديدة، أهمها تداخل المراحل والانتشار التدريجي للمعارف السيميائياتية التي احتوى عليها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، فضلا عن أن تلقي السيميولوجيات متصل اتصالا وثيقا بتلقي اللسانيات من قبل الغرب ثم العرب. بيد إنه من الممكن أن نميز، منهجيا، بين مراحل ثلاث: أما المرحلة الأولى، وهي مرحلة رائدة، فتبدأ بسنة 1943، وهي السنة التي برز فيها كتاب يمسليف «مقدمة لنظرية في اللغة»، وكتاب بويسنز «اللغات والخطاب».

وتتزامن هذه السنة، في مسار تلقي لسانيات دو سوسير، بأواخر المرحلة الثانية التي بدأت بانعقاد المؤتمر العالمي الأول للغويين بلاهاي في سنة 1928. أما المرحلة الثانية فقد رافقت المرحلة البنوية من تلقي لسانيات دو سوسير في أثناء ستينيات القرن الماضي، وهي المرحلة التي تشهد نزعة عامة نحو السعي إلى استثمار المقولات اللسانياتية في حقول معرفية تعنى بموضوعات مختلفة من مثل الصورة، والموسيقى، والسينما، والموضة، وغيرها، من خلال إعمال عدد من المفاهيم المستقاة من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من مثل العلامة، والتقطيع، وغيرها من المفاهيم التي عدت آنذاك مفاهيم إجرائية. وأما المرحلة الثالثة فهي تتزامن مع انعقاد المؤتمرين العالميين للسيميائيات (1974) و(1979)، وهي تنعت عادة بمرحلة ما بعد السيميولوجيات أو السيميولوجيات المدرسية. لقد تم الاعتراف بالسيميولوجيات كمادة جامعية، ولعل تدريسها بالجامعة هو الذي مكن من الكشف عن حدودها، ولقد تزامنت هذه المرحلة مع بروز سيميائيات شارل سندرس بورس في الساحة الأوروبية وكان لياكبسون ومونان إسهام في التعريف بها.

يعد صدور كتابي يمسليف «مقدمة لنظرية في اللغة»(13)، وكتاب بويسنز «اللغات والخطاب»(14)، سنة 1943 حدثا بارزا في مسار تلقي سيميولوجيات دو سوسير، ولئن ظل كتاب يمسليف إلى غاية أواخر ستينيات القرن الماضي كتابا مغمورا نظرا للمعوق اللساني الذي حال دون انتشاره في أوساط اللغويين الغربيين مثلما كان من قبل مصير لسانيات راسموس راسك في أثناء القرن التاسع عشر، فإن كتاب إيريك بويسنز بقي هو الآخر مغمورا، لا يقتصر تداوله إلا على عدد قليل من الباحثين، على الرغم من اجتهادات أندري مارتني ولويس بريتو في التعريف به. ولقد رد مونان أهم أسباب هذا العزوف إلى قلة الاهتمام آنذاك باللسانيات البنوية، وعزلة اللسانيات الأمريكية(15)، فلا المكان ولا

(13) - L. Hjelmslev, Omkring Sprogteoriens GrundlÒggelse, 1943, tr. Fr., Prolégomènes à une théorie du langage, tr. U. Canger, Paris, Minuit, 1971 (1968).

(14) - E. Buyssens, Les langages et le discours, Bruxelles, Presses Universitaires de Bruxelles, 1943.

(15) - G. Mounin, «Buyssens (Eric). La communication et l'articulation linguistique», Revue belge de philologie et d'histoire, vol. 47, nº 2, pp. 533-538.

الزمان كانا مواتيين لأن تلقى الطبعة الأولى هذه من كتاب بويسنز الإقبال الذي كان يرجى لها مقارنة بطبعته الثانية التي أدرج فيها مؤلفه تعديلات معتبرة، إلى درجة تغيير العنوان(16).

وتتزامن سنة صدور كتابي يمسليف وبويسنز، في مسار تلقي لسانيات دو سوسير، بأواخر المرحلة الثانية التي بدأت بانعقاد المؤتمر العالمي الأول للغويين بلاهاي في سنة 1928. ولئن كان المؤتمر مناسبة لقراءة جديدة لمحاضرات دو سوسير تختلف عما درجت عليه الدراسات السابقة في العقود الثلاثة السالفة، إلا أن المَعْلم البارز فيها كان بروز مفهوم النسق كمفهوم إجرائي استطاع لسانيو مدرسة براغ من استثماره في حقل جديد من حقول اللسانيات وهو الفونولوجيات، ولم تحض السيميولوجيات في مقابل ذلك بالنظر والفحص، حتى برز الكتابين سنة 1943 فكانا المعلمين الرائدين اللذين رسما لأجيال متوالية من الباحثين سبل البحث السيميولوجياتي. لكننا يجب أن ننوه من جديد إلى أن بروز كتاب يمسليف باللسان الدنمركي حال دون سرعة انتشاره، بُعيد نشره، في أوساط المجتمع العلمي، ولولا ترجمه إلى اللسان الإنجليزي سنة 1953، ثم إلى اللسان الفرنسي سنة 1968 لظل فكره مغمورا ردحا من الزمن.

تستند سيميولوجيات بويسنز إلى موقف معين من لسانيات دو سوسير كما هي مبثوثة في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولقد أعرب بويسنز عن بعض النقود لعدد من المفاهيم السوسيرية سنة قبل صدور كتابه، في مقال يحمل دلالة واضحة: «اللسانيات الست لفردناند دو سوسير»(17)، وتمحورت هذه النقود حول ثنائيات دو سوسير الثلاث التي هي: لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، اللسانيات الآنية واللسانيات الدياكرونية، والعناصر اللسانية الداخلية والخارجية، وإقرار فسادها وإحلال مكانها ثنائية وحيدة، تلك التي تميز بين

---

(16) - E. Buyssens, La communication et l'articulation linguistique, Bruxelles, Presses Universitaires de Bruxelles, 1967.

(17) - E. Buyssens, «Les Six Linguistiques de F. de Saussure», Langues vivantes, nº 2, 1942, pp. 46-55.

اللسانيات الآنية أو الوظيفية، وهي اللسانيات التي تعنى بوصف اللسان، وبنيته، وسير عمله ضمن الكلام، وبين اللسانيات التاريخية التي تعنى بسرد تاريخ اللسان وتفسيره استنادا إلى تاريخ المجتمع الذي يتكلم به. ولقد خلص بويسنز إلى الإعلان عن بطلان نسق المفاهيم السوسيرية، كما هو مبسوط في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، برمته، على الرغم من عدم إنكاره لصفة التجانس الذي تميز هذا النسق المصطلحاتي.

لقد كان هذا المقال حدثا بارزا في طبيعة تلقي فكر دو سوسير، ولاسيما سيميولوجياته، وكان له أثر بليغ في قلوب محبي دو سوسير وتلامذته، ولقد بدا هذا الأسى بارزا في العبارات التي صاغ بها ألبير سشهاي رده على بويسنز، ضمن تقرير أعده لدحض مزاعمه وإبطال بعض مقترحاته. إن أهم ردود سشهاي استندت إلى فكرة إثبات سوء فهم بويسنز لدو سوسير، ولئن أسفر سوء الفهم هذا عن الدعوة إلى القطيعة مع فكر دو سوسير، فإن بويسنز، في نظر سشهاي، فشل فشلا ذريعا في إحداث القطيعة لأن النسق الذي استعاض به عن نسق دو سوسير لا يستند إلى تصور واضح عن علاقة اللغة بالفكر، وقد تجلى هذا التصور القاصر في تعريفه للفعل السيمي(18).

وما كان لهذه المحاورة الأدبية التي نشأت بين سشهاي وبويسنز وامتدت إلى عدد من المقالات السجال أن تمر دون أن تستدعي مشاركة لغويين آخرين، لهم دراية بطبيعة تكوين كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير. ولقد برز هذا الموقف بكل جلاء عند فراي(19)، عندما راح يذكر أولا بطريقة العمل التي انتهجها شارل بالي في الإعداد لكتاب المحاضرات من خلال استخلاص، عن طريق المقارنة، فكر دو سوسير من كراسات طلبته، ويدلّل ثانيا على عدم صحة افتراض بويسنز للتناقض القائم بين مقولتي دو سوسير، الأولى مفادها أن اللسان يتأسس على الاختلافات القائمة بين وحداته

(18) - A. Sechehaye, «E. Buyssens, Les Six Linguistiques de F. de Saussure. Les langages et le discours», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 4, 1944, pp. 65-69.

(19) - H. Frei, «Saussure contre Saussure», pp. 8-10.

لا شيء سواها[20]، والأخرى فحواها أن اللسان يتأسس على عدد من الاختلافات والمماثلات[21]، لكونه تناقض ناجم عن عدم تمثل فكر دو سوسير تمثلا صحيحا يتحلل من سطوة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه.

تزامنت المرحلة الثانية مع المرحلة البنوية من تلقي لسانيات دو سوسير في أثناء ستينيات القرن الماضي، وهي المرحلة التي شهدت نزعة عامة نحو السعي إلى استثمار المقولات اللسانياتية في حقول معرفية تعنى بموضوعات مختلفة من مثل الصورة، والموسيقى، والسينما، والموضة، وغيرها، من خلال إعمال عدد من المفاهيم المستقاة من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من مثل العلامة، والتقطيع، وغيرها من المفاهيم التي عدت آنذاك إجرائية. ويعد صدور العدد الرابع من مجلة التواصل «Communications» الفرنسية، سنة 1964، الذي حمل عنوان «بحوث سيميولوجية»، حدثا بارزا في مسار تلقي سيميولوجيا دو سوسير بالنظر إلى المقالات المؤسسة التي احتوى عليها وينبأ عن مدى التطور الذي ميز الدراسات السيميولوجية الأوروبية في أثناء منتصف ستينيات القرن الماضي[22]، لاسيما مقالي رولان بارت في السيميولوجيا[23] وبلاغة الصورة[24]، ومقال كريتسيان ماتز في السينما[25].

ويذكرنا صدور هذا العدد بصدور العدد الثالث من مجلة عالم الفكر الصادر سنة 2007، وهو يعد بحق حدثا بارزا في مجال التلقي العربي للسيميائيات، فقد خصص هذا العدد للسيميائيات وتنافس في إعداده عدد من

(20) - «Dans la langue, il n'y a que des différences», F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 166.

(21) - «Le mécanisme de la langue roule tout entier sur des identités et des différences», Idem, p. 151.

(22) - E. Fadda, «Le lieu théorique de la sémiologie de L. J. Prieto. Note sur la présence de Saussure dans la sémiologie actuelle», Cahiers Ferdinand de Saussure, N° 54, 2001, pp. 385-403.

(23) - R. Barthes, «Eléments de sémiologie», Communications, nº 4, 1964, pp. 91-135.

(24) - R. Barthes, «Rhétorique de l'image», Communications, nº 4, 1964, pp. 40-51.

(25) - C. Metz, «Le cinéma : langue ou langage», Communications, nº 4, 1964, pp. 52-90.

خيرة أساتذتنا المختصين فيها، وهم سعيد بن كراد، وأحمد يوسف، والزواوي بغورة، ومحمد مفتاح، وعبد القادر بوزبدة، والمصطفى الشاذلي، ومحمد الداهي، والطاهر رواينية، ومحمد بادي. ولكن تصوراتهم لسيميائيات دو سوسير ظلت في غالب الأحيان وثيقة الصلة بطبيعة تلقيهم للفكر السوسيري وطبيعة المصادر التي نهلوا منها تصوراتهم، ولعل أوّل ما يمكن استخلاصه من هذه المشاركات هو حجم الاهتمام بسيميائيات دو سوسير، ولكنا نروم من جديد التوكيد على أن التلقي العربي لسيميولوجيات دو سوسير إنما كان في معظم أحيانه مرتبطا بالتلقي الغربي، فها هو الأستاذ سعيد بن كراد بعد أن اجتهد في التعريف بالمبادئ التي استند إليها عالم الاجتماع دوركايم من أجل تحديد موضوع العلم الذي انشغل به، يقرر قائلا: «وهو المبدأ ذاته الذي سيعتمده دو سوسير في عمله من أجل بلورة موضوع اللسانيات التي بشر بها باعتبارها علما خاصا باللسان لا بالوقائع المحيطة به. فمن أجل تحديد اللسانيات يجب تحديد موضوعها، وموضوعها هو دراسة اللسان في ذاته ولذاته وهو يستدعي تحديد ما يعود إلى اللسان وما يلحق به عن باطل. إن اللسان عنده واقعة اجتماعية وهو بذلك موجود خارج الفرد وخارج قدرته على تغييره أو تبديله»[26].

فيما ورثه يمسليف وغريماس عن دو سوسير

كنا في ما سبق من هذا الفصل أشرنا إشارات عابرات إلى سيميائيات يمسليف وسيميائيات غريماس، وكانت الغاية من هذه الإشارات التمييز بين الاستعمالات المختلفة لمفهومي السيميولوجيات والسيميائيات، وانتهينا إلى الإشارة إلى بعض مراحل تلقي سيميولوجيات دو سوسير من خلال ما روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ونود الآن التفصيل في بعض مناحي هذا التلقي، من خلال محاولة تمثل انتقال بعض المفاهيم والتصورات السيميائياتية من دو سوسير إلى يمسليف، ومنه إلى غريماس. ولا يمكننا ونحن نروم الحديث عن تلقي يمسليف لسيميولوجيات دو سوسير أن نستثني منه الحديث عن لسانياته لأسباب أهمها الترادف الحاصل، في كتابات يمسليف

(26) سعيد بن كراد، السيميائيات: النشأة والموضوع، مجلة عالم الفكر، العدد 3، 2007، ص. 19.

وفكره، بين اللسانيات والسيميائيات، والفرضية القائلة بالتشابه القائم بين الألسن الطبيعية وسائر أنساق العلامات وأنظمة التواصل الأخرى، ثم لا يمكننا أن نباشر الحديث عن هذا التلقي دون أن ننبه، كما نبه جورج مونان إلى ذلك من قبل، إلى صعوبة التعبير عن فكر يمسليف السيميولوجياتي دون معرفة متقدمة باللسان الدنمركي الذي ألف فيه كتابه المؤسِس، «مقدمات لنظرية في اللغة»، ودون التنبه إلى الضرر الذي ألحقته ترجماته، لاسيما الترجمة الفرنسية التي لم يكن له إسهام مباشر أو غير مباشر في إنجازها، عكس الترجمة الإنجليزية التي أشرف عليها من قريب فزكاها[27].

ويجب أن ننبه بعد هذا كله إلى أن تلقي يمسليف لفكر دو سوسير السيميولوجياتي، وكذلك الأمر بالنسبة لغريماس، إنما كان من جهة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، وأن البحث في الأصول السوسيرية التي اعتمدها من شأنه أن يعين على فهم عدد من فرضياته وجملة من تصوراته التي شيد بها سيميائياته. ولئن كان اسم دو سوسير أكثر أسماء اللغويين تواردا في كتابه المؤسِس، «مقدمات لنظرية في اللغة»، فلأن النظرية التي صاغها دو سوسير، تعد، في نظر يمسليف، النظرية الوحيدة التي يمكن الاستناد إليها من أجل صياغة نظرية في اللغة وأن صاحبها هو الرائد الوحيد في هذا الميدان[28]، لكن المصدر الوحيد الذي استقى منه يمسليف إنما هو كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بل أدق من ذلك، الجملة التي اختتم بها ناشرا الكتاب : «إن اللسان هو الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات»، والتي أصبحنا ندرك أتم الإدراك أنها لم تكن لدو سوسير وأن دو سوسير ما ميز يوما بين دراسة اللسان ودراسة الكلام ليستثني هذه من تلك. لقد عبر شارل بالي عن ذلك عندما أشار في الرسالة التي بعث بها إلى يمسليف أشهرا معدودات قبل وفاته، واصفا عمله قائلا : «إنك تواصل بكل ثبات ما أوجزه دو سوسير في الجملة الأخيرة من كتابه في اللسانيات العامة»[29].

(27) G. Mounin, Introduction à la sémiologie, Paris, Minuit, 1970, pp. 95-96.

(28) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, p. 14.

(29) - L. Hjelmslev, «L'analyse structurale du langage» (1948), tr. J.-F. Brunaud, in Essais linguistiques, Paris, Minuit, 1971, p. 40.

ولذلك سنكون مجحفين في حق يمسليف لو أننا رمنا النظر في إنجازاته في حقل السيميولوجيات من منظار الفكر السوسيري الأصيل الذي تعبر عنه مخطوطاته تعبيرا صادقا، خلافا لما هو عليه كتاب المحاضرات الذي ألفه شارل بالي وألبير سشهاي، أو أننا تجاهلنا حقيقة أن يمسليف كان قد بدأ رسم معالم نظريته اللسانياتية والسيميائياتية سنوات قبل أن يتعرف على كتاب المحاضرات، ولئن بات هذا الكتاب منذ ذلك الحين واحدا من الأصول التي سارت عليها لسانياته فذلك لأن بعض مضامينه، وبعض أفكاره، صدّقت بعض أفكار يمسليف وتصوراته، ولعل أهم هذه الأفكار وعمادها فرضيتين رئيستين: 1) اللسان شكل وليس جوهرا، و هو 2) تعبير ومحتوى، وهي في نظر يمسليف، وأعني أفكاره وتصوراته التي اشتق لها اسم غلوسيماتيك من اللفظة اليونانية غلوسا التي تعني اللغة، بنوية صرفة(30).

وعلى الرغم من انتقائه بعض مفاهيم دو سوسير دون غيرها مما اشتمل عليه كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة فإن الإجماع يكاد يكون معقد عند جمهور اللغويين والسميائياتيين المحدثين (غودال، بارت، غريماس، راستيي، دو مورو، بدير، إينو، وغيرهم) من أن يمسليف يعد بحق الوحيد الذي استطاع أن يبرز أفكار دو سوسير ويعبر عنها تعبيرا صادقا وتاما. لكن التعبير عن أفكار يمسليف اللسانياتية والسيميائياتية ليس من اليسير بشهادة عدد من الباحثين المحدثين، وعلى الرغم من ترجمة جل أعماله إلى اللسان الفرنسي والإنجليزي وغيرهما، فإنه نسقه المصطلحاتي ظل، خلافا لكثير من المقاربات اللسانياتية والسيميائياتية الغربية الأخرى، مستعصيا على الأفهام والأذهان. ولذلك فإننا نحسب اللجوء إلى المؤلفات الغربية التي أسهمت في تبسيط تصوراته مشروعا، لاسيما مؤلفات الباحثين الذين اجتهدوا في تمثلها واستثمارها، من مثل دريدا، وديلوز، وريكور، وغريماس، وبنفنست، ومارتني، وراستيي، وبارت، وتودوروف، وكريستيفا. ولئن باتت الأنظار موجهة في السنوات الأخيرة إلى الملخص الذي أعده يمسليف سنة 1975، فإن الصياغة التي انتهجها في تحريره

(30) - L. Hjelmslev, Essais linguistiques, p. 39.

زادت من صعوبة الولوج إلى فكره، نظرا إلى الاستعمال الرياضي والهندسي الذي يعد صفته البارزة، وإلى النزعة التجريدية التي طغت عليها[31].

كما إننا نحسب ضروريا، قبل التفصيل في بعض الإجراءات المنهجية التي لجأ إليه، انطلاقا من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، كل من يمسليف وغريماس، التذكير بأهم المبادئ التي تمخضت عن هذه الإجراءات، ونعني به مبدأ الملاءمة «pertinence»، ونحدد في الآن ذاته الإطار العام الذي تنتمي إليه هذه الإجراءات، ونعي به إطار سيميائيات الدلالة، المنافسة لسيميائيات التواصل. ولقد كنا في ما سبق من هذا الفصل من هذا الكتاب الموجز أشرنا إلى تلقي سيميولوجيات دو سوسير، وألمحنا هنالك إلى أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة كان له أثر بارز في الدراسات السيميولوجاتية فلقد بدا لجمهور اللغويين منذ أربعينيات القرن الماضي أن كثيرا من المبادئ التي استكشفتها اللسانيات العامة في وصفها للألسن ليست حكرا على الألسن بل من شأنها أن تنطبق على سائر الأنساق السيميائية الأخرى، كما مكنت الأبحاث التي عنيت بالبحث في الخصائص التي تميز الألسن عن باقي الموضوعات السيميائية الأخرى، من وضع الركائز الأولى لتصنيف للأنساق السيميولوجية المختلفة. ولقد استند هذا التصنيف إلى تصنيف للعلامات من وجهة نظر القصدية «intentionnalité»، فإذا كانت العلامة حاملة لقصدية واضحة في التواصل فإنها تصبح إشارة «indice»، أما إذا انعدمت فيها كل قصدية في التواصل فإنها تصير حينئذ مؤشرا «signal»، وهو التمييز الذي يفرق بين الاتجاهين السيميائيين الأوروبيين البارزين؛ سيميائيات التواصل التي تعد نشأتها الأولى على يد بويسنس[32] وسيميائيات الدلالة التي مثلها بارت[33] آنذاك أحسن تمثيل. ولقد رد بريتو اختلاف هذين الاتجاهين إلى اختلاف الوقائع التي يعتبرها كل واحد منهما أنساقا من العلامات أو سننا «codes»، وما ينتج عن هذا التصور من تعميم

---

(31) - L. Hjelmslev, Résumé d'une théorie du langage (1975), in Nouveaux essais, Paris, P. U. F., 1985, pp. 87-130.

(32) - E. Buyssens, La communication et l'articulation linguistique, Bruxelles, Presses Universitaires de Bruxelles, 1967.

(33) - R. Barthes, Eléments de sémiologie, éd, Paris, 1964.

على كل موضوع أبحاثهما؛ فبويسنس يرى أن موضوع السيميائيات (أو السيميولوجيات) إنما ينحصر في الوقائع المحسوسة للتعبير عن قصد عن حالات شعورية مرتبطة بها، بينما يوسع بارت من مجال السيميائيات إلى كل الوقائع الدالة، فتغدو السيميائيات عنده بحثا في الدلالة، بينما تعنى بالتواصل عند بويسنس[34].

واستنادا لهذا التصنيف تندرج سيميائيات غريماس بوصفها بحث في المحتوى واستكشاف للمعنى ضمن التيار السيميائي الذي ينحدر من بارت، فتتميز إذن فضلا عن تميزها عن العلوم الإنسانية وبعض علوم اللغة، عن سيميائيات التواصل وتحاول - على حد تعبير كورتاز[35] - تجاوزها بل وضمها ضمن مشروع أوسع وأرحب من مجرد وصف عملية انتقال المرسلات؛ فحصر الحقل السيميائي في العملية التواصلية إنما يتأسس على افتراض وجود قصدية ما أثناء التواصل، وهي قصدية يصعب تحديد طبيعتها والمعايير الكفيلة بالتعرف على وجودها وتمييز طابعها الصريح عن الضمني منه .لكن هذا لا يعني استغناء هذه عن تلك، فمن شأن سيميائيات الدلالة أن تجد في سيميائيات التواصل - كما يرى بريتو[36] - نموذجا أكثر ملاءمة من النموذج الذي توفره اللسانيات لها، وهي إن اعتمدت أول الأمر على ما قدمته لها اللسانيات من مفاهيم من أجل تطعيم أبحاثها فلأن سيميائيات التواصل لم تكن قد بلغت آنذاك الرشد بعد.

ويعني مبدأ الملاءمة معالجة السيميائيات موضوعها من جانب معين بتحديد المستوى أو المستويات التي يقع فيها الوصف، وهي، خلافا للمقاربات التقليدية التي عادة ما كانت تستعين بالمعطيات الذاتية، والتاريخية، والاجتماعية، والنفسية، والأسلوبية وغيرها من أجل استخراج المعنى، فلا تكاد تفصل بينها أو تستغني عن إحداها، إنما تؤكد السيميائيات على أن التماس المعنى لا يكون إلا بمقاربات متنوعة، مستقلة عن بعضها البعض؛ أي على

---

(34) - L. J. Prieto, La sémiologie in A. Martinet (sous la direction de), Le langage, pp. 93-94.

(35) - J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Paris, Hachette, 1976, p 32.

(36) - L. J. Prieto: La sémiologie - p 94.

مستويات مختلفة، لكل مستوى خصائصه التي تميزه عن المستويات الأخرى ووحداته التي يتمفصل إليها. ولا يمكن للملاحظة استكشاف طبيعة الموضوع المدروس بصفة كاملة وشاملة اللهم إلا من جانب واحد يختلف باختلاف الطريقة التي يتم النظر من خلالها إلى هذا الموضوع؛ فالإجراء الأول للفكر العلمي يكمن أساسا - على حد تعبير مارتني[37] - في تحديد وجهة النظر التي يتم انطلاقا منها معاينة الحوادث الملاحظة.

ويختلف مفهوم الملاءمة كما تطرحه السيميائيات عما تصطنعه بعض المدارس اللسانياتية؛ فالملاءمة كما تتجلى عند مدرسة براغ اللسانية تعد «ميزة الفونيم التي تميزه عن سائر الفونيمات الأخرى، فتمكنه بذلك من المشاركة في عملية التواصل»[38]، بينما أضحت قاعدة للوصف العلمي، بحيث لا تأخذ بعين الاعتبار إلا الجوانب الضرورية والكافية للتعرف على الموضوع. ولما كان كل وصف يفترض اختيارا ما لعدم قدرته على استنفاذ كل جوانب موضوعه، فإنه لا يقف - كما هو عند الوظيفيين[39] - إلا عند بعض الخصائص التي يراها ملائمة لدراسته، وليس في ذلك من شروط إلا أن يكون الوصف منسجما، بمعنى أنه لا يتخذ سوى وجهة نظر واحدة ومحددة. وعملا بالقاعدة العلمية هذه، عملت سيميائيات غريماس منذ المرحلة الأولى من نشأتها بتحديد وجهة نظرها الخاصة التي أطلت بها على موضوعات سيميائية متعددة ومتنوعة. وإن أضحى معلوما أن أي بحث تجريبي لا يمكن له أن يرقى إلى مصاف العلوم ما لم يعمل على بناء موضوعه وصياغة مفاهيمه الخاصة التي يسائل بها التجربة بدلا من أن يتلقى الظواهر الملحوظة بصفة عشوائية[40]، فإن السيميائيات حرصت في هذه المرحلة على تحديد موضوعها تحديدا علميا، يتمثل أساسا في البحث في محتوى الموضوعات السيميائية في مقابل تعبيرها، حتى تتميز أولا عن العلوم السابقة

---

(37) - A. Martinet, «Au sujet des fondements de la théorie linguistique de Louis Hjelmslev», p 19.

(38) - A.-J. Greimas et J. Courtés, Sémiotique. Dictionnaire raisonnée de la théorie du langage, p 275.

(39) - A. Martinet, Eléments de linguistique générale, p 31.

(40) - O. Ducrot et T. Todorov, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1972, p 155.

التي عنيت الموضوع ذاته - البحث عن المعنى؛ وهي المفرداتيات ثم الدلاليات، وثانيا عن مجموع العلوم الإنسانية التي لها هي الأخرى اهتمام بالمعنى، لأن المعنى أضحى كما يقول روبنز: «القاسم المشترك بين جميع العلوم الإنسانية بوصفه الصلة التي تربط اللغة «langage» بباقي التجارب الإنسانية»[41].

ولقد مكن التطور السريع لجهاز السيميائيات النظري والمنهجي من تنويع مجالات استكشافاتها وارتياد حقول جديدة لم تعهدها من قبل. وكان هذا التوسع، بادئ الأمر، قد اتجه نحو المجال الأدبي والشعري[42]، لكنه ما لبث أن امتد إلى الخطابات الأخرى غير الأدبية؛ سواء أكانت خطابات دينية، فلسفية، قانونية أو سياسية اجتماعية، أو تعلق الأمر بدراسة الأنساق الدلالية غير اللسانية. وكانت السيميائيات في توسيعها من رقعة اهتمامها لتشمل وقائع نصية وثقافية جد متنافرة وغير متجانسة، إنما تسعى في حقيقة الأمر إلى أن تتأسس كنظرية (أو كمنهجية) من شأنها أن تكشف عن أكبر تشكيلة ممكنة من أشكال الإنتاج الاجتماعي للدلالة[43].

إن الإقرار بانغلاق طبيعتنا «homo loquens» التسليم بأن كل وصف للمحتوى يفضي بالضرورة إلى صياغة لغة من شأنها أن تستكشف طرائق وجود البنيات الدلالية وتمظهرها، وهي لغة ترتكز على الخطاب والذي لا يمثل نقطة التحام الدال بالمدلول وحسب، بل تعد أيضا موقع الانزياحات الدلالية الناجمة عن متطلبات الحرية والافتراضات للتواصل المتناقضة، وعن تعارض قوى الثبات والتاريخ المتضاربة. فإذا ما نظرنا إلى الخطاب من هذا الجانب لألفيناه - على حد تعبير غريماس[44] - مجرد ترتيب غير متجانس «échafaudage

---

(41) - R. H. Robins, Linguistique générale. Une introduction, tr P. Guivarc'h, Paris, A. Colin, 1973, p 320.

(42) ينظر على سبيل المثال لا الحصر:
A. J. Greimas et all., Essais de sémiotique poétique, Paris, Larousse, 1972.

(43) - A.-J. Greimas et E. Landowski, Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Paris, Ed Hachette, 1979, p 05.

(44) - A.-J. Greimas, Sémantique structurale, p 42.

«hétéroclite»، وتغدو وحدات التواصل التي يكشف عنها تحليله غير ملائمة لتكون قاعدة لوصف الدلالة؛ وهذا يعني إمكانية صياغة وحدات دلالية مختلفة عن وحدات التواصل التي يتم تحديدها بواسطة أصناف مورفولوجية تركيبية.

من اللسان والكلام إلى النسق والنص

لقد بات التمييز بين اللسان والكلام، منذ أن تعرف يمسليف على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، إحدى القواعد التي استند إليها مشروعه السيميائياتي، وهو، من وجهة نظره، الأطروحة الرئيسة التي تُستنتج منها باقي أطروحات النظرية اللسانية التي حاول دو سوسير بناءها. لكن الظاهر أن يمسليف لم يكتف بدلالة مصطلح اللسان الذي استقر عليه واضعا كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بل اتخذ لنفسه دلالة أخرى بحيث يمكن لها أن تشمل جميع الأنساق الأخرى أو البنيات، مما جعل من العسير تمثل التعريفات التي وضعها لهذا الشأن، ناهيك عن ترجمتها من اللسان الدنمركي إلى اللسانين الفرنسي أو الإنجليزي.

إن المتفحص لإنجازات يمسليف اللسانية يدرك منذ الوهلة الأولى عنايته المبكرة بالمفاهيم الرئيسة التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، إذ تناول منذ 1943 تمييز دو سوسير بين اللسان والكلام فأعاد النظر في طبيعة الوظيفة القائمة بينهما. صحيح أن المسألة نظر فيه عدد من اللغويين من قبله، من مثل أنطوان مابيه[45] وألبير سشهاي الذي تناولها من منظور التمييز بين الآنية والدياكرونية[46]، وغيرهما، إلا أن وجهة نظر يمسليف فضلا عن كونها بنوية صرفة، تستند إلى تعريف رياضي منطقي للبنية بوصفها «نسيجا من التعلق والوظائف»[47]، راحت تنحو منحى سيميولوجياتيا، «إن واحدة من المهام

(45) - A. Meillet, Linguistique historique et linguistique générale II, Paris, Klincksieck, 1936, pp. 29-30.

(46) - A. Sechehaye, «Les trois linguistiques saussuriennes», Vox Romanica, nº 5, 1940, pp. 1-48.

(47) - L. Hjelmslev, «Langue et parole», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 2, 1942, repris dans Essais linguistiques, Paris, Minuit, 1971, p. 80.

الرئيسة للسانيات البنوية هي البحث في الوظائف وأنواعها، ويتجسد ذلك في جرد كل أنواع العلاقات الضرورية والكافية لوصف كل بنية سيميولوجية وصفا بسيطا ومفصلا»[48].

ولقد كان يمسليف من بين الذين تنبهوا إلى الدلالات المختلفة التي انطوى عليها مفهوم اللسان كما تداوله كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وانتهى إلى التمييز بين دلالات ثلاثة هي: اللسان «بوصفه أولا شكلا خالصا، بمعزل عن تحققه الاجتماعي وتمظهره المادي، وثانيا شكلا ماديا بوصفه تحققا اجتماعيا بمعزل عن ظروف تمظهره، وثالثا مجموعة من العادات المتبناة من قبل المجتمع، المتجسدة في تمظهرات بارزة»[49]. واتخذ لكل منها مصطلحا خاصا، فأشار إلى اللسان بوصفه شكلا خالصا بمصطلح المخطط «schéma» وهو عنده مصطلح مرادف لمصطلح النسق «système»، ودل على مفهوم اللسان بوصفه شكلا ماديا بمصطلح المعيار «norme»، وعلى مفهوم اللسان بوصفه مجموعة من العادات بمصطلح الاستعمال «usage»، واستقر لديه الرأي بأن مفهوم المخطط هو المفهوم الذي عادة ما يعنى به مفهوم اللسان في أدبيات اللسانيات. وعلى الرغم من أن التمييز بين المخطط والاستعمال يوحي لأول وهلة بالتمييز الذي اصطنعه دو سوسير وهو التمييز بين اللسان والكلام، فإن النصوص التي تمخضت عنها، فيما بعد، نظرية يمسليف اللسانية، سرعان ما استقرت على التمييز بين اللسان بوصفه مخططا والنص بوصفه استعمالا له.

ولعلنا قد نفهم مقولة «وفاء يمسليف لمشروع دو سوسير» من جهة عنايتهما بالنص، فلقد أقر يمسليف لنظريته اللسانية التي رام صياغتها ضرورة عنايتها بالنص، فقال: «إن الغاية من نظرية اللغة التعريف بالآلية التي تمكن من التعرف على النص باستعمال وصف دقيق لا يتسلل إليه التناقض [...]، وهي تستند إلى ما هو كائن من النصوص، بيد إن النص ليس غايته الوحيدة، بل إن النظرية هذه تعنى أيضا بالنسق، أي باللسان الذي تصاغ منه بنية النصوص ذات الطبيعة

(48) - L. Hjelmslev, «Langue et parole», p. 80.

(49) - L. Hjelmslev, «Langue et parole», p. 81.

الواحدة. ثم إن نظرية اللغة هذه لا تقتصر الغاية منها على وصف النصوص الممكنة في لسان ما وصياغتها، بل من شأنها أيضا، استنادا إلى المعارف الناشئة عن النظرية العامة، أن تقوم بالعمل ذاته مع نصوص أي لسان»[(50)]. ولئن كنا أشرنا إلى تعذر الفصل بين لسانيات يمسليف وسيميائياته فذلك لأن تحليل النص، في نظره، لا يمكن مزاولته ما لم تأخذ بالحسبان ما اصطلح على تسميته بالوظيفة السيميائية. «فلو أننا لم نأخذ الوظيفة السيميائية بالحسبان في تحليل النص فإنه سيتعذر علينا تحديد العلامات، ولن نتمكن البتة من وصف النص وصفا دقيقا [...] وسنفتقد حينها إلى معيار موضوعي يمكن استعماله كقاعدة للتحليل»[(51)].

إن إمكانية الوصول إلى إجابة شافية عن التساؤل عن مدى وفاء يمسليف للفكر السوسيري تطرح على الباحث وجوب قراءة فيلولوجية لنصوصهما قراءة متأنية تعيد ما لدو سوسير لدو سوسير وما يمسليف ليمسليف؛ ولئن كانت مؤلفات هذا الأخير لا تخلو من ثناء وإطراء على دو سوسير، فهي لا تخلو، مقابل ذلك، من انتقادات وتحفظات، على الرغم من الإشارات المتعددة التي تزخر بها صفحات كتابه «مقدمة لنظرية في اللغة» مثلا، فإن كثيرا من القضايا التي تمس عن قرب نظرية اللغة لا تستند صياغتها إلى محاضرات سوسير في اللسانيات العامة؛ وعلى الرغم كذلك من عدم اطلاع يمسليف على مجموع المخطوطات السوسيرية التي كثيرا ما أنارت جملة من القضايا التي باتت غامضة في كتاب المحاضرات، فكأنما وجد الفكر السوسيري طريقه بيسر إلى أحشاء نظرية يمسليف التي جلبت إليها كثيرا من المناصرين والمعجبين وأثارت من حولها اعتراضات ونفورا.

إن النظرية التي تسعى إلى بلوغ بنية اللغة استنادا إلى نظام من المقدمات الصورية يجب عليها - في عرف يمسليف - أن لا تمنح لتقلبات الكلام وتغيراته - دون أن تتغاضى عنها - دورا راجحا، بل عليها أن تبحث عن الثبات الذي لا

(50) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, p. 27.

(51) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, p. 67.

ينبع من الواقع غير اللساني، والذي يجعل من أي لسان لسانا، باق بعينه مهما تعددت تجلياته، الثبات الذي إذا ما أسقط على أي واقع محيط (فيزيائيا كان، أو فيزيولوجيا، أو نفسيا، أو منطقيا أو أنتولوجيا) انتظم هذا الأخير حول المركز المرجعي الذي تمثله اللغة «langage»، لا كتجميع غير منتظم بل ككل منظم تمثل بنيته اللسانية المبدأ السائد »[52].

إن مثل هذه الفقرات وغيرها من كتابه «مقدمة لنظرية في اللغة» التي لا تستند إلى الصياغة السوسيرية لتنبأ عن مدى تجانس فكر يمسليف والفكر السوسيري الذي يجعل من اللسان المبدأ المنظم لجميع مكونات اللغة والتي لا محالة تبقى دون مراعاة هذا المبدأ مجرد تجميع غير منتظم[53]، بينما تنبأ فقرات أخرى عما دعا الباحثين عموما إلى اعتبار يمسليف المكمل الحقيقي لدو سوسير، والوحيد الذي استطاع أن يجسد توجهه اللسانياتي والسيميائياتي ويصيغه صياغة متقدمة.

الوظيفة السيميائية: اللسان شكل وليست مادة، وهو تعبير ومحتوى

يعد تصور اللغة مدونة من المفردات تحيل إلى عالم خارجي من بين التصورات التي ورثتها اللسانيات الحديثة عن أرسطو وقواعد بور رويال[54]، ولا تزال تتداولها بعض نظرياتها[55] على الرغم من النقود الصريحة التي وجهها لها دو سوسير وكثير من اللغويين المحدثين من بعده مثل مارتني[56] ويمسليف[57] وغيرهما. وهو تصور يجعل من اللسان قائمة من الكلمات تقابل مجموعة من الأشياء ليس إلا، فيحجب حقيقة اللسان بوصفه نسقا من العلامات

---

(52) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, tr. par U. Canger et A. Wewer, Paris, éd. De Minuit, 1971, p 15.

(53) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 23-32.

(54) - T. de Mauro in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, n. 129, p 439.

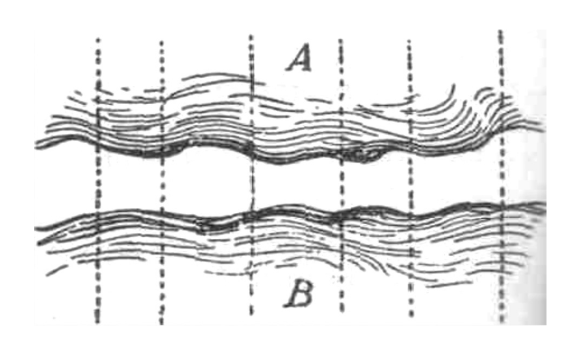
(55) من بين النظريات التي لم برهنت على عدم استيعابها للفكر السوسيري، النظرية الدلالية التي جاء بها كل من أودجن وريتشارد القائمة على المثلث الدلالي.

(56) - A. Martinet, Eléments de linguistique générale, Pari, A. Colin, 1980, pp 10-11.

(57) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, pp 49-53.

وطبيعة هذه الأخيرة الاعتباطية، لأن «العلامة اللسانية لا تربط بين شيء واسم بل بين مفهوم وصورية أكوستيكية»[58]، بين دال ومدلول، لا علاقة معللة بينهما كما قال بنفنست.

ولو نظرنا إلى سلسلة الأصوات التي يصدرها الإنسان بغض النظر عن دلالتها لوجدناها مادة «substance» لا يمكن تجزئتها، مثلما لو فحصنا أفكارنا دون التعبير عنها بسلسلة من الأصوات لوجدناها هي الأخرى مادة لا يمكن تمفصله؛ «فالدور الأساسي الذي تضطلع به الألسن البشرية إزاء الفكر لا يكمن في إنشاء وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، إنما لتكون بمثابة وسيط بين الفكر والصوت، بحيث يؤدي اتحادهما بالضرورة إلى تحديدات لوحدات في كليهما»[59]، ولا تنتج هذه التحديدات مادة ثالثة، وإنما تنتج شكلا[60]، هو الشكل اللساني.



فاللسان إذن شكل، وهو فضل عن ذلك وحدة بين تعبير ومحتوى، وقد أضحى هذا الفصل المزدوج، بين الشكل والمادة من جهة، وبين المحتوى (المدلول) والتعبير (الدال) - على حد تعبير يمسليف[61] - النواة التي تدور

(58) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Séchehaye, avec la collaboration de A. Reidlinger, édition critique de T. de Mauro, Paris, Payot et Rivages, 2005, p 98.

(59) - Idem, p 156.

(60) - Idem, p 157.

(61) - L. Hjelmslev, La stratification du langage in Essais linguistiques, Paris, éd. De Minuit, 1971, p 45.

حولها جل نقاشات فروع اللسانيات الحديثة عن مناهجها ومبادئها، ومهما كانت مواقف اللغويين إزاءها وإزاء القضايا التي تنجم عنها لا بد لكل نظرية لسانياتية أن تتحدد استنادا إلى هذين التمييزين.

إن القاسم المشترك الذي يجمع بين جميع الألسن، على الرغم من الاختلافات الصوتية، والمورفولوجية، والتركيبية القائمة بينها، هو المعنى، وهو يتخذ جراء هذه الاختلافات أشكالا متعددة بتعدد الألسن ذاتها، فإذا ما نظرنا في جملة «لا أدري» كما تصوغها بعض الألسن وكيف يختلف تركيبها من لسان لآخر:

jeg véd det ikke	(danois)
I do not know	(anglais)
je ne sais pas	(français)
en tiedÌ	(finnois)
naluvara	(esquimau)

لأدركنا أن المعنى ينتظم، ويتمفصل ويتكون بطريقة مختلفة من لسان لآخر، وأن كل لسان من هذه الألسن يجزأ بطريقته الخاصة كتلة الفكر التي تفتقد قبل ذلك إلى شكل، وأن المعنى يصبح في كل حالة مادة لشكل جديد وليس له أي وجود آخر غير أن يكون مادة لشكل ما. و«نلاحظ - يقول يمسليف[(62)] - في المحتوى اللساني، وفي سيرورته، شكلا خاصا، هو شكل المحتوى، مستقل عن المعنى الذي يرتبط به بصفة اعتباطية ويحوله إلى مادة للمحتوى».

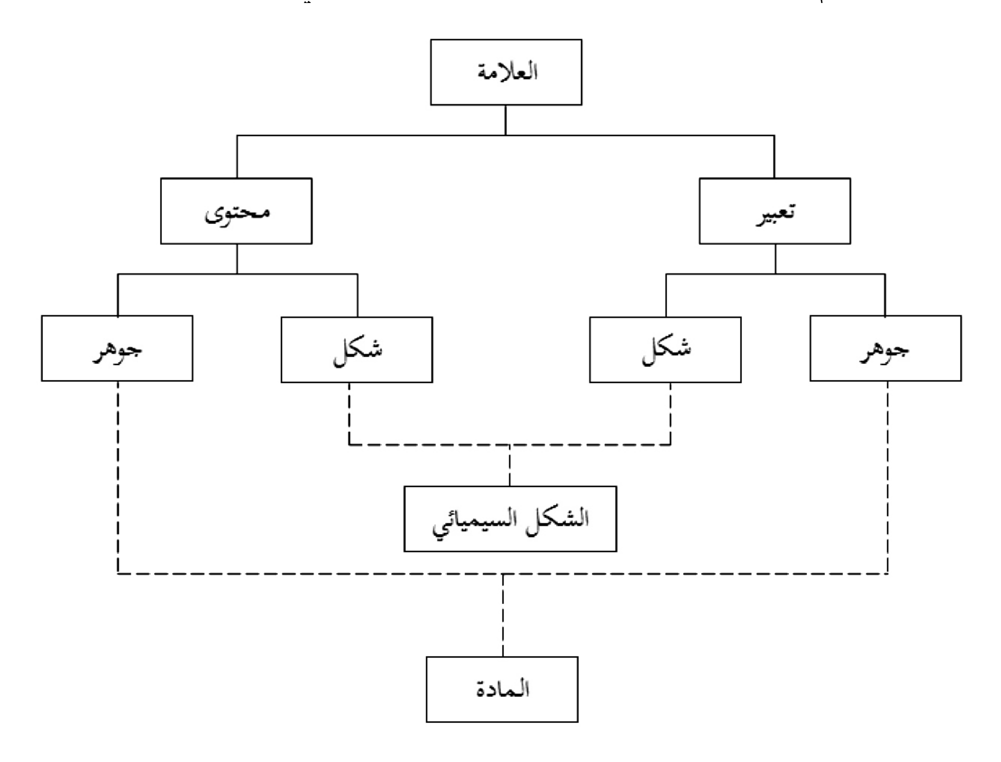
كما إن الألسن في حالة نسقيتها إنما تجزأ العالم المحيط بصفة خاصة بكل لسان، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لطيف الألوان، والعدد، والزمن، التي يوردها يمسليف[(63)] للدلالة على صحة أطروحته، وهي كلها تقود إلى الاستنتاج بأن الوظيفة السيميائية إنما تؤسس شكلا في أحد طرفي الوظيفة (الوظيف)

---

(62) L. Hjelmslev: Prolégomènes à une théorie du langage - Tr par U. Canger et A. Wewer - Ed Minuit - Paris - 1984 - pp 70-71.

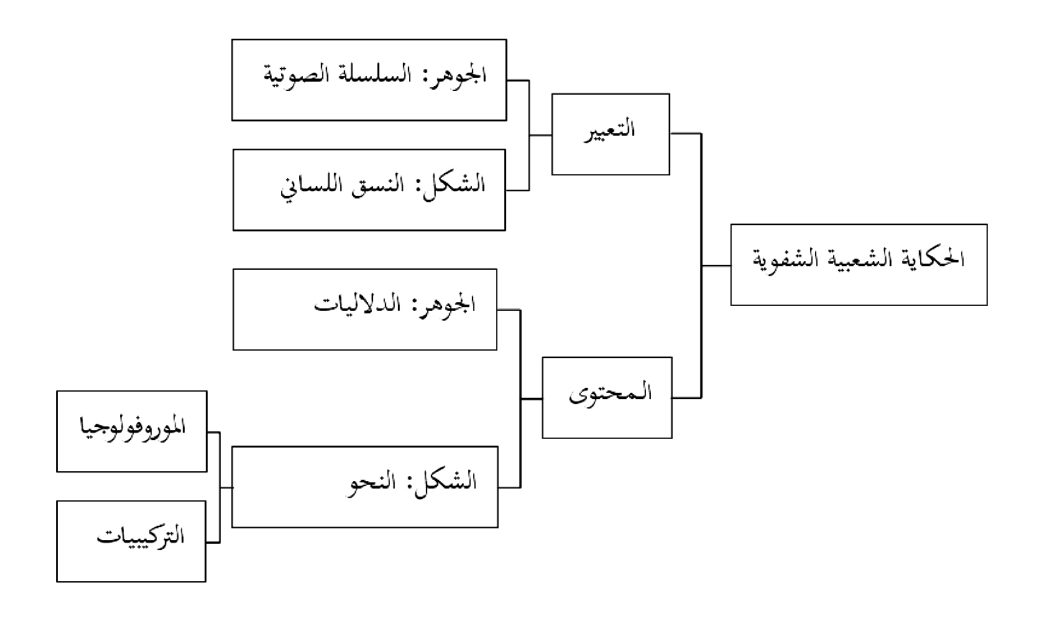
(63) L. Hjelmslev: Idem - p 73.

«fonctif»، ألا وهو المحتوى، والذي يعد اعتباطيا بالنسبة للمعنى، ولا يمكن تفسيره إلا بالوظيفة السيميائية التي يرتبط بها ارتباطا جليا. ولا تقتصر هذه الخاصية على أحد طرفي الوظيفة السيميائية فقط، بل هو الشأن كذلك بالنسبة للطرف الآخر، أي التعبير، فهذا الأخير يبدو في مظهريه الصوتي والفيزيولوجي متعدد التقسيم من لسان لآخر، لتعدد أعداد الفونيمات في هذه الألسن.



لقد تلقفت السيميائيات السردية عن يمسليف تصوره السيميائي هذا، واستندت إليه في محاولتها مقاربة المعنى وانتهت إلى أن الحكاية الشعبية مثلا - شأنها شأن أي موضوع سيميائي آخر - تتألف بوصفها تمظهرا نصيا (من نوع لساني) من تعبير (صيغ في لسان ما) ومحتوى (يتسم باستقلال نسبي، إذ يمكن التعبير عنه في أي لسان آخر، أو في تسلسل من الصور كما هو في الفيلم والأشرطة المصورة وغيرها)(64).

(64) - J. Courtés: Introduction à la sémiotique narrative et discursive - Préface de A.-J. Greimas - Ed Hachette - Paris - 1976 - p 39.



وانطلاقا من التعريف السوسيري للسان بوصفه شكلا خاصا منتظما بين مادتين هما: مادة المحتوى ومادة التعبير، حاول يمسليف استخلاص كل ما يمكن استخلاصه منه، ولم يهدئ له بال حتى تمكن - على حد تعبير إينو(65) - من ترتيب هذين التمييزين والربط بينهما، بعدما كانا منفصلين ومستقلين في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، ويبدو من يمسليف أن التمييز بين التعبير والمحتوى أكبر أهمية من التمييز بين الشكل والمادة، ولذلك وجب الفصل أولا بين التعبير والمحتوى والتساؤل عما إذا كان كليهما مخصوص بالتمييز الآخر؛ بين الشكل والجوهر، والذي يعد تمييزا أقل درجة تراتبيا، وإذا كان الأمر كذلك، فإن عناصر الأصناف الأربعة يمكن كتابتها في شكل زوجين على النحو التالي:

- مادة المحتوى وشكل المحتوى،
- شكل المحتوى وشكل التعبير،
- شكل التعبير ومادة التعبير.

---

(65) - A. Hénault, Histoire de la sémiotique, Paris, P. U. F., Que sais-je?, 2e éd., 1997, p 63.

ويلاحظ يمسليف أن علاقة مشابهة تتحقق بين مادة المحتوى وشكل المحتوى، وشكل التعبير ومادة التعبير، وإنه من الممكن استخلاص القوانين التي تسير العلاقات القائمة بينها، إذا ما أخذت اثنين مع اثنين، وهذه القوانين صالحة لأي زوج من هذه الأزواج، التي يسميها بالطبقات «strata» أو «strates»[66]، وأهم هذه العلاقات، من وجهة نظر إينو[67]، علاقة التمظهر؛ بحيث يتمظهر شكل التعبير من مادة التعبير، وشكل المحتوى يتمظهر من مادة المحتوى، وتنعقد أخيرا، علاقة تمظهر بين شكل المحتوى وشكل التعبير.

ولقد أوضح غريماس أن المعنى مفهوم لا يمكن تحديده ولا شيء يمكن إيراده بشأنه ما لم يتحقق أو يتمظهر في شكل دلالة متمفصلة، تتلخص في إنتاج الفوارق الخلافية التي تحدد طبيعة الموضوع السيميائي وإدراكها[68]. ويعني هذا أن المادة لا يمكن مقاربتها أو إدراكها إلا بمعجمة «lexicalisation» تقع بالضرورة داخل العالم الدال. ولذلك لا يجب الاعتقاد بأن مادة المحتوى حقيقة خارجة عن اللغة، نفسية مثلا أو فيزيائية، وإنما تعد تمظهرا لسانيا للمحتوى يقع في مستوى آخر من مستوى الشكل. وبهذا فإن المقابلة بين الشكل والمادة تنتمي إلى مجال تحليل المحتوى؛ فهي ليست المقابلة بين الدال (الشكل) والمدلول (المحتوى)، مثلما تصوره رجالات القرن التاسع عشر. والشكل دال مثله مثل المادة[69].

إن الذي انتهينا إليه من استقصاء يمسليف لفكر دو سوسير، واستلهام غريماس منهما لا يجب أن يحجب عنا أن ما أقمناه من تناقل لأفكارهم إنما كان عن طريق كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، الذي هو في حقيقة أمره منسوب إلى دو سوسير، ولو أبنا إلى مقولة دو سوسير الشهيرة «اللسان شكل وليس جوهرا» التي تلقفها يمسليف عنه، فإن الباحث قد يدرك أن الوفاء الذي يكنه يمسليف لصاحبه قد ينسيه أحيانا بعض الحقائق العلمية التاريخية والرواد

(66) - L. Hjelmslev, La stratification du langage in Essais linguistiques, p 48.

(67) - A. Hénault, Histoire de la sémiotique, p 65.

(68) - A.-J. Greimas et J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p 349.

(69) - A.-J. Greimas, Sémantique structurale, p 26.

الأوائل الذين كثيرا ما أفادوا اللسانيات حتى أضحت علما قائما بذاته، وأعني ههنا همبولد؛ ولئن اعتبر يمسليف سوسير «المنظر الوحيد الذي يمكن وصفه بالرائد غير المنازع»[70] فبوسع الباحث أن يجد - على حد تعبير مونان[71] - لدى همبولد بعض الملاحظات التي تشير إلى ثنائيات اللغة؛ إذ هي نتاج فردي واجتماعي، وهي شكل ومضمون، وهي آلة وموضوع، وهي نظام ثابت وسيرورة متطورة، وهي ظاهرة موضوعية وحقيقة ذاتية. ليس هذا وحسب، فقد تبين لهمبولد - حسب كسيرر[72] - ضرورة التمييز بين الشكل والمحتوى، وإن صاغ هذا التمييز بعبارات خاصة به وبعصره.

التناظر بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى

إن التوكيد على استقلال مستوى التعبير عن مستوى المحتوى لا يعني البتة انفصالهما انفصالا تاما، مما يتيح للباحث إمكانية استغلال الوسائل الإجرائية التي استعانت بها اللسانيات في استكشاف تنظيم التعبير وتحديد طبيعة الوحدات التي يتكون منها، فلقد تمكنت الأبحاث الفونولوجية التي قامت بها مدرسة براغ من التعرف على الوحدات التي يتمفصل بها التعبير، والتي عبر عنها ياكبسون بالخصائص المميزة أو الفيمات. و تكمن الخاصية الأساسية لهذه الفيمات في بروزها في شكل أصناف ثنائية من مثل «aigu/grave»، «compact/diffus» كما يقترحها ياكبسون[73].

ويمثل اكتشاف الفيمات أو الخصائص المميزة للفونيمات مرحلة حاسمة في تطور اللسانيات الحديثة، وقد كانت لمدرسة براغ اللسانية أثر طيب في الدراسات اللسانياتية والنقدية وعلى سيميائيات غريماس من بعد. ولعل أول ما عمدت إليه السيميائيات من أجل استثمار النتائج التي حققتها اللسانيات البنوية

---

(70) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, p 14.

(71) - G. Mounin, Histoire de la linguistique. Des origines au XX^{e} siècle, Paris, P. U. F., 1967, p 195.

(72) - E. Cassirer, The philosohpy of symbolic forms, Volume One: Language, tr. R. Manheim, Yale, Yale University Press, 1980, p. 161,

(73) - R. Jakobson, Essais de linguistique générale, Paris, Minuit, 1963, p. 138.

تبنيها لفرضية التوازي بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى، وقصد اقتفاء أثر يمسليف الذي كان أول من وضح هذا التوازي وحدد طبيعته، عمل غريماس على الاستفادة من هذه النظرية ليغدو للمحتوى شكل ومادة، لكل منهما أدواته الإجرائية التي تبين عنه وعناصره التي تكونه، مثلما هو شائع في اللسانيات البنوية بخصوص مستوى التعبير.

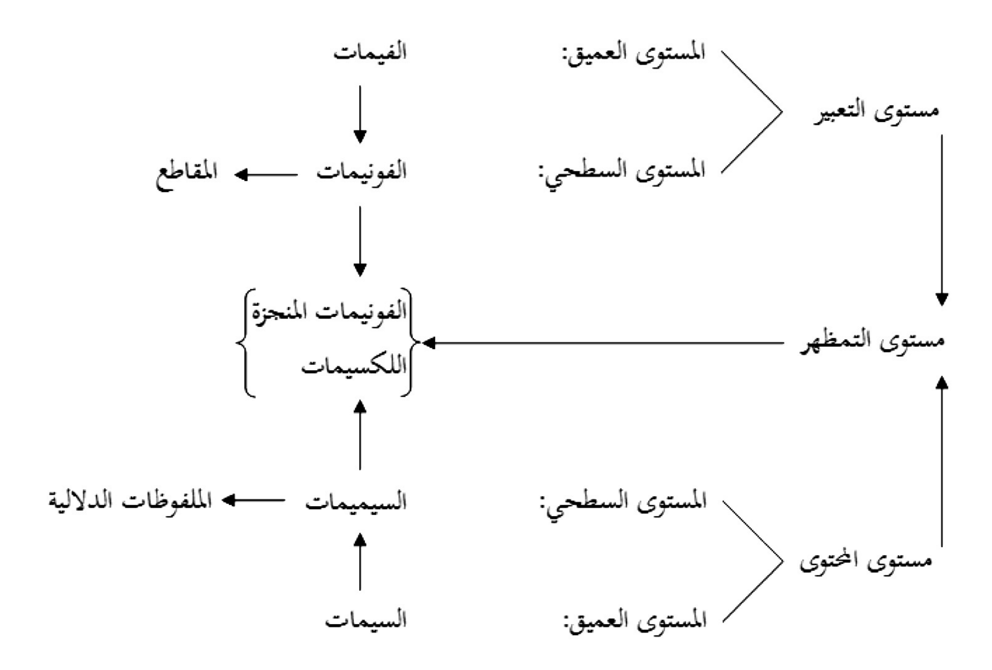
ويجيز هذا التوازي للباحث استثمار الطرائق التي تمت الاستعانة بها في استكشاف طرائق تنظيم التعبير. يقول غريماس: «يبدو أن أفضل منطلق لفهم البنية الدلالية يكمن، في الوقت الراهن، في التصور السوسيري لمستويي اللغة - مستوى التعبير ومستوى المحتوى - علما بأن وجود المعنى خاضع لوجود التعبير. ويمكن هذا التصور من: أ) افتراض وجود توازي بين التعبير والمحتوى، مما يساعد على تقديم فكرة تقريبية عن أسلوب وجود عالم الدلالة وتمفصله. ب) اعتبار مستوى التعبير مكونا من فوارق خلافية بوصفها شرطا لوجود المعنى ممفصلا وبالتالي تكون وسيلة تعين على التأكد من مدى ملائمة النماذج المستعملة بغية وصف مستوى المحتوى (وذلك عملا بالقاعدة المستنبطة من مبدأ التوازي والتي تفترض ارتباط كل تغير في المحتوى بتغير في التعبير)»[(74)].

وتبيح فرضية التناظر بين المستويين إذن بتصور البنية الدلالية على أنها تمفصل للعالم الدلالي إلى وحدات دلالية صغرى (أو السيمات «sèmes»)، تقابلها الخصائص المميزة لمستوى التعبير (أو الفيمات)، وهذه الوحدات الدلالية الصغرى تتألف، بنفس الطريقة التي تتألف بها الخصائص المميزة، في أصناف سيمية ثنائية (علما أن الثنائية مجرد قاعدة بنائية وليست حتما مبدأ يحدد طريقة وجودها). و من ثم يصبح من اليسير علينا أن ندرك كيف يستطيع عدد محدود من الأصناف السيمية من توليد عدد هائل من الوحدات الدلالية الكبرى «sémèmes»[(75)]. و يقوم هذا الاستغلال على فرضية التوازي بين المستويين

(74) - A. J. Greimas, Sémantique structurale, p. 138.

(75) - A.-J. Greimas: Du sens - Ed seuil - paris - 1970 - p 40.

وإمكانية نقل معارفنا عن مستوى التعبير وتطبيقها على مستوى المحتوى بالتعرف على خصائص تمييزية في مقابل الفيمات وتصنيفها هي الأخرى ضمن أصناف ثنائية خلافية، وهي التي تدعى بالسيمات.



يرى غريماس أنه يمكن اعتبار نظرية اللغة التي أرسى قواعدها يمسليف أولى السيميائيات انسجاما واكتمالا، وكانت عاملا حاسما في تكوين السيميائيات بفرنسا. لكن الغلوسيماتيكية وإن عملت على تطوير كثير من المفاهيم السوسيرية وزعمت أنها النظرية الوحيدة الأكثر وفاء لمؤسس اللسانيات العامة دو سوسير، فإنها أظهرت مقابل ذلك تناقضا صارخا مع إحدى أطروحات الدرس السوسيري الأساسية التي تجعل من اللسان معطى تاريخي واجتماعي لا يجب ولا يمكن للبحث اللساني أن يتخلى عنهما. وهو ما سعت إلى تداركه سيميائيات غريماس على وجه التحديد من خلال التوكيد على أن اللغة، بوصفها موضوعا سيميائيا صوريا قابل للتحليل، يعد قبل كل شيء موضوعا اجتماعيا، فهي لا وجود لها - على حد تعبير دو سوسير - إلا بمقتضى عقد بين أفراد

المجموعة البشرية. كما لم يسلم مادة المحتوى من انتقادات لخصها ليونس[76] بقوله: «ليس من اليسير أولا إيجاد تفسير واضح لمفهوم المادة المفهومية «substance conceptuelle».

وعلى الرغم من تحفظات مارتني، فإن يمسليف استطاع على حد تعبير كورتاز[77]، بتوكيده على استقلال مستويي اللغة عن بعضهما البعض، أن يحدث ثورة حقيقية في السيميائيات كما برهنت عليه كثير من التحليلات السيميائياتية الشعرية، والسيميائيات البلاستيكية التي باشرها كل من فلوش وتورلمان والتي تعتمد أساسا على مفهوم الشبه رمزي. كما أسهم في تخليص السيميائيات من قبضة العلامة اللسانية وتأسيسها إبستيمولوجيا كمادة علمية مستقلة فاتحا آفاقا جديدة لمجموعة من الدلاليين كأبريسيان، غريماس، كاتز، فودور، بواتييه وأولمان والذين مهما اختلف منطلقهم النظري، فإنهم مجمعون على ضرورة التخلي عن مستوى العلامة للاهتمام بفحص عناصرها، لاسيما على مستوى المحتوى، وكان ذلك بمثابة الخطوة الأولى لتأسيس علم دلالي حقيقي، وهو الهدف الذي تسعى السيميائيات إلى تحقيقه.

ولا يزال الكثير يشيد بإسهامات الغلوسيماتيكية الفعالة في تطوير المشروع السيميائي من خلال وضع كثير من المصطلحات التي أضحت عملة متداولة لدى جماعة السيميائياتيين المحدثين. فقد أضحى مصطلح «schéma» - مثلا - رافدا هاما من روافد التصور السيميائي للغة، كونه اصْطُنع للدلالة بصفة عامة على تمثيل لموضوع سيميائي رد إلى خصائصه الأساسية. وهو أحد طرفي المقابلة (طرفها الآخر هو الاستعمال «usage») التي استعاض بها يمسليف عن المقابلة التي أقامها دو سوسير بين اللسان والكلام. وفي هذا السياق، ترى كريستيفا أن المشروع السيميائياتي اتخذ بفضل، يمسليف وحلقة كوبنهاج، طابع أكثر نظرية، وتشيد له بتجاوزه خصوصيات المادة اللغوية والنسق اللساني الخاص، بتقديمه

---

(76) - J. Lyons, Eléments de sémantique, tr J. Durand, Paris, Larousse, 1978, p 210.

(77) - J. Courtés, Analyse sémiotique du discours. De l’énoncé à l’énonciation, Paris, Hachette, 1991, p 27.

نظرية لسانياتية أكثر تجريدا وتجاوزا للمادة اللغوية مما هي عليه النظرية السوسيرية[78].

في التلقي العربي لفكر دو سوسير

يعد فردناند دو سوسير من المفكرين الذين عادة ما تحتفي بهم اللسانيات العربية احتفاء كبيرا، فلا تكاد تجد كتابا عربيا في اللسانيات دون أن تستوقفك فيه عبارات الإعجاب من صنيعه فيما أحدثه كتابه في اللسانيات العامة من ثورة إبستيمولوجية غيرت مسارات الفكر اللسانياتي، وأحلت مكان الممارسات اللسانياتية السابقة التي كثيرا ما ركنت إلى المقارنة تصورا أصيلا عن طبيعة الألسن الحقيقية. لكن المفارقة في تلقي اللسانيات العربية أن دو سوسير ظل ذلك المعلوم الذي لا يعلم عنه، في دائرة الثقافة اللسانياتية العربية، سوى أنه المؤسس الفعلي للسانيات الحديثة وأن كتابه في اللسانيات العامة يعد بحق الكتاب الذي نهج للعلم الحديث الطريقة المثلى في مدارسة الألسن.

صحيح أن كثيرا من المؤلفات العربية اجتهدت في التعريف بأهم معالم فكر دو سوسير كما شاعت من خلال الكتاب الذي نشره من بعد موته شارل بالي وألبير شيسهاي سنة 1916، على إثر ترجمته إلى العربية خمس مرات، لكنها لم تكترث كثيرا إلى حقيقة أن دو سوسير لم يؤلف الكتاب، وأن شارل بالي وألبير شيسهاي ما حضرا يوما محاضرة من محاضراته التي ألقاها خلال السنوات الجامعية الثلاث، وأنهما أخلّا، في رأي كثير من الباحثين المعاصرين، بفكر دو سوسير اللسانياتي إخلالا سافرا، وما قدروه حق قدره.

لا، لا يعلم كثير من الباحثين العرب حقيقة أن ما نقل عن دو سوسير في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ليس كله لدو سوسير، فلا المصادر التي استقيا منها مادة الكتاب تمثل فكره اللسانياتي أحسن تمثيل، ولا الترتيب الذي رتبت على منواله أبواب الكتاب وفصوله ترتيبٌ يتفق مع تطور فكر دو سوسير اللسانياتي من بداية المحاضرة الأولى الفعلية إلى آخر محاضرة. فبون

(78) - J. Kristéva : Sémiologie in Encyclopaedia Universalis - France - 2000.

شاسع بين المحاضرات الفعلية التي ألقاها دو سوسير وكتاب المحاضرات الذي هو في حقيقة الأمر من تأليف شارل بالي وألبير سشهاي. ولو أنت تتبعت الكتب التي ألفت في اللسانيات العامة الحديثة، منذ أن أخرج علي عبد الواحد وافي للعرب أول كتاب في اللسانيات الغربية الحديثة سنة 1941، وجلت في ثناياها ترصد ما قيل عن دو سوسير وكتابه لوجدت القوم يجمعون على قلة تفصيلهم في أهم القضايا التي باتت تؤرق الفكر اللسانياتي الحديث، تلك التي ترتبط بتكوين كتابه المزعوم، وما أنتجه هذا التوجه النقدي الجديد من تصورات، لاسيما بعد العثور على كتابات دو سوسير الأصلية التي أسهمت في استكشاف فكره اللسانياتي.

إننا نكاد نجهل حقيقة لسانيات دو سوسير وطبيعتها، فنحن لا نعلم منها سوى ما رُوج لها انطلاقا من كتاب محاضرات في اللسانيات العامة على مدى مراحل تلقيها من قبل المجموعة العلمية. ولم يكن هذا الترويج في حقيقة الأمر ترويجا لأفكار دو سوسير اللسانياتية الأصيلة، بل هي في واقع الأمر من صنيع تلميذيه شارل بالي وألبير سشهاي. لقد علمت أدبيات اللسانيات العربية منذ حداثتها أن كتاب محاضرات في اللسانيات العامة إنما هي طائفة من بحوثه نشرت بعد وفاته، ولا تزال الدراسات الحديثة تنقل الخبر دون أن يكون لهذا الإقرار النتائج العلمية المنهجية المرجوة. لكن السؤال الذي بات يتردد علينا بإلحاح، منذ أن بدأنا نبحث في تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائياتي من قبل الباحثين العرب، إنما يتعلق بطبيعة هذا التلقي، فلماذا تأخر انتقال اسم دو سوسير إلى الثقافة اللسانياتية العربية إلى بداية أربعينيات القرن الماضي، أي قرابة العقدين من الزمن، وظل هذا الانتقال يتمثل في مجرد ذكر عابر لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة طيلة عقود متوالية أخرى حتى برزت فكرة نقله إلى اللسان العربي في أثناء الثمانينيات.

التلقي اللسانياتي

انتقل اسم فردناند دو سوسير إلى الثقافة اللسانياتية العربية أول الأمر سنة 1941 حينما وضع علي عبد الواحد وافي أول كتاب عربي متكامل في

اللسانيات بالمعنى الحديث، المتداول اليوم. ولو أنت نظرت في الكتاب بان لك أن ذكر دو سوسير لا يعدو أن يكون إلا عرضا، يسوقه عبد الواحد وافي وهو يعدد لأهم شعب علم اللغة، حين يقول: «وأما 'علم الاجتماع اللغوي' فقد تضافر على النهوض به 'أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية' التي أنشأها العلامة دوركايم في أوائل القرن الحاضر وطائفة من أئمة علماء اللغة انضمت إلى هذه المدرسة واعتنقت مذهبها، ومن أشهرهم الأساتذة دو سوسير ومايي وفندربس. وترمي هذه البحوث كما تقدم إلى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبنيته في مختلف الظواهر اللغوية»(79). ثم يشير إلى كتاب دو سوسير في اللسانيات العامة بقوله: «جمع تلامذة العلامة دو سوسير بعد وفاته طائفة من بحوثه القيمة في كتاب سموه 'دروس في علم اللغة'»(80). ولئن كانت أدبيات اللسانيات العربية علمت منذ حداثتها أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إنما هو طائفة من بحوثه نشرت بعد وفاته، فالدراسات الحديثة لا تزال تنقل الخبر هي الأخرى، دون أن يكون لهذا الإقرار النتائج العلمية المنهجية المرجوة.

لقد كانت عناية الباحث العربي منذ انفتاحه على اللسانيات الغربية عناية جادة، ولئن ظل كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب لدو سوسير قليل الشأن إبان هذه المرحلة الأولى من تلقيه، فإن المرحلة التي تلتها، وهي مرحلة الثمانينيات التي تمخضت عنها ترجمته إلى اللسان العربي خمس مرات، وسمت الفكر اللسانياتي العربي الحديث بسمات ليس من اليسير إزالتها، على الرغم من الجهود التي ما انفكت الأقلام الحديثة توليها لتقليص الهوة المصطلحاتية التي باتت تبدد الأمل في تأسيس لسانيات عربية لا يشوبها الخلل والاضطراب.

إننا لا نتحرج في التمييز بين ثلاثة أنواع من اللسانيات السائدة في أدبيات الفكر العربي الحديث (في الوطن العربي)، أما النوع الأول منها فهو قطاع

(79) عبد الواحد وافي، علم اللغة، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، 2004، صص. 65-66.

(80) المرجع نفسه، ص. 67.

اللسانيات العربية، وهو مجال عادة ما تحركه الأقلام العربية ولئن وجدت في بعض الجامعات العربية بعض الأقلام من ألفت فيها بألسن أجنية (عادة فرنسية أو إنجليزية) فهي قليلة جدا مقارنة بما كتب عن اللسانيات العربية بلسان عربي. وكان هذا النوع السائد الوحيد قبل مطلع الأربعينيات من القرن الماضي. أما النوع الثاني فهو قطاع اللسانيات الغربية المعبر عنه باللسان العربي، وهو مجال لساناتي سرعان ما بدأ يزاحم اللسانيات العربية منذ ترجمة المؤلفات الرائدة في اللسانيات الغربية، بدء بترجمة كتاب المحاضرات المنسوب لدو سوسير. أما النوع الثالث من اللسانيات فهو قطاع اللسانيات الغربية المعبر عنه بالألسن الغربية (عادة الفرنسية والإنجليزية).

لقد أنشأت هذه القطاعات الثلاث من اللسانيات فئات ثلاث من الباحثين العرب أقل ما يقال في شأنهم قلة التواصل بينها، ولئن سعت بعض البحوث إلى الاستفادة بما جد في اللسانيات الغربية دون أن تهتك حرمة اللسان العربي فتقدم فكرا أصيلا لا يجد حرجا في الاستفادة من الفكر اللسانياتي العالمي ولا يتوانى عن الاستزادة من الفكر اللسانياتي العربي، ولقد ضرب لنا المفكر طه عبد الرحمن أحسن مثالا في كتابه «في أصول الحوار وتجديد علم الكلام»، فهو يعد في نظرنا واحدة من المحاولات الجادة، المثمرة، التي رامت تجاوز الحدود التي طوق بها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب لدو سوسير اللسانيات الغربية لسنوات طوال، ولو أنه اختار له عنوانا «في أصول الحوار وتجديد لسانيات الكلام»، لكان، في نظرنا، وصفا دقيقا له، كيف لا وهو القائل في خاتمته: «لقد أنشأنا نموذجا نظريا للحوارية يبدو صالحا لتصنيف الخطاب ووصفه»[81].

ولقد كنا طفقنا منذ أيامنا الأولى من اهتمامنا بالتداوليات نسعى إلى ترجمته إلى اللسان الفرنسي لما رأينا فيه من الجدة في الطرح وعمق في تأمل الظاهرة اللغوية، لكن أمورا أخرى حالت دون ذلك وما زلنا في ذلك على قناعة

(81) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2000، ص. 159.

بضرورة نقل مثل هذه الأعمال الـمُبتكِرة إلى الألسن الأجنبية. ولنا أن نضم إلى هذه الطائفة محاولة الباحث عبد السلام المسدي في كتابه «التفكير اللساني في الحضارة العربية» فقد أحاط بالمنجز العربي إحاطة بليغة وأماط اللثام عن جملة من التصورات كنا نحسبها إلى زمن غير بعيد من منجزات الفكر الغربي دون سواه، كيف لا وهو القائل: «إن تجليات اللغة تعين على مكاشفة ناموس الكلام، وبالتالي فإن ارتسام حقائق اللغة في فكر الإنسان تؤدي إلى انتقاش رسوم الكلام من حيث هو المثال الكلي الذي ميز الإنسان عن سائر الموجودات»[82].

إن قلة التواصل بين القطاعات الثلاث التي ألمحنا إليها منذ قليل ليست السمة البارزة الوحيدة للبحوث اللسانياتية العربية، بل إن قلة تطوير بعضها بعض هي الأخرى سمة بارزة فيها، فلا تكاد تجد من هذه البحوث من يروم النظر في هذه المحاولات الجادة، المبتكرة، من أجل الاستخراج منها ما يعين على المضي قدما باللسانيات العربية نحو المزيد. وكان لهذا الموقف نتائج وخيمة، فقد سار الباحثون العرب نحو التجديد، لكنهم تجديدهم غالبا ما انساق نحو تضخيم الجهاز المصطلحاتي اللسانياتي العربي ليس إلا.

ولئن نظرنا في بعض المصطلحات التي نقلوها عن البحوث اللسانياتية الغربية من مثل مصطلحات «langage»، و«langue»، و«parole»، وهي عماد الأبحاث اللسانية وعلوم اللغة قاطبة، وتتبعتها، في بعض كتب اللسانيات العربية ما ظفرت بشأن هذه منها بشيء من التوحيد ولا وجدت بين مؤلفيها شيئا من التوافق، وقد لا تجد، في بعض الأحيان، ما يدل على مفهوم بعينه. يقول محمود فهمي حجازي: «لقد ميز اللغوي السويسري دي سوسير بين ثلاثة مصطلحات أساسية في نظرية اللغة، وهي مصطلحات «langue» ويعني اللغة الواحدة مثل اللغة العربية أو اللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية إلى آخره، و«parole» وتعني الكلام أو الاستخدام الفردي للغة الواحدة عند الفرد،

(82) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2000، ص. 159.

و«langage» القدرة اللغوية عند الإنسان بصفة عامة. ولهذا التمييز أهمية في البحث اللغوي المعاصر، فالبحث اللغوي يتجاوز الاستخدام الفردي للغة إلى ظاهرة اللغة في أبعادها العامة المشتركة عند أفراد الجماعة اللغوية، فالإنسان الواحد مهما أوتي من المهارة اللغوية والقدرة اللسانية والتنويع في أسلوب الكتابة لا يستخدم كل المعجم الذي تعرفه لغته ولا يفيد من كل إمكانات البنية اللغوية المتاحة له عندما يتحدث أو يكتب اللغة»[83].

فانظر كيف اكتفى الباحث بترجمة المفهوم «faculté du langage» أي القدرة اللغوية دون المصطلح. وتوضيحا للفروق القائمة بين المفاهيم الثلاث، يقول منذر عياشي: «وقد قسمت اللسانيات الحديثة اللسان إلى قسمين: الكلام واللغة. وسنعرض لهما عرضا سريعا وموجزا. تعتبر اللسانيات الحديثة أن كل البشر يملكون استعدادا خاصا للتواصل فيما بينهم من جهة، ولنقل أفكارهم والتعبير عن مشاعرهم ورغباتهم من جهة أخرى. ويبدو هذا الاستعداد مستوعبا في اللسان. وهذا ما جعل سوسير ينظر إلى اللسان على أنه مكون من بعدين: فردي واجتماعي. وقد قال في ذلك: إن للكلام وجها فرديا ووجها اجتماعيا ولا يمكن وجود أحدهما دون الآخر»[84]. وإن أنت عدت إلى كتاب فرديناند دو سوسير، لوجدته يقول:

«Le langage a un côté individuel et un côté social, et l'on ne peut concevoir l'un sans l'autre»[85]

مما يعني أن الباحث العربي عبر عن مفهوم «langage» بمصطلح «الكلام»، فكيف يمكن فهم قوله في أول الفقرة أن اللسانيات الحديثة تقسم اللسان إلى قسمين: الكلام واللغة؟

---

(83) عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، تونس، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1986، ص. 246.

(84) منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، سورية، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، 2002، ص ص. 19-20.

(85) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique établie par T. de Mauro, Paris, Payot & Rivages, 1967, p. 24.

ومن الباحثين من لا يميز بين المصطلحات، فيجعل الواحد منها مرادفا للآخر، تقول الباحثة شفيقة العلوي: «التفريق بين اللغة والكلام (Langue/ parole): إن اللغة تسبق الكلام - حسب دو سوسير - ما دامت نظاما يتسبب في إيجاد الخطابات الممكن وضعها. ولقد عرف دو سوسير (اللسان) اللغة فقال: اللسان هو رصيد يستودع في الأشخاص التي ينتمون إلى مجتمع واحد. بفضل مباشرتهم للكلام، وهو نظام نحوي، يوجد وجودا تقديريا في كل دماغ... و بفصلنا اللسان عن الكلام، نفصل في الوقت نفسه، ما هو اجتماعي عما هو فردي، ما هو جوهري عما هو إضافي أو عرضي»(86)، وتردف الباحثة قائلة: «إن اللغة إذا عمل جماعي موجود في ذهن المتكلمين بكيفية اعتباطية لا شعورية. إنها مجموع الأصوات والدلالات المختزنة في ذاكرتهم وأما الكلام، فهو الممارسة الفردية الذاتية لهذه اللغة في ظروف مادية، أي هو طريقة تجسيد المتكلمين لهذا النظام اللغوي وبناء على هذا التعريف، فاللسان يعد موضوع اللسانيات لا الكلام الفردي ذي الطابع الفردي»(87)، فلا تعثر فيما قالت، وفيما نقلت عن دو سوسير، ما يشير إلى تعريفه لمصطلح «langage» وتمييز مفهومه عن مفهومي الآخرين.

وإن أنت نظرت في كتاب «اللغة»، وهو مجموعة من المقالات المترجمة من قبل محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي لـمجموعة من الباحثين الغربيين، لوجدت الباحثين يعبران عن مفهومي «langage» و«langue» بـمصطلح واحد هو «اللغة». ينقل الباحثين عن مونان قوله: «هناك مفهوم آخر يمكن أن يصلح لتحديد وتعريف اللغات المتحدثة من طرف الإنسان مقابل كل الأشكال الأخرى من التواصل الإنساني أو الحيواني، وقد استغرق هذا المفهوم وقتا طويلا لكي يفرض نفسه، لأن البعض رأى فيه تكرارا وتحصيل حاصل، في حين رأى فيه آخرون سمة غير مميزة، يتعلق الأمر بالتمفصل المزدوج»(88)، فتفهم أنهما

---

(86) شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، بيروت، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2004، صص. 14-15.

(87) المرجع نفسه، ص. 15.

(88) مجموعة من الكتاب، اللغة، إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توقبال للنشر، الطبعة الرابعة، 2005، ص. 8.

يعبران عن مفهوم «langues» بـمصطلح «اللغات»، ثم في الصفحات التي تلي، تلفيهما يقولان: «والخلاصة، التي يبدو بدون شك أنها ما تزال صالحة اليوم، هي التي تفتح التأمل السوسيري، نسبة إلى دو سوسير: إن اللغة إذا ما نظرنا إليها في كل جوانبها، كائن متعدد الألوان ومختلط العناصر: فهي على مفترق الطرق بين عدة ميادين، الفيزيائي والفسيولوجي والنفسي، وهي تنتمي إلى المجال الفردي وإلى المجال الاجتماعي، وهي لا تقبل أن تصنف ضمن أية مقولة من الوقائع الإنسانية، لأننا لا نعرف كيف نستخرج وحدتها»(89)، فتدرك أن الباحثين عبرا عن مفهومي «langage» و«langue»، بمصطلح واحد، هو مصطلح «اللغة».

وإن قل من الباحثين العرب من ميز بين المفاهيم الثلاث تمييزا صريحا فقد وجدنا من وفق إلى هذا المسعى كما هو شأن الباحث أحمد محمد قدور حين يقول: «فرق دو سوسير بين ثلاثة مصطلحات أساسية في الدرس اللساني، هي اللغة «langage» وهي ظاهرة إنسانية لها أشكال كثيرة تنتج من الملكة الإنسانية. واللسان «langue» وهو جزء متعين متحقق من اللغة بمعناها الإنساني الواسع. وهو اجتماعي وعرفي ومكتسب، ويشكل نظاما متعارفا عليه داخل جماعة إنسانية محددة. مثال ذلك (اللسان العربي) و(اللسان الفرنسي)، أي ما نطلق عليه في العربية عادة كلمة (اللغة). والكلام «parole» وهو شيء فردي ينتمي إلى اللسان. ولأن اللسانيات عند دو سوسير منظومة اجتماعية فإنه دعا إلى دراسة اللسان لأنه اجتماعي وعرفي»(90).

ونحن إذ نقر هذه الترجمة ونطمئن لها فإن عملنا بها يستند إلى ضرورة منهجية ودلالة معجمية. أما الضرورة المنهجية فهي تقتضي التمييز بين المصطلحات الثلاثة تمييزا صريحا، لا من حيث التعريف وحسب، بل من حيث الاستعمال أيضا، وأما من حيث الدلالة المعجمية، فإن أنت جلت في النص القرآني مثلا، لوجدت دلالة لفظ «اللسان» تحتمل تارة مدلول الكلام، الذي هو

---

(89) المرجع نفسه، ص. 13.

(90) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، 2008، ص. 23.

النطق باللسان، أي سلسلة الأصوات التي تتوالى زمنيا، وتمكن المقطوعات التي تتألف منها من تبليغ المعاني التي يقصدها المتكلم، وتحتمل تارة أخرى مدلول الجارحة، وهي العضو الذي بين الفكين والذي يسهم في إنتاج الأصوات كغيره من باقي الأعضاء المؤلفة لجهاز النطق لدى البشر. كما تحتمل اللفظة في بعض أسيقة النص القرآني مدلول اللفظ الفرنسي «la langue».

تواردت لفظة «اللسان» في النص القرآني أربعة عشر مرة بصيغة المفرد، وست مرات بصيغة الجمع، اختلفت مدلولاتها باختلاف الأسيقة التي وردت فيها؛ فدلت في بعض الآيات على جارحة الكلام، وفي آيات أُخرى جاءت دّالة على الكلام «parole»، ودّل ما تبقى من التواردات الأخرى على مفهوم آخر سنبينه في حينه لأنه، من بين الدلالات الثلاث، هي المقصودة بالدراسة في هذا المقام، ونعني بها المفهوم الذي يداوله اللفظ الفرنسي «la langue». إن لفظ «اللسان» يدل إذن في بعض تواراداته في النص القرآني على جارحة الكلام تارة، وعلى الكلام ذاته تارة أخرى، وهي إذ لا تمثل جميع تواراداته، حُق لنا أن نتحرى عن باقي مدلولاته الأخرى ونستكشف مكوناتها المفهومية.

ولتحقيق ذلك يلجأ الباحثون المحدثون إلى ما يُصطلح عليه بالتحليل السيمي الذي غايته إبراز المكونات الدنيا للفظ المراد تحليله، فيُنظر في مختلف الأسيقة التي ورد فيها اللفظ حتى يستخلص منها بعض خصائصه أو مميزاته، وكذلك سنفعل. أولاها أن اللسان واقعة اجتماعية: يتصل مفهوم «اللسان» في المجموعة الثالثة من تواراداته في النص القرآني، بوصفه واقعة اجتماعية يدل عليها لفظ ارتباطه بمدلول «القوم»، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4]، قال أبو حفص الدمشقي: «يجوز أن يكون حالا، أي: إلا متكلما بلغة قومه [...] وأما بالنسبة إلى عامة الخلق فهو أنه تعالى ما بعث رسولا إلى قوم إلا بلسانهم ليسهّل عليهم فهم تلك الشريعة فهذا وجه النظم [...] ومعنى الآية: وما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه»(91)، والقوم «الجماعة

(91) أبو حفص الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تح. عادل أحمد عبد الموجود وعلي

من الرجال والنساء جميعا، وقيل هو للرجال خاصة دون النساء [...] وربما دخل فيه النساء على سبيل التَبَع، لأن قوم كل نبي رجال ونساء»[92]، فهذا بيان على أن مفهوم «اللسان» يدل على واقعة مشتركة بين جميع أفراد الجماعة، يتحقق بفضلها الفهم والبيان، وهما غايتا التواصل والتبليغ. ثانيها: الألسن مختلفة: يرتبط مفهوم «اللسان» في هذه المجموعة الثالثة من تواراداته في النص القرآني، فضلا عن كونه واقعة اجتماعية، بالتعدد والاختلاف، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الرُّوم: 22]. قال الطبري: «اختلاف منطق ألسنتكم ولغاتها»[93]. ولقد اشتملت هذه العبارة على المعاني الآتية، معنى النطق (منطق) بالأصوات الدالة، معنى الجارحة في (ألسنة)، ومعنى اللغات، أي الأنساق اللسانية.

كثيرا ما ارتبط اسم فردناند دو سوسير في الدراسات اللسانياتية الغربية بالدراسات اللسانياتية النسقية، واكتفى جل اللغويين العرب باقتفاء أثرها، ولا نخال أنفسنا نجانب الصواب لو قلنا أن هذا التصور لا يزال واقع جل الجامعات العربية ومراكز البحث والتكوين العاليين، ولو اطلعنا في عجالة على أهم المفاهيم التي أضحت تتداولها الأبحاث البنوية مطلع الثلاثينيات وقارناها بالنصوص السوسيرية الحقيقية، لبان لنا مدى اتساع المسافة المفهومية والاصطلاحية التي تفصل بين فكر دو سوسير الأصيل ولسانيات القرن العشرين. ولا نزعم أننا نضيف جديدا إلى البحث اللسانياتي بالإشارة إلى هذه المسألة، إنما حاز في نفسنا أن تتجاهل محتويات تدريس اللسانيات وعلوم اللغة الأخرى المتصلة اتصالا وثيقا بالجهاز المصطلحاتي السوسيري، في الوطن العربي هذا، ولا تشير إليه إلا عرضا، وكأنه محصلة لا فائدة من ذكرها، في

محمد عوض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998، الجزء الحادي عشر، صص. 335-336.

(92) أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، 2004، المجلد الخامس، ص. 3786.

(93) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح. عبد الله بن محسن التركي، القاهرة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 2001، الجزء الثامن عشر، ص. 479.

حين أنا نرى أنها ذات أهـمية بالغة تتعدى حدود اللسانيات ذاتـها.

نعم، كثيرا ما ارتبط اسم دو سوسير في أدبيات اللسانيات العربية، ونعي منها أساسا المؤلفات التي عنيت بالتعريف باللسانيات الغربية، بالبنوية والصورنة، ولقد أجمع كتابنا العرب على الوفاء لهذه الصورة النمطية، يقول الباحث سمير شريف استيتية: «يعد العالم السويسري دي سوسير (ت1913م) المؤسس الأول للتوجه البنيوي في دراسة اللغة، وعلى الرغم من أنه لم يستعمل كلمة البنية أو البنيوية، في محاضراته التي نشرت بعد وفاته، فإن مضمون البنيوية يفصح عن نفسه، في ما أودعه سوسير من نظرات في تفسير الظواهر اللغوية. لم يستعمل سوسير هذا المصطلح كما قلنا، ولكنه تحدث عن مضمونه»[94]. ولئن كان من الصعب الحديث عن مضمون معرفي ما دون التعبير عنه بمصطلح محدد، فإنا نعلم أن الكتاب في المحاضرات في اللسانيات العامة توارد فيه مصطلح النسق «système»، فإنه من الغريب ألا يتساءل الباحث عن الظروف التي أدت إلى نشر الكتاب، خاصة وأنه أشار إلى أنه نشر بعد وفاة دو سوسير.

ولقد عرف بعض باحثينا بنوية سوسير فقال: «إن بنيوية دو سوسير تعني دراسة بنية (أو بنى) اللغة في حد ذاتها على نحو مستقل، ليس فقط بعزلها عن التاريخ، أو العالم الخارجي، بل أيضا عن نسيجها الاجتماعي التي تعيش فيه، والعمليات النفسية التي يقوم بها متكلموها عند فهمها، أو اكتسابها، ولذا فمن المناسب جدا أن تكون الدراسات البنوية مقتصرة فقط في إطار اللسانيات على اللسانيات المضيقة»[95]. كيف ذاك واللسان، في عرف دو سوسير، نسق سيميولوجي اجتماعي بامتياز، ليس فقط فيما صح عنه من مخطوطاته المحققة، بل فيما نسبه إليه شارل بالي وألبير سشهاي أيضا. ونريد في هذا السياق التنبيه إلى ميزة يكاد يشترك فيها كثير من الباحثين، وهي استئناسهم إلى بعض

---

(94) سمير شريف استيتية، اللسانيات، المجال، والوظيفة، والمنهج، عمان، جدارا للكتاب العالمي، الطبعة الثانية، 2005، ص. 161.

(95) محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ليبيا، دار الكتب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2004، ص. 67.

المؤلفات الأجنبية القديمة دون التحقق من سلامة المعلومة وحداثتها، كما هو الشأن بالنسبة للباحث إذ إن الكتاب الذي استند إليه لوصف فكر دو سوسير بالنزعة البنوية على الرغم من أنه كتاب صادر في الثمانينيات.

التلقي السيميولوجي

لم ينج المصطلح الدال على علم العلامات (السيميولوجيات أو السيميائيات) هو الآخر من الاضطراب والخلل في استعمالات الباحثين العرب، وأدى هذا الاضطراب إلى كثرة في المسميات الدالة على المسمى الواحد فتعذر على طلبة العلم في كثير من الأحيان تتبع تطور الإسهامات العربية في هذا المجال. ولو أن الباحثين العرب جنبونا الاختلاف في تعريب المصطلح وتحللوا من نزعة التفرد وحب الظهور على الغير، «خالف تعرف»، لكننا لا نغالي في قولنا إن إسهاماتهم في هذا الميدان المعرفي إسهامات معتبرة، يُشهد لها في كثير من المواطن بالاجتهاد والابتكار، فقد تمكن عدد من أساتذتنا من تمثل البحث السيميائياتي الغربي تمثلا واعيا بالأصول التي أُسس عليها والمنابع الفكرية التي ارتوى منها.

لكننا يجب أن نقر أمرا نحسب فيه جانبا هاما من الحقيقة، يرتبط بمسألة التلقي العربي لسيميولوجيات دو سوسير، إذ بينما اتجهت جهود الباحث العربي تقتفي آثار السيميائيات وتولي عنايتها لسيميائيات بورس، وسيميائيات غريماس ومدرسة باريس، وسيميائيات إيكو، على وجه الخصوص، كثيرا ما تجاهلت أدبيات السيميائيات العربية سيميولوجيات دو سوسير، واكتفت في جل أحايينها بالإشارة إلى البحث السيميولوجياتي الفرنسي إشارة موجزة لا تستعيد من فكر دو سوسير في هذا المجال سوى ما شاع منه.

صحيح أن الباحث العربي أدرك منذ الوهلة الأولى استناد سيميائيات باريس إلى بعض تصورات دو سوسير اللسانية (السيميائية) فأشار إليها، وعرّف بها، وتحقق من موقف سيميائيات إيكو من الفكر السيميولوجياتي السوسيري وميوله إلى الفكر السيميائياتي الفينومينولوجي البورسي الأمريكي فأبان عنهما، لكنه غالبا ما ظل غير مكترث بما استجد في أدبيات السيميائيات الأوروبية حول

سيميولوجيات دو سوسير (أو سيميائياته) وما شابها من خلل جراء الصورة التي ورجها عنها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة التي ألفه من بعد موته شارل بالي وألبير سشهاي ونسياه إليه، والنظر كذلك إلى أن جل كتابات دو سوسير في السيميولوجيا بقيت ردحا من الزمن مجهولة، مودعة في مكتبتي جامعتي جنيف وهارفارد، أو مبثوثة في بعض المجلات والدوريات، دون أن يتعهدها الباحث العربي بالنظر والاستقصاء.

ولئن أسهمت ترجمة مؤلفات الباحثين الغربيين في مجال السيميائيات من إثراء المكتبة العربية ومكنت من إمداد الباحث العربي بالأصول التي تناول بها عدد من الظواهر الاجتماعية والفكرية في المجتمعات العربية، إلا أن فكر دو سوسير السيميولوجياتي ظل غائبا في كثير من المحاولات الجادة. ويجب أن نشير إلى أن ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدو سوسير لم يكن في الثمانينيات مشروعا يسيرا يمكن إنجازه دون عناء بالنظر إلى الجو الفكري السائد، إذ لم تكن التجربة اللسانياتية العربية بقدر ما هي عليه اليوم من الثراء وقوة التمثل، كما إن المرحلة التي سبقتها في مسار تلقي فكر دو سوسير اللسانياتي منذ أن أخرج عبد الواحد وافي في الأربعينيات من القرن الماضي أول كتاب في اللسانيات يشار فيه إلى دو سوسير وصنيعه، لم تكن هي الأخرى قد استوت وتمثلت الفكر اللساني الغربي تمثلا عميقا.

ثم إن المشروع لم ترعاه مؤسسة علمية يشهد لها بالدقة في ضبط المصطلح وتوخي التوافق في استعماله، بل كان تحديا رفعه، في أماكن مختلفة من الوطن العربي، باحثون كان همهم الأول إمداد المكتبة العربية تعريف القارئ العربي بأحد أهم الأصول التي تأسست عليها الممارسات اللسانياتية الحديثة، والكتاب الذي نشأت عنه أغلب المدارس اللسانياتية الأوروبية، فأخرجوا لنا خمس ترجمات مختلفة؛ قال فيها عبد السلام المسدي: «ولئن بدا واضحا أن الترجمة التونسية لدروس دو سوسير قد عاشت إنجازها الجنيني قبل الترجمات الأخرى، وأن الترجمة المصرية قد أنجزها أحمد الكراعين في غير متابعة للجهود العربية الأخرى المجانسة، وأن يوسف غازي ومجيد النصر قد أقدما على الترجمة

وأنجزاها وهما أبعد ما يكونان عن استشعار جهد عربي مواز لجهدهما، وأن الترجمة العراقية قد بلغت تمامها حين وصلتها الترجمة اللبنانية، فإن أمر الترجمة المغربية غريب: هو غريب حين يتحدث المترجم عبد القادر قنيني في التصدير عن نفسه من حيث نخال أن المتحدث هو غيره وقد رأسناه، وهو غريب حين يكون صدور الترجمة في سنة 1987 ولا يرد ذكر لأي ترجمة من الترجمات الأربع الأخرى التي صدرت، ووزعت، وراجت، ثم تابعها المتابعون بالتعقيب وتحدث عنها الباحثون بالسند والإلمام»[96].

وليس يعنينا في هذا السياق إلا ما ارتبط من ترجمة كاتب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير إلا ما اتصل بالمشروع السيميولوجياتي الذي نادى به دو سوسير، ولاسيما المسألة الثالثة من مسائل الفصل الثالث من مقدمة الكتاب، وهي المسألة التي تعنى بتحديد موقع اللسانيات من مجموع الوقائع الإنسانية، أو السيميولوجيات. وقبل أن نخوض في النظر في الترجمات التي نتوفر عليها، وهي الترجمة التونسية، والترجمة المصرية، والترجمة اللبنانية والترجمة العراقية، ومقارنتها فيما بينها، وبينها وبين الكتاب المترجم من جهة أخرى، نود أن ننقل فيما يلي ترجمات الفقرة التي أعلن فيها دو سوسير عن تأسيس السيميولوجيات.

- الترجمة التونسية: «وإذن فإنه من الممكن أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية. وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي وبالتالي قسما من علم النفس العام. ونقترح تسميته ب sémiologie أي علم الدلائل وهي كلمة مشتقة من اليونانية séméion بمعنى دليل. ولعله سيمكننا من أن نعرف مم تتكون الدلائل والقوانين التي تسيرها. ولما كان هذا العلم غير موجود بعد فإنه لا يمكن أن نتنبأ بما سيكون. ولكن يحق له أن يوجد، ومكانه محدد سلفا، وليست الألسنية سوى قسم من هذا العلم العام. والقوانين التي سيكشف عنها علم الدلائل سيكون تطبيقها على الألسنية ممكنا. وستجد الألسنية

(96) عبد السلام مسدي، ما وراء اللغة. بحث في الخلفيات المعرفية، تونس، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، 1994، ص. 30.

نفسها ملحقة بميدان محدد المعالم مضبوط ضمن مجموع الظواهر البشرية»[97].

- الترجمة المصرية: «لقد أصبح ممكنا تصور ذلك العلم الذي يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، ولا بد أن يكون جزءا من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام، سوف أسميه Semiology علم العلامات (في اليونانية 'علامة' Semeion). علم العلامات سوف يبين ما الذي يشكل العلامات، ما القوانين التي تحكمها. وأن العلم لم يظهر للوجود إلى الآن، فلا أحد يستطيع القول ماذا سيكون ولكن له الحق في الوجود. علم اللغة هو جزء فقط من العلم العام لعلم العلامات. إن القوانين المكتشفة بواسطة علم العلامات (السيميولوجيا) ستكون ملائمة لعلم اللغة، والأخير سوف يعين مجاله المعروف جيدا داخل كتلة الحقائق الأنثروبولوجية (علم الأجناس البشري)»[98].

- الترجمة اللبنانية: «يمكننا تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جانبا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام. إننا ندعوه بالأعراضية، تلك التي تدلنا على كنه وماهية العلامات والقوانين التي تنظمها، هذا ولكون خلقها لم يتم بعد، فإنه ليعز علينا أن نعرف ما ستؤول إليه، ومع ذلك فإن لها الحق في الوجود. إن مكانتها محددة قبليا، وما الألسنية إلا جزء من هذا العلم العام، ولعله من الممكن تطبيق القوانين التي ستكتشفها الأعراضية على الألسنية، وهكذا ترتبط هذه الأخيرة بمجال محدد بدقة في مجموعة الوقائع البشرية»[99].

- الترجمة العراقية: «ويمكننا أن نتصور علما موضوع دراسة حياة الإشارات في المجتمع؛ مثل هذا العلم يكون جزءا من علم النفس الاجتماعي وهو بدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الإشارات semiology

(97) فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر. صالح القرمادي، محمد الشاوش ومحمد عجينة، تونس، الدار العربية للكاتب، 1985، ص. 37.

(98) فرديناند دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، تر. أحمد نعيم الكراعين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1986، ص. 40.

(99) فرديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر. يوسف غازي ومجيد النصر، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986، ص. 27.

(وهي لفظة مشتقة من الكلمة الإغريقية sémeion = الإشارة). ويوضح علم الإشارات ماهية مقومات الإشارات، وماهية القواعد التي تتحكم فيها. ولما كان هذا العلم لم يظهر إلى الوجود إلى حد الآن، لم يمكن التكهن بطبيعته وماهيته، ولكن له حق الظهور إلى الوجود، فعلم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام؛ والقواعد التي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة، ويحتل العلم الأخير مكانة محددة بين كتلة الحقائق الأنثروبولوجية»[100].

إن أول ما يلفت الانتباه الاختلاف الظاهر في ترجمة مصطلحي «sémiologie» و«signe»، ولعل النظر في الترجمات العربية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة يؤكد ما ذهبنا إليه منذ قليل من أن الاضطراب في نقل المصطلح السيميولوجياتي إلى اللسان العربي أعاق في كثير من الأحيان طلبة العلم عن تتبع تطور الإسهامات العربية في هذا المجال. ولئن كان لهذا الاختلاف في نقل المصطلح ما يبرره بالنظر إلى تمايز المترجمين في المعارف الموسوعية التي تتصل بموضوع الكتاب المترجم، ولا يخفى على أحد ما للمعارف الموسوعية من دور في نقل المعارف والخبرات من لسان إلى آخر. إن التطور والتجدد اللذين ما انفكا يميزان الممارسة الترجمية في عصرنا الحالي ما فتئا يفرضان على المترجم الاستعانة بالمعارف الموسوعية لنقل مختلف النصوص، سواء أتعلق الأمر بالنصوص الأدبية أم النصوص العلمية.

ولقد كان ساو جوزي منذ خمسينيات القرن الماضي قد على ضرورة توفر مثل هذه المعارف في المترجم، ومن ذلك علم الجيولوجيا، فمن رام ترجمة كتاب مدرسي في الجيولوجيا لا يجب أن تقتصر معارفه على اللسان المجري ويطمئن إليها، بل يجب أن تكون له فضلا عن ذلك معرفة بعلم الجيولوجيا[101]. وقد كان لدميرال قد خلص في مبحثه عن الترجمة المصطلحاتية إلى ضرورة توافر المعارف اللسانية والعلمية والموسوعية قصد تجاوز العقبات التي تحول

---

(100) فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، تر. يوئيل يوسف عزيز، مر. مالك يوسف المطلبي، بغداد، دار آفاق عربية، 1985، ص. 34.

(101) Cité par I. Oseki-Dépré, Théories et pratiques de la traduction littéraire, Paris, A. Colin, 1999, p. 61.

دون نقل موفق للمصطلحات من لسان إلى آخر(102).

إن الإجادة في نقل كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة يتطلب من المترجم الإحاطة بما جد في ميدان علوم اللغة، واللسانيات على وجه الخصوص، منذ بداية القرن التاسع عشر، وإدراك التجديدات التي أدخلها دو سوسير، أي أن يكون بعبارة أخرى عالما بتاريخ اللسانيات الحديث، وليس هذا المطلب يسير التحقيق، خاصة إذا المترجم من غير أهل الاختصاص. وإن كنا لا ندري إلى أي درجة بلغت المعرفة بالشؤون اللسانية عند مترجمي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلا أن الظاهر أنهم لم يقفوا عند حقيقة نسبة الكتاب إلى دو سوسير، لاسيما إذا علمنا أن تحقيق نصوص دو سوسير والكشف عن عدد من مخطوطاته قد بلغا في خلال الثمانينيات، وهي الفترة التي نشرت فيها الترجمات، مرحلة متطورة، ولم يعد آنذاك شك في أن كتاب المحاضرات إنما كان من تأليف بالي سشهاي، بالتعاون مع رايدلنغر.

لا نحسب أننا نغالي لو زعمنا أن الترجمة التونسية، ونعني منها الفقرة التي نحن بصدد النظر فيها، تعد أقرب إلى كتاب المحاضرات من غيرها من الترجمات العربية، والأحسن تعبيرا عن مدلولاتها، إلا أننا نعيب عليها عدم توفيقها في نقل بعض المصطلحات، ولعل أهمها مصطلح «signe» و«fait»، أما المصطلح الأول فإننا نعتقد أنه كان الأولى بأن يترجم بمصطلح العلامة بدلا من مصطلح الدليل، لأن هذا الأخير أكثر تعبيرا عن مصطلح «preuve» القانوني، ثم إنه من حيث التصور العام للسيميولوجيات، يعد نمطا من أنماط العلامة التي نعدها المصطلح العام. قال ابن منظور: «والدليل: ما يستدل به، والدليل: الدال»(103).

أما المصطلح الثاني فإن تعريبه بمصطلح الظاهرة، وهو مصطلح فلسفي، فينومينولوجي، ترجمة غير موفقة، وكان الأجدر، في نظرنا، أن يترجم بلفظ الواقعة، الذي ليس مصطلحا خاصا بعلم معين. ونحن إذ نحبذ ترجمة

---

(102) - J.-R. Ladmiral, Traduire: théorèmes pour la traduction, Paris, Gallimard, 1994, p. 222.

(103) أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، 2004، ص. 1414.

السيميولوجيات على غيرها من الترجمات، وهي الترجمة التي ارتأتها الترجمة التونسية إلا أننا نود أن نشير إلى أمر ذا أهمية بالغة، إذ إن الترجمة، وكتاب المحاضرات ذاته، يقدم السيميولوجيات وكأنها مسألة طرأت في فكر دو سوسير في أثناء محاضراته في اللسانيات العامة التي ألقاها بين سنة 1907 و1911، ولقد سبق القول منا أن المشروع السيميولوجياتي إنما بدأت معالمه الأولى تتضح أول الأمر منذ 1894 في عدد من الكتابات، ومنها ما دونه لإعداد مقال حول فكر ويتني اللسانياتي، ثم فيما دونه لإعداد كتاب في اللسانيات العامة. وعلى الرغم من اشتراك جميع الترجمات العربية في هذا الاعتقاد وتلقيه عن الأصل الذي هو كتاب المحاضرات دون ارتياب، فذلك مرده، في نظرنا، إلى الجهل بالطبعات النقدية التي توالت على كتاب المحاضرات، منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، أي قبل عقدين من الزمن على فترة الترجمات، لاسيما طبعتي رودلف أنغلر (1968) وتيليو دو مورو (1972).

ليست الترجمة المصرية ترجمة أصلية لكتاب المحاضرات بل هي ترجمة للترجمة الإنجليزية التي أنجزها وايد باسكين في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، ولعل هذا ما يفسر ما اختتمت به الفقرة التي نحن بصدد النظر فيها، «إن القوانين المكتشفة بواسطة علم العلامات (السيميولوجيا) ستكون ملائمة لعلم اللغة، والأخير سوف يعين مجاله المعروف جيدا داخل كتلة الحقائق الأنثروبولوجية (علم الأجناس البشري)»[104]. ولئن كان المترجم أمينا في نقلها، إلا أنها لا تعبر عما عبر عنه النص الفرنسي. ولنا أن نسأل لماذا ذهب باسكين هذا المذهب في هذه الفقرة؟

«Linguistics is only a part of the general science of semiology; the laws discovered by semiology will be applicable to linguistics, and the latter will circumscribe a well-defined area within the mass of anthropological facts»[105].

---

(104) فرديناند دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، تر. أحمد نعيم الكراعين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1986، ص. 40.

(105) F. de Saussure, Course in General Linguistics, Edited by C. Bally and A. Sechehaye in collaboration with A. Riedlinger, tr. W. Baskin, New York City, The Philosophical Library, 1959.

لقد وازت الترجمة الإنجليزية (الأمريكية) بين الوقائع الإنسانية والوقائع الأنثروبولوجية، وفي هذا التوجه دلالة على نزعة ما انفكت تتصف بها الدراسات اللسانياتية الأمريكية منذ مطلع القرن الماضي، لكن الذي نريد الإشارة إليه هو أن باسكين كان على معرفة بروبار غودال، وبأعماله إذن، إذ يدرج اسمه ضمن قائمة من خصهم بالشكر في مقدمة ترجمته لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، إلى جانب لغويين آخرين من جامعة جنيف.

إن أهم هذه النقود الموجهة إلى مدرسة بوب عدم تنبهها إلى أن اللغة «langage»، ظاهرة من الظواهر وهي ممارسة لملكة من ملكات الإنسان في حين إن اللسان «langue» هو مجموع الأشكال المتطابقة التي تتجلى من خلالها إعمال هذه الملكة من قبل مجموعة من الأفراد في حقبة زمنية محددة. ولم تنته تصورات مدرسة بوب القاصرة عن تحديد طبيعة الألسن الحقيقية وتجاهل مفهوم اللغة بل إنها استسلمت للفكرة التي مؤداها أن للألسن أجساما خاصة، ووجودا مستقلا عن الأفراد المتكلمين(106)، وليس يخفى في هذا الشأن مدى تأثر مدرسة بوب بعلوم الطبيعة والآثار الوخيمة التي لحقت باللسانيات جراء تبني كثير من أطروحاتها وتصوراتها الطبيعية.

إن النظر في التمهيد الذي افتتحت به مقدمة الترجمة اللبنانية التي أعدها يوسف غازي ومجيد النصر يمكِّن من التعرف على طبيعة تمثل المترجميْن للسانيات دو سوسير، وهي في نظرهما لسانيات بنوية بالدرجة الأولى، وهو تصور يبدو منذ السطور الأولى للتمهيد إذ افتتحاه بالحديث عن «نشأة ونمو الألسنية البنيوية»(107)، لكن الغريب في الأمر أن يعتقد المترجمان أن عمل دو سوسير «إنما يكمن في عملية التركيب التي صنعها وفي نظرته إلى اللغة نظرة شمولية ومنهجية»(108)، ولا نحسب أن ما ألقاه دو سوسير على طلبته خلال السنوات الجامعية الثلاث اقتصر على التركيب أو الاقتباس عن غيره من لغويي عصره، ولعمري لكان ذلك جهلا بموقف دو سوسير من الأفكار الخاطئة التي

---

(106) - F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, p. 129.

(107) فرديناند ده سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر. يوسف غازي ومجيد النصر، ص. 3.

(108) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

سادت في هذه الفترة من تاريخ اللسانيات العريق. صحيح أن فكرة «التركيب» فيها جانب من الصحة، لكنها لا تنطبق البتة على فكر دو سوسير إنما تنطبق على كتاب المحاضرات ذاته، وهو، ولا نمل من التذكير به، ليس كله لدو سوسير.

أما إذا أبنا إلى الأمر الذي يعنينا وهو الذي يتعلق بترجمة البعد السيميولوجي من فكر دو سوسير، فإن أوّل ما يجب أن يشار إليه ترجمة مصطلح «sémiologie» بالأعراضية. ولو رمنا تفسير اللفظة العربية لجاز لنا القول بأن الأعراضية هي العلم الذي يعنى بدراسة الأعراض، وليس يخفى ما للكلمة هذه من إيحاء طبي، وهي جمع كلمة العرض «والعَرَض: من أَحْداثِ الدهر من الموت والمرض ونحو ذلك؛ قال الأَصمعي: العَرَض الأَمر يَعْرِض للرجل يُبْتَلى به؛ قال اللحياني: والعَرَض ما عَرَض للإِنسان من أَمر يَحْبِسُه من مَرَضٍ أَو لُصُوصٍ. والعَرَض: ما يَعْرِض للإِنسان من الهموم والأَشغال. يقال: عَرَض لي يَعْرِض وعَرِضَ يَعْرَض لغتان. والعارضة: واحدة العَوارِض، وهي الحاجاتُ. والعَرَضُ والعارِض: الآفةُ تَعْرِض في الشيء، وَجَمْعُ العَرَضِ أَعْراض، وعَرَض له الشكُّ ونحوُه من ذلك»[109].

وإنما كان حريا بالمترجميْن، إذ استعملا مصطلح العلامة للتعبير به عن مصطلح «signe»، وهي في نظرنا ترجمة موفقة، أن يستغنيا بمصطلح «علم العلامات» عن كلمة الأعراضية، أو أن يعمدا إلى الاقتراض واصطناع مصطلح السيميولوجيا، كما فعل الترجمة المصرية التي أعدها أحمد أمين الكراعين. هذا وإننا نعيب كثيرا على المترجمْين استعمال مصطلح الخلق عندما يقولان: «هذا ولكون خلقها لم يتم بعد، فإنه ليعز علينا أن نعرف ما ستؤول إليه، ومع ذلك فإن لها الحق في الوجود»[110]، كما نعيب عليهم استعمال كلمة «المكانة» بدلا من كلمة الموقع التي تعبر أحسن تعبير عن الكلمة الفرنسية «place». لم توفق الترجمة العراقية في اختيار المكافئ الأفضل لمصطلح «signe»، ذلك لأن مفهوم الإشارة عادة ما يراد به المصطلح الفرنسي «indice»، ولئن تتبعنا المؤلفات التي

(109) أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، 2004، ص. 2886.
(110) فرديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر. يوسف غازي ومجيد النصر، ص. 27.

عنيت بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في فترة ما بعد الثمانينيات لوجدناها إنما تركن إلى إحدى هذه الترجمات دون أن تستوقفها طرائق مترجمينا في نقل المصطلح اللساني والسيميولوجي إلى اللسان العربي.

الفصل الثالث

في آفاق النصوص الجديدة

تعد المرحلة الرابعة آخر مراحل تلقي محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة، وهي تبدأ ببحوث روبار غودال حول المخطوطات التي استند إليها الناشريْن في إخراج المحاضرات[1]، وأهم ما يميز هذه المرحلة البحوث الفيلولوجية النقدية التي رافقت طبعات المحاضرات المتوالية، وهي ما عرفت بالطبعات النقدية، من مثل طبعة أنغلار، وتيليو دو مورو، لكن الحدث البارز في هذه المرحلة، وهو في الآن ذاته تتويج لها، هو العثور سنة 1996 على مخطوط في اللسانيات العامة من يد دو سوسير وهو الكتاب الذي كان دو سوسير يعتزم تأليفه في اللسانيات العامة لكن المؤرخين لفكره اعتقدوا أن دو سوسير لم يكتبه يوما أو أنه ضاع فلا سبيل إلى العثور عليه. لقد كان العثور على هذا المخطوط حدثا بارزا في مسار تلقي الفكر اللسانياتي لدو سوسير، ومكن نشرها سنة 2002 من التعرف على جوانب عديدة من جوانب هذا الفكر، فلم تعد عبارة "اللسانيات العامة" تدل على ما كان معهودا منها، بل أضحت تمتد دلالتها لتشمل حقول معرفية ثلاث هي حقل الإبستيمولوجيات، وحقل فلسفة اللغة، وحقل الإبستيمولوجيات المُبرمجة.

أما الحقل الأول من المعارف فإنه يندرج ضمن نقد العلم، ويشتمل على ما اجتمع من أفكار دو سوسير النقدية للممارسات اللسانياتية التي عاصرها، ونعي بها اللسانيات التاريخية المقارنة. وأما الحقل الثاني فهو عبارة عن

(1) R. Godel, les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, 1957.

تـحليلات فلسفية، شبيهة بتحليلات أرسطو، حول اللغة، ومسألة الأنساق الدلالية الأخرى أحيانا، وأخيرا، يضم الـحقل الثالث مـجمل آراء دو سوسير فيما يـجب أن يكون عليه علم اللغة مستقبلا، لسانياتٍ عامة تستعيد فضلا عن موضوعات الصرف والـمفرداتيات والتركيبيات، موضوعات البلاغة والأسلوبية(2).

كنا نود أن نشير إلى هذه كل المناحي الإبستيمولوجية والفلسفية واللسانياتية من فكر دو سوسير في هذه الصفحات ولو إشارة عبارة، لكننا نكتفي بالحديث عن بعض المسائل التي لا شك في أنـها ستعيد النظر من جديد في كثير من الأفكار التي نسبت إلى دو سوسير. وحتى نتمكن من تمثل تصور لسانيات دو سوسير الجديدة للخطاب يجب أن ننوه بالمسائل التالية: أولها أن دو سوسير ما كان يميز، إن في محاضراته أو في كتاباته، بين لسانيات للسان ولسانيات للكلام؛ ثانيها أن لسانيات دو سوسير ما اتخذت من الوقائع اللسانية موضوعا لها إلا ما هو، في نظر دو سوسير، مُدرَك من قبل الفرد المتكلم؛ ثالثها أنها لسانيات للخطاب، بالدرجة الأولى، إذ تتخذ من الخطاب المادة التي تشتغل عليها؛ ورابعا أن المعنى، في لسانيات دو سوسير، يحدده استعمال الفرد للسان.

وليست هذه بطبيعة الحال كل المناحي الجديدة التي كشفت عنها القراءات التي اتخذت الكتابات في اللسانيات العامة، التي لم تنقل بعد إلى العربية، موضوعا للتأمل والاستكشاف، بل إن الناظر في ثناياها ليزداد يقينا بأن ما نسب إلى دو سوسير من محتوى المحاضرات في اللسانيات العامة إنما كان مجرد افتراء عليه لا غير، وأن النقود التي وجهت إليه، لاسيما من قبل التداوليين الذين عنوا بالاستعمال اللغوي من قبل الفرد ووجهوا عنايتهم لمدارسة الأفعال الإنشائية، ولعل أهم هذه النقود وأخطرها على المتلقي العربي ما اتصل بمسألة الفصل بين اللسان والكلام وإزاحة هذا الأخير من مجال اللسانيات.

---

(2) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, préface des éditeurs, pp. 8-9.

الورقة الأولى من مخطوط «De l'essence double du langage»
(مكتبة جنيف، أرشيف دو سوسير)

Préface 1

~~pratiquement~~ en fait
— Il paraît impossible de donner une prééminence à telle ou telle vérité ~~fondamen~~ de la linguistique, de manière à en faire le point de départ ~~unique~~ central; mais il y a cinq ou six vérités fondamentales qui sont tellement liées entre elles, qu'on peut partir indifféremment de l'une ou de l'autre, et qu'on arrivera logiquement à toutes les autres [et à toute l'infime ramification ~~des conséq.~~ des mêmes conséq.] en partant de l'une quelconque d'entre elles.

Par exemple, ~~il~~ on peut se contenter uniquement de cette donnée:

~~« Il n'y a pas d'opposition possible entre la forme et le sens comparés~~ (et impraticable)

« Il est faux ~~de dire qu'il soit possible~~ d'opposer la forme et le sens. ~~Il est~~ Ce qui est juste en revanche ~~juste~~ c'est d'opposer la figure vocale d'une part, et la forme-sens de l'autre. »

En effet, quiconque poursuit rigoureusement cette idée arrive ~~exactement~~ mathématiquement aux mêmes résultats que celui qui partira d'un principe en apparence très distant, par exemple:

Il y a lieu de distinguer dans la langue les phénomènes internes ou de conscience, et les phénomènes externes, directement saisissables.

في الإبستيمولوجيات وفلسفتي اللغة واللسانيات

تشهد اللسانيات في الغرب، في السنوات القليلة الأخيرة، تحولات جذرية تكاد تحدث ثورة عملية، لاسيما بعد العثور، العام 1996، على مخطوط لكتاب لفرديناند دو سوسير في اللسانيات العامة. ومنذ تحقيق هذا المخطوط من قبل سيمون بوكي ورودلف آنغلر، ونشره ضمن السلسلة الفلسفية لدار غليمار، سنة 2002، ما انفكت الدراسات اللسانياتية المعاصرة، وهي عموما مقالات صدرت في الدوريات اللسانياتية الأوروبية، تستكشف جوانب، كثيرا ما كانت مجهولة، من فكر دو سوسير اللسانياتي والفلسفي.

ولعل الملمح البارز من ملامح فكر دو سوسير التي تنافست الأقلام في التعريف بها ملمح تعدد فكره اللسانياتي، فقد بات معلوما أن ما أنتجه دو سوسير لا يمكن أن يُختزل بأي حال من الأحوال في جملة من الفروق المفهومية من قبيل التمييز بين اللغة، واللسان والكلام، وبين الدراسة الآنية والدراسة التاريخية، وبين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، وبين الدال والمدلول، وبين العلاقات الترابطية والعلاقات الاستبدالية، وغيرها من الفروق التي روج لها الكتاب الذي نشر من بعد موته من قبل شارل بالي وألبير سشهاي بالتعاون مع ألبير رايدلنغر، ونسب إلى دو سوسير، وما هو لدو سوسير، أو تلك التي روجت لها النظريات اللسانياتية التي بلورت كثيرا من مفاهيمها وتصوراتها انطلاقا من كتاب محاضرات في اللسانيات العامة. لا. لا يقتصر فكر دو سوسير (1857–1913) على مثل هذه الفروق، بل هو فكر متعدد، ولعل القارئ لكتابه الجديد الذي لم ينقل إلى العربية بعد، على الرغم من تنافس كثير من المؤسسات الجامعية في نقله، يمكن له ملاحظة هذا الملمح بكل وضوح.

ويجب أن نشير إشارة بليغة إلى الآثار الوخيمة للاجتهادات التي قام بها تلامذة دو سوسير في التعبير عن أفكار أستاذهم، حتى نبه، كما نبه عدد من دارسي النصوص السوسيرية، إلى الضرر الذي ألحقه شارل بالي وألبير سشهاي بمحاضرات دو سوسير، وقدماها للمجتمع العلمي على أنها أفكاره، وما هي بأفكاره، إن هي إلا محاولات لسانياتية لا علاقة لها بما كان دو سوسير يلقنه

لطلبته، ولولا العثور، سنة 1996، على مـخطوطات لكتاب في اللسانيات العامة لظل فكر دو سوسير اللسانياتي الأصيل مـجهولا.

لقد مكن هذا الاستكشاف من إدراك جوانب خفية من الفكر السوسيري اللسانياتي، وإن الباحث، وهو يتصفح هذه النصوص التي لـم تترجم بعدُ إلى اللسان العربي، يدرك لا مـحالة الهوة التي تفصل كتاب دو سوسير الـمزعوم عما تـحويه هذه المخطوطات من مسائل فلسفية، ولسانية، وإبستيمولوجية، ومنهجية، وتاريخية، وغيرها من الـمسائل التي نروم التنويه بها ههنا. كما نود أن نشير في مقدمة هذا البحث، كما أشار عدد من الباحثين المحدثين، من مثل فرانسوا راستيي، وسيمون بوكي، وأنغي ميشونيك، وتيليو دو مورو، وغيرهم ممن تعددت مداخلهم إلى فكر دو سوسير، أن نشير إلى أهم المناحي الفكرية التي باتت تعرف بلسانيات دو سوسير الجديدة، فعبارة 'اللسانيات العامة' لم تعد تدل على ما كان معهودا منها، بل أضحت تـمتد دلالتها لتشمل ثلاثة حقول معرفية هي حقل الإبستيمولوجيات، وحقل فلسفة اللغة، وحقل الإبستيمولوجيات الـمُبرمـجة.

أما النوع الأول من الـمعارف فإنه يندرج ضمن 'نقد العلم'، ويشتمل على ما اجتمع من أفكار دو سوسير النقدية للـممارسات اللسانياتية التي عاصر أصحابها، ونعي بـها اللسانيات التاريخية الـمقارنة. أما الحقل الثانـي فهو عبارة عن تـحليلات فلسفية، شبيهة بتحليلات أرسطو، حول اللغة، ومسألة الأنساق الدلالية الأخرى أحيانا، وأخيرا، يضم الـحقل الثالث مـجمل آراء دو سوسير فيما يـجب أن يكون عليه علم اللغة مستقبلا، لسانياتٍ عامة تستعيد فضلا عن موضوعات الصرف والـمفرداتيات والتركيبيات، موضوعات البلاغة والأسلوبية. تلك هي أهم الجوانب المسكوت عنها في الدراسات اللسانياتية العربية التي نود التعريف بها في هذا الفصل.

لم يعد اليوم مباحا اختزال فكر دو سوسير اللسانياتي في جملة المسائل التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، والتي تقتصر مدلولاتها على بعض الفروق التي من شأنها التأسيس لعلم في اللسانيات لا يُعنى إلا بما له صلة باللسان، بوصفه نسقا من العلامات، دون أي اعتبار لما

له صلة بالكلام، أو الخطاب، أو الاستعمال اللساني عموما. إن المخطوطات التي أودعتها عائلة دو سوسير بمكتبتي جامعتي جنيف وهارفارد ما انفكت تدحض المزاعم المسوقة لهذا الاختزال ولا تنفك تحل محلها، كلما نشر جزء منها وحقق ضمن الدوريات اللسانياتية المتخصصة في الفكر السوسيري، تصورا سوسيريا جديدا، أصيلا، منسجما، لا يتسلل إليه الخلل والاضطراب، خلافا لما هو عليه كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة. وهو تصور لا ينحصر في الجانب اللسانياتي بل يتجاوزه، مصداقا لقول دو سوسير: «إن الطريقة المثلى في التعاطي مع اللسانيات هي تناولها من الخارج، مع شيء من المعرفة بالظواهر الهامة من الداخل»(3).

لكننا نريد قبل المضي في التعريف ببعض الملامح المؤسسة لهذه الحقول الثلاث التوكيد من جديد على تنوع الفكر السوسيري، فقد كان دو سوسير، إلى جانب بحوثه في اللسانيات العامة، يستكشف في خلوته مجالات بحث أخرى صبت في نظرية الأدب، تقدمت بحوث كلود ليفي ستروس، ونيكيفوروف، وفلادمير بروب، وأن له في سيميائيات النص أفكارا وآراء لم يكن يعلمها إلا من خصهم بالإسرار بها، من معاصريه والمقربين إليه. ولقد خلص الباحثون المحدثون إلى رسم المعالم الكبرى للفكر السوسيري من خلال التعرف على سائر مجالات البحث التي جال فيها دو سوسير وهي:

- بحوث في الأسطورة: وهي مجموع البحوث التي باشرها دو سوسير منذ جوان 1903 إلى غاية أبريل 1911، وهي بحوث تعنى، إن جاز التعبير الحديث، بالتحليل البنوي للأسطورة، لاسيما الأسطورة الجرمانية، وعلم الأساطير المقارن. وقد ترك دو سوسير في هذا المجال من البحث كمّا كبيرا من المخطوطات المودعة بمكتبة جامعة جنيف.

- بحوث في اللسانيات العامة: وهي خلاصة مجموع المحاضرات التي ألقاها بجامعة جنيف خلال السنوات الجامعية الثلاث (يناير 1907 - جوان 1907)، (أكتوبر 1908 - جوان 1909)، (أكتوبر 1910 - جوان 1911)،

---

(3) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p.109.

وهي التي تشتمل، من وجهة نظر سيمون بوكي على الحقول اللسانية الثلاث: إبستيمولوجيات اللسانيات، وفلسفة اللغة والإبستيمولوجيات المبرمجة.

– بحوث في الجناسات التصحيفية: وهي مجموع البحوث التي باشرها دو سوسير منذ نهاية ديسمبر 1905 وامتدت حتى نهاية محاضراته في اللسانيات العامة التي ألقاها بجامعة جنيف خلال السنة الجامعية (1910-1911)، شهر جوان 1911[4].

لقد أدركت لسانيات النص منذ بواكير نشأتها الأولى أهمية فكر دو سوسير اللساناتي وليس غريبا أن تظل تصورات دو سوسير منذ أولى المحاولات في لسانيات النص مقدمة ومدخلا للمؤلفات التي حاولت في سبعينيات القرن الماضي رسم معالمها. إن «المدخل إلى التحليل النصي» الذي ألفه روبار لافون وفرانسواز غرديز مادري سنة 1976 خير مثال على ذلك بإقرارهما: «إن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدو سوسير كان سببا في تحول جذري لإشكالية النص»[5]، ولئن اجتهدت اللسانيات النصية آنذاك في محاورة فكر دو سوسير بما توفر لها من تركة دو سوسير، وما كان لها إلا أن تكتفي بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فإنها ما انفكت، في أيامنا هذه، لاسيما على إثر تحقيق جملة من مخطوطاته ونشرها، تعاود محاورته من جديد، فها هو جون ميشال آدم، وهو واحد من الباحثين المجتهدين في لسانيات الناص، يعاود، في طبعته الثالثة من مؤلفه «اللسانيات النصية»، تقرير ما أقره أصحابه من قبل: ضرورة البدء بدو سوسير وإعادة النظر في مفهوم النص وفق ما استجد من مخطوطاته[6].

---

(4) - F. Gardon, De dangereux édifices. Saussure lecteur de Lucrèce, Paris, Peeters, 2002, pp. 3-4.

(5) - R. Lafont et F. Gardès-Madray, Introduction à l'analyse textuelle, Paris, Larousse, 1976, p. 10.

(6) - J.-M. Adam, La linguistique textuelle, Paris, A. Coli, 3^{e} éd., 2011, pp. 10-23.

موقف دو سوسير الإبستيمولوجي من اللسانيات

لم يكن فردناند دو سوسير يوما راض عما آلت إليه الدراسات التاريخية المقارنة مع نهاية القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من أن جل تكوينه اللسانياتي كان بجامعة ليبزغ الألمانية، إذ كانت آنذاك مركزا عالميا مرموقا يشهد له بالسبق في الدراسات اللسانية التاريخية المقارنة، إلا أنه لم يعلن يوما انتمائه إلى التيار اللسانياتي السائد، بل إن النقود التي كثيرا ما وجهها إلى مدرسة بوب تنبأ عن مدى حرصه على التميز عنها. لقد مكنت النصوص التي تم العثور عليها سنة 1996 من التعريف بهذا الحقل المعرفي من فكر دو سوسير، ومنها النص الذي يحدد فيه دو سوسير مفاهيم الكلام، واللسان، واللغة.

إن أهم هذه النقود الموجهة إلى مدرسة بوب عدم تنبهها إلى أن اللغة «langage»، ظاهرة من الظواهر وهي ممارسة لملكة من ملكات الإنسان في حين إن اللسان «langue» هو مجموع الأشكال المتطابقة التي تتجلى من خلالها إعمال هذه الملكة من قبل مجموعة من الأفراد في حقبة زمنية محددة. ولم تنته تصورات مدرسة بوب القاصرة عند تحديد طبيعة الألسن الحقيقية وتجاهل مفهوم اللغة بل إنها استسلمت للفكرة التي مؤداها أن للألسن أجساما خاصة، ووجودا مستقلا عن الأفراد المتكلمين(7)، وليس يخفى في هذا الشأن مدى تأثر مدرسة بوب بعلوم الطبيعة والآثار الوخيمة التي لحقت باللسانيات جراء تبني كثير من أطروحاتها وتصوراتها الطبيعية.

ولئن كانت مجمل النقود التي ما انفك دو سوسير يوجهها إلى الممارسات اللسانياتية التاريخية المقارنة تصب في دائرة إبستيمولوجيا اللسانيات، ونعني بها ما يندرج ضمن 'نقد العلم'، فإن دو سوسير ما اكتفى يوما بالتصريح بهذه النقود دون التعبير عن تصور أصيل لشروط تأسيس لسانيات علمية تنأى عن تصورات العلوم الطبيعية، ولئن كانت اللسانيات التاريخية المقارنة كثيرا ما انساقت وراء البحث عن الفوارق التي تميز الألسن واللهجات عن بعضها، وترسم لكل منها حلقات تطورها وتحولها عبر الزمن، وعنيت بأصواتها وصيغها الصرفية، فإنها

(7) - F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, p. 129.

كثيرا ما تجاهلت - في نظر دو سوسير - أن دراسة الألسن ستظل قاصرة ما لم يع العاملون بها أن علاقة ثابتة تنعقد بين اللغة والألسن، إحداهما تستلزم الأخرى، ولا يمكن الفصل بينهما بأي حال من الأحوال[8].

لقد مكنت النصوص التي تم العثور عليها سنة 1996 من التعريف بهذا الحقل المعرفي من فكر دو سوسير، ومكنت في الآن ذاته من التخلي عما ورثناه من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي أسهم بقدر ما أسهمت كتابات مدرسة بوب اللسانياتية في تكبيل اللسانيات بتصورات قاصرة، إذ بينما أجهد دو سوسير نفسه في غير موضع من كتاباته في تثبيت حقيقة الاستلزام المتبادل بين مفهومي اللغة والألسن، قدم شارل بالي وألبير سشهاي للمجموعة العلمية صورة زائفة عن فكر دو سوسير، قدماه على أنه يجتهد في التخلص من مفهومي اللغة والكلام فلا يبقي من تصوراته إلا ما له صلة باللسان، بوصفه نسقا من العلامات والموضوع الوحيد والحقيقي للسانيات.

أبدى دو سوسير تحفظا في استعمال مصطلح النحو المقارن، إذ على الرغم من أن المصطلح، في نظر دو سوسير، له ميزة خاصة فهو يمكن منذ الوهلة الأولى من التعريف بمجال البحث اللساني وتمييزه عن الدراسات الأدبية التي لا تتخذ الألسن موضوع لها إلا لتجعل منها مطية لاختبارات أخرى غير لسانية، إلا أنه من وجهات نظر أخرى لا يمكن له أن يثبت أمام رجاحة العقل، ولذلك كان دو سوسير واحدا من الذين نادوا بضرورة التخلي عن مصطلح النحو المقارن وإحلال مكانه مصطلح اللسانيات التاريخية، ذلك لأن مصطلح النحو المقارن يثير جملة من الأفكار الخاطئة لعل أخطرها الاعتقاد في وجود نحو آخر علمي غير الذي ينتهج المقارنة بين الألسن منهجا لها[9]. ولم يتوان دو سوسير قط في الكشف عن أخطاء النحو المقارن كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ففي سياق حديثه عن مسألة التحولات الصوتية، لاسيما في سياق حديثه عن دراستها للسان اليوناني، تراه يعيب عليها منهجها في تقسيم الكلمات إلى جذور وتيمات

(8) - F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, p. 129.

(9) - F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, p. 173.

ولواحق، وتجعل من هذه التقسيمات تقسيمات مطلقة لا يتسلل إليها الخلل، في حين أنها مجرد تصورات زائغة[10].

ولئن كانت النقود التي سجلها دو سوسير على النحو المقارن تصب في دائرة الإبستيمولوجيات، أو نقد العلم كما كان يصطلح عليه قبل مطلع القرن العشرين، فلأنها أيضا مدعاة إلى التأمل الفلسفي، لذلك تجده يقول: «إنه لمدعاة للتفكير الفلسفي، وسيظل دوما كذلك، أن يكون العلم اللساني، الذي نشأ بألمانيا، وتطور بها، وأولع به عدد لا يحصى من الأفراد لمدة خمسين سنة، لم يرتقي إلى درجة من التجريد تمكنه من التساؤل عما هو فاعل، ويتساءل عما يحقق لصنيعه أسباب الوجود ويحدد موقعه من مجموع العلوم»[11]. لا يمكن للباحث أن يطلع على موقف دو سوسير من النحو المقارن وهو يجول في ثنايا كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة التي ألفه شارل بالي وألبير سشهاي ونسباه إليه، وعلى الرغم من الصفحات المعدودات التي لخص فيها موقفه من علوم عصره اللغوية، لاسيما النحو المقارن، إلا أن القارئ لا يدرك بأي حال من الأحوال أن مجموع النقود التي عبر عنها كثيرا ما كانت تصحبها أفكار غايتها رد من ضل إلى جادة الطريق وتقترح أفكار جادة وواعية بطبيعة الألسن، وأنها تمثل جانبا قارا من فكر دو سوسير، هو جانبه الإبستيمولوجياتي.

إن النقود التي ما انفك الباحثون المحدثون يوجهونها إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة وإلى صانعاه كشفت عن خلل كبير في الكتاب، العلة فيه تقديم صورة نمطية فاسدة عن دو سوسير، اللساني الذي لا يعبئ بما جد حوله من معارف وعلوم لا تمت بالفكر اللساني بلصة مباشرة. بيد إن الأمر غير ذلك، بل مناقض له تماما. إن إسهام دو سوسير الشخصي في إمداد كتاب نافيل، «تصنيف جديد للعلوم»، بتعريف مجمل ودقيق للسيميولوجيات، أي علم العلامات الذي أدرجه نافيل ضمن تصنيفه للعلوم، لدليل قاطع عن عدم عزلة دو سوسير عما اختبره علماء عصره من حوله، بل

---

(10) - Idem, p.182-183.

(11) - Idem, p.205.

تراه في بعض الأحايين لا يتوانى عن إبداء رأيه فيما يراه مجانبا للصواب عندما تعمد بعض العلوم المجاورة إلى اختبار مسألة اللغة، كما هو الشأن بالنسبة لعلم النفس عندما يروم العاملون فيه التعامل مع مسألة علاقة اللغة بالفكر أو علماء الاجتماع عندما يحاولون النظر في علاقتها بالمجتمع.

لكن اهتمام دو سوسير بعلوم عصره لم يقتصر على العلوم الاجتماعية والإنسانية منها، بل كان له نصيب وافر من الدراية بفكر عصره العلمي ولعل لهذا الاهتمام أصل في نشأته العلمية المبكرة فقد تابع دو سوسير في شبابه دروس في الفيزياء والكيمياء بجامعة جنيف خلال السنة الجامعية 1875-1876، تجلت في تكوينه اللسانياتي وأسهمت في بلورة بعض المفاهيم وتقريبها إلى الأفهام. وفي هذا السياق، نجده يلجأ إلى من أجل التعبير عن الطبيعة المركبة للوحدات اللسانية إلى معارف في الكيمياء، حين يقول: «إن العناصر الأولى التي ينظر فيها الباحث في اللسانيات وتحضا بعنايته ليست عناصر مركبة وحسب، ومن الخطأ محاولة تبسيطها، بل هي عناصر سُلب منها تركيبها، وهي ليست شبيهة بالعناصر الكيميائية البسيطة أو تركيبا منها، بل هي شبيهة بمزيج كيميائي، من قبيل المزيج بين الآزوت والأكسيجين في الهواء، بحيث إن الهواء لن يبقى هواء لو نزعنا منه الآزوت أو الأكسيجين، ولا علاقة بين كثافة الآزوت أو الأكسيجين الكائنة في الهواء، وأن تصنيف كل واحد منها لا يتم إلا استنادا إلى العناصر الشبيهة له، وأن فكرة الهواء تنتفي لو انتقلنا إلى فكرة التصنيف، وأن تصنيف المزيج الناتج عنهما ليس متعذرا. إن المسائل التي جئنا على ذكرها هي الخصائص التي تميز الموضوع الذي يعنى به اللغوي»[12].

ولا يقتصر استلهام دو سوسير من علوم عصره على الكيمياء أو الفيزياء فقط، بل إن علم الحساب والرياضيات والمنطق وغيرها كلها معارف أسهمت في تكوين فكره اللساني، ويبدو ذلك جليا مثلا عندما ينظر في العمليات التي يقوم بها علم اللسانيات، وهي بالضرورة، على الرغم من الاعتقاد الخاطئ للبعض، عمليات منطقية رياضية. يقول: «إن وجهة النظر التي نتبناها مفادها أن

(12) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, pp.18-19.

معرفة ظاهرة ما أو عملية ذهنية ما تفترض سلفا تحديد مصطلح ما، ولا يجب أن يكون هذا التحديد للمصطلح من قبيل الصدفة أو أن يكون تحديدا نسبيا بأن نختار له جزافا محتوى ما مقابلا لمحتوى المصطلحات الأخرى، إنما أعني به التحديد المنتج الذي يمثل القاعدة التي يستند إليها النسق برمته. إن الاعتقاد في القدرة على التخلي عن هذا التفكير المنطقي الرياضي السليم بحجة أن الألسن أشياء مجسدة "تتحول" وليست أشياء مجردة "ثابتة"، اعتقاد خاطئ، نتج أول الأمر عن التوجهات الفطرية للفكر الجرماني»[13]. ولعل اهتمام دو سوسير بعلوم عصره هو الذي دفع بأندري بتروف إلى النظر في بعض المفاهيم السوسيرية في ضوء العلوم الفيزيائية، ولاسيما بعض مؤلفات الدينامية الحرارية، من مثل مؤلفات غوغنهايم، وفارمي، وكستلار[14].

فلسفة دو سوسير اللغوية وفلسفته اللسانياتية

من الطبيعي أن نتساءل، ونحن نروم النظر في الملمح الفلسفي لفكر دو سوسير، عن طبيعة هذه الفلسفة وعلاقتها باللسانيات والسيميائيات، ونعني بهذه الفلسفة فلسفة اللغة على وجه التحديد إذ هي، في نظر الكثير من الباحثين أقرب ميادين الفلسفة بهما. ولعل التداخل المعرفي الذي ما انفك يميز فلسفة اللغة والسيميائيات هو الذي قاد، في نظرنا، أمبرتو إيكو إلى إخراج كتابه «السيميائيات وفلسفة اللغة»[15]، أو أن يخصص قبله أندري جاكوب[16]، وغيره من الباحثين المؤرخين لفلسفة اللغة، فصولا من كتاباتهم للحديث عن علاقة اللسانيات والسيميائيات بفلسفة اللغة، واشتراكها في مناقشة العديد من المسائل التي باتت إرثا فكريا إنسانيا مشتركا. ولئن نظرنا في مجموع المسائل النظرية التي تتداولها مؤلفات فلسفة اللغة لألفيناها مسائل نظرت فيها اللسانيات

---

(13) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, pp. 18-19.

(14) - A. Petroff, «L'autre Saussure», *Semen* [En ligne], nº 2, 1985, consulté le 09 janvier 2017. URL : http://semen.revues.org/4281.

(15) - U. Eco, La sémiotique et la philosophie du langage, tr. M. Bouzaher, Paris, Seuil, «Quadrige», 2001.

(16) - A. Jacob, Introduction à la philosophie du langage, Paris, Gallimard, 1976.

والسيميائيات أيضا، ومن هذه المؤلفات نجد مثلا المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه سيلفيان أورو[17] يتناول المسائل التالية: اللغة الإنسانية، الكتابة، طبيعة العلامة اللسانية، اللغة والأنتولوجيا، الفكر واللغة، اللغة والذاتية، فلسفة اللسانيات، الأخلاقيات اللسانية.

ولعل التفسير الأول لهذا التشارك بين اللسانيات والسيميائيات وفلسفة اللغة الصعوبة التي تجدها هذه الأخيرة في تحديد موضوعها ومجال تحريها مقارنة باللسانيات والسيميائيات اللتين أصبح كلاهما محدد المعالم معلوم الموضوع، وهو الذي دعا سيلفان أورو للتقديم لكتابه الآخر في فلسفة اللغة بالجملة التالية: «ليست فلسفة اللغة مفهوما قارا أو مجال مادة علمية محدد المعالم، بل المراد منها جملة من الأفكار ذات الأصول المتعددة كتلك التي تناقلها الفلاسفة وهم ينظرون في اللغة، أو تلك التحليلات التقنية التي صيغت انطلاقا من صورنات منطقية، أو تلك التي ارتبطت بالدور الذي تضطلع به اللغة العادية، أو أيضا تلك التي انضوت ضمن ما أضحى يسمى بفلسفة اللسانيات»[18]. ولا يخفى أننا نعني ههنا من فلسفة اللغة معناها العام الذي درجت على تداوله الأقلام منذ عصور قديمة، لكن فلسفة اللغة اتخذت منذ نشأة الفلسفة التحليلية طابعا خاصا، والتزمت نهجا بيّنا، ولم تستدع من موضوعات فلسفة اللغة العامة إلا ما صب في سعيها الرئيس إلى تجديد التفكير الفلسفي وتخليصه من حمولته الميتافيزيقية.

لا بد قبل أن نأتي إلى التفصيل في بعض المسائل التي ناقشها دو سوسير، والتي يمكن إدراجها ضمن حقل فلسفة اللغة، أن نعرف بملمح آخر من ملامح فكر دو سوسير اللسانياتي، وهو الذي تعبر عنه عبارة فلسفة اللسانيات، ولئن أضحى لهذه الأخيرة موقع بارز ضمن دوائر فلسفة اللغة الشاسعة فإن إسهامات دو سوسير في هذا المجال باتت منذ نشر كتاب المحاضرات في اللسانيات إسهامات مغيبة، ولم تنل اهتمام الباحثين إلا لماما، على الرغم من أن دو

---

(17) - S. Auroux *et al.*, La philosophie du langage, Paris, P. U. F., 1996.

(18) - S. Auroux, La philosophie du langage, Paris, P. U. F., Que sais-je?, 2e éd., 2013, p. 3.

سوسير ما انفك في محاضراته في اللسانيات العامة يؤكد على المنحى الفلسفي الذي سلكته أطروحاته. لقد ميز سيمون بوكي، عندما راح يبحث في الأصول الفلسفية لتعاليمه اللسانياتية، بين مكونين فيما أسماه بفلسفة اللسانيات من فكر دو سوسير، مكون داخلي وآخر خارجي. أما المكون الداخلي فإنه يتصل بالنظرية اللسانية التي رام دو سوسير صياغتها، ومفاده أن عددا من المسائل التي بحثت فيها تنتهج النظرة الفلسفية، ومنها ما تعلق بمفهوم العلامة اللسانية من مثل وحدتها، وطبيعتها، وتحولها، وثباتها، واعتباطيتها، وغيرها من المسائل اللسانياتية التي كثيرا ما زاحم الفلاسفة علماء اللغة فيها. أما المكون الخارجي فإنه، خلافا للمكون الداخلي، لا يقتصر على عدد من المسائل دون غيرها من المسائل المؤلفة للنظرية اللسانياتية، بحيث يبدو التقابل بين ما هو فلسفي وما هو غير ذلك بارز فيها، إنما يميز النظرية اللسانياتية بكاملها[19].

لقد كان تخلف شارل بالي وألبير سشهاي عن دروس دو سوسير في اللسانيات العامة وتعذرهما عن متابعتها لارتباطاتهما المهنية، وقلة المصادر التي استعانا بها في صياغة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة السببين الرئيسين في جهلهما لهذا الملمح الفلسفي من ملامح فكر دو سوسير، ولقد بات معلوما الآن أن دو سوسير كثيرا ما كان يردد في دروسه عبارة فلسفة اللسانيات، ولعل أهم المصادر التي كشفت عن هذا الاستعمال شهادة بول روغار، أحد طلبة دو سوسير ممن تابعوا دروسه من السنة الجامعية (1908-1909)، في مقدمة كتابه «إسهام في دراسة الحروف في لغة العهد الجديد»، الصادر سنة 1919: «إن طبيعة اللسان، ومبادئ اللسانيات وطرائقها، والحقائق التي يشكل مجموعها فلسفة اللسانيات، إذا ما أردنا أن نستعير العبارة التي استخدمها دو سوسير وارتضاها عنوانا لهذا الجزء من محاضراته، كلها مسائل أبرزتها هذه المحاضرات»[20]. ولقد أخبر رايدلنغر هو الآخر عن استعمال دو سوسير لتسمية فلسفة اللسانيات في واحد من الحوارات التي خصه بها التاسع عشر من شهر

---

(19) - S. Bouquet, Introduction à la lecture de Saussure, p. 82.

(20) - P. Regard, Contribution à l'étude des prépositions dans la langue du Nouveau Testament, Paris, E. Leroux, 1919, p. 5.

جانفي سنة 1909، ونقل عنه قائلا: «سيتطرق السيد دو سوسير هذه السنة إلى المسائل التي ترتبط بالألسن الهندية الأوروبية، وسيكون ذلك بمثابة مقدمة لدروس في فلسفة اللسانيات، وإنه لا يرى أي مانع من أن يباشرها في السنتين المقبلتين»[21].

ولا بد للباحث من توخي الحذر في استعمال هذه العبارة فإنها كثيرا ما تلتبس في الأذهان بعبارة إبستيمولوجيا اللسانيات، ومرد هذا اللبس إلى قلة التمييز بين الإبستيمولوجيا وفلسفة العلوم، كما إن الاستعمال الحديث لعبارة فلسفة اللسانيات يكاد يختلف عن الاستعمال السوسيري، وذلك بين من خلال العرض الذي يقدمه عنها سيلفان أورو وآخرون[22]. ولقد أشارت جوليا كريستيفا في محاولتها للتعريف عن إبستيمولوجيات اللسانيات إلى التداخل الحاصل إلى درجة الترادف في استعمالات الفلاسفة الفرنسيين والأنجلوسكسونيين بين مصطلحات فلسفة العلم، والإبستيمولوجيات والمنهجية[23]، ولئن اجتهدت الأقلام في السنوات الأخيرة في البحث عن مرتكزات من شأنها التمييز بين هذه المفاهيم قصد الإسهام في بلورة إبستيمولوجيا للسانيات، فذلك ليقينهم بأن اللسانيات ليست مساع نظرية تتخذ من الوقائع اللسانية موضوعا لها، بل هي في الآن ذاته، وفضلا عن ذلك، تفكير حول المفاهيم الإجرائية التي تتخذ منها أدوات لمقاربة هذه الوقائع.

ولكن الذي يعنينا في هذا السياق هو الاستعمال السوسيري لعبارة فلسفة اللسانيات، فالظاهر أن الاستعمال إنما يندرج ضمن تقليد بدأت معالمه تتضح منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حينما بدأ مصطلح فلسفة العلوم يشيع في أدبيات الفكر الفلسفي الحديث، ثم ما لبث أن استقر في أدبيات فكر القرن العشرين الفلسفي دالا على مجموعة من المسائل القارة، اقتضبها باروخ برودي فيما يلي: مسألة تتصل بنتائج الاكتشافات العلمية الجديدة وما يترتب عنها من

---

(21) - A. Riedlinger, P. Interview de M. Ferdinand de Saussure sur un cours de linguistique statique (mardi 19 janvier 1909), in R. Godel, Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de Ferdinand de Saussure, p. 29-30.

(22) - S. Auroux *et al.*, La philosophie du langage, 287 et s.

(23) - J. Kristeva, «Les épistémologies de la linguistique», Langages, nº 24, 1971, pp. 4-5.

مواقف إزاء القضايا الفلسفية التقليدية، وأخرى تتعلق بالمفاهيم الأساسية الخاصة بمختلف فروع العلم، مفاهيم وجب النظر فيها وتحليلها، وثالثة تعنى بالنشاط العلمي وأهدافه والمناهج التي ينتهجها العلم بغية تحقيق هذه الأهداف[24].

إن الذي نسعى إلى التوكيد عليه في هذا الكتاب الموجز هو المنحى الفلسفي الذي اتخذه فكر دو سوسير من حين لآخر، وإنه من الجهل بحقيقة هذا الفكر المتعدد والمتنوع اختزاله في بعض التصورات اللسانياتية وبعض الفروق المنهجية، وعلى الرغم من أن ما حقق من نصوص دو سوسير ونشر إلى غاية اليوم لا يمكن الباحثين من رسم معالم هذا الفكر وسبر أغواره، إلا أن الناظر في النصوص المنشورة حديثا يدرك عمق تصور دو سوسير وحواره المستمر مع تصورات الفلاسفة وما كانت تختبره مناهجهم الفكرية وما كانت تعانيه من مسائل، سواء ما اتصل منها باللغة اتصالا مباشرا أو ما تعلق بإحدى خصائصها أو مظهرا من مظاهرها، وهو لا ينفك إذا ما رأى فيهم زيغ عن حقيقة الأمور أن يؤكد عليه، ومن ذلك مثلا التنبيه على جهل فلاسفة القرن الثامن عشر لطبيعة الألسن الاجتماعية[25]، وهو ما يضطره أحيانا إلى الإعراض عن بعض هذه التصورات، ومن ذلك مثلا انصرافه عن المدلول الفلسفي لمفهوم القانون، بصريح عباراته: «لسنا نبغي التفلسف حول مصطلح القانون، إنما نستخدمه كما هو جرى العرف العام على استعماله، وبالمعنى الذي سار بين العامة»[26].

ولئن كان نقد النتائج التي خلصت إليه العلوم هو واحد من المهام الرئيسة التي تسعى إلى الاضطلاع بها البحوث الإبستيمولوجية، فإننا لا نحسب أنفسنا نجانب الصواب لو شهدنا بأن فكر دو سوسير كان فكرا إبستيمولوجيا بامتياز، وهو فكر لا يقتصر على النقد لمجرد النقد، ولكن العادة جرت عند دو سوسير من أن تكون النقود مشفوعة في غالب الأحيان بتصور نقيض أصيل لا يركن إلى

(24) باروخ بروي، قراءات في فلسفة العلوم، تر. نجيب الحصادي، بيروت، دار النهضة العربية، 1997، ص. 19.

(25) F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p.94.

(26) - Idem, p.104.

التخمينات، بل يتأسس ويؤسس، ومن ذلك انتقاده لتصور بعض اللغويين والفلاسفة للعلاقة التي تنعقد بين الرمز والفكر، وما ينتج عن هذا التصور الفاسد من استنكار للدراسة الآنية، والركون إلى الممارسات التاريخية(27).

اللغة، أصلها وعلاقتها بالفكر

لقد آن لنا الآن أن نعرض ببعض من الإيجاز إلى بعض المسائل ذات الصلة الوثقى بفلسفة دو سوسير اللغوية، وإننا نعني ههنا بفلسفة اللغة معناها العام الذي يشمل التعاطي مع جملة المسائل الفلسفية ذات الصلة باللغة من مثل النظر في أصلها، وعلاقتها بالكفر، وبالواقع، ولئن كنا غالبا ما نقرأ، أو نسمع، عن الفلاسفة، أو علماء الاجتماع، أو علماء النفس، أو علماء اللسانيات وغيرهم من الباحثين، قولهم أن اللغة ظاهرة إنسانية، أو أنها ظاهرة ثقافية، أو أنها ظاهرة اجتماعية، أو أنها ظاهرة لسانية، أو أنها ظاهرة صوتية، ولكن نادرا ما نلفيهم ينظرون في كونها مجرد ظاهرة، دون إحالة إلى ميدان بحث معين، أو إلى وجهة نظر محددة، لكننا ألفينا دو سوسير، في غير موضع من كتاب الكتابات في اللسانيات العامة المنشور حديثا ينعت اللغة بصفتها ظاهرة «phénomène»، ولعل أهم النقود التي وجهها إلى لغويي عصره ومن قبلهم عدم تنبههم إلى هذا المعطى.

إن المتصفح لكتابات دو سوسير المنشورة مؤخرا يدرك دون عناء، إذا ما تأمل المسائل المتصلة باللغة والألسن، درايته بالمسائل الفلسفية التي شغلت عصره، ويستنتج موقفه منها، ولعل مسألة أصل اللغة كانت واحدة من المسائل الفلسفية التي راودت تأمله منذ سن مبكرة، لكن التأمل الفلسفي لم ينفصل قط عن التحليل اللساني إذ نراه في أولى إنجازاته الفكرية يحاول منذ سن الرابعة عشر من عمره تصور نسق شمولي عن الألسن من خلال رد كلمات الألسن اليونانية واللاتينية والألمانية إلى عدد محدود من الجذور(28)، وعلى الرغم من

(27) - Idem, p.208-209.

(28) - F. de Saussure, «Essai pour réduire les mots du grec, du latin et de l'allemand a un petit nombre de racines», édité par B. Davis, Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 32, 1978, pp. 73-101.

إعراضه عنه، فإن الناظر في هذا العمل المبكر يدرك مدى تأثر دو سوسير الشاب بفلسفة عصره اللغوية وتبدو فيه ملامح فكر جون جاك روسو الفلسفية حاضرة لاسيما ما اتصل منها بكتابه في أصل الألسن[29]. لكن المسألة سرعان ما توارت عن أولويات البحث اللساني عند دو سوسير، بل وبدت من وجهة نظر فلسفة اللسانيات أنها مسألة لا طائل من ورائها، وقد تؤدي إلى بعض التصورات الفاسدة.

ولقد أبانت كتابات دو سوسير المنشورة مؤخرا عن هذا الموقف بجلاء، ففي حديثه عن ظاهرة التغيرات التي تطال الألسن يقرر دو سوسير بأن «دراسة اللغة في مقدورها الآن الإقرار أولا بأن حقيقة هذه الظاهرة هي عينها في كل مكان، وأنها كانت دائما كذلك، ومن الخطأ الاعتقاد بأن مسألة أصل اللغة تختلف عن مسألة تحولاته، وليس الأمر سيان لو افترضنا أن قوى أخرى، لا يمكننا التعرف عليها من طريقة كلامنا اليوم، أثرت قديما في اللغة، لكن هذا الافتراض لا يمت بالواقع بشيء، إذ يقود إلى إسناد للبشرية الأولى ملكات وحواس مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي نملكها، وثالثا أن ظاهرة التحولات اللسانية هي دائما من نوعين تعود إلى نوعين من العلل التي لا صلة بينهما: فهناك من ناحية التحولات الصوتية ومن ناحية أخرى التحولات القياسية»[30].

وعلى الرغم من أن جمعية باريس اللسانية «Société de linguistique de Paris» أعلنت سنة 1866 عدم قبولها البحوث التي تعيد طرح مسألة أصل اللغة، فإن الباحثين في علوم اللغة وفلسفتها ما استطاعوا التحلل منها وظلت دراساتهم حبيسة الأدراج لا تتعدى قلة من الأفراد، وها هي المسألة تبرز من جديد في أدبيات اللسانيات، مستندة في أبحاثها إلى ما حققته اللسانيات من استكشافات في مجال المقارنة، فضلا عن العلوم الحديثة من مثل علم الأحياء، وعلوم الطبيعة، والأنثروبولوجيا وغيرها[31]. لكن البحث في المسألة سيبقى في نظر دو

(29) - J.-J. Rousseau, Essai sur l’origine des langues, Paris, A. Belin, 1817.

(30) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 159.

(31) - J.-M. Hombert et G. Lenclud, Comment le langage est venu à l’homme, Paris, Fayard, 2014.

سوسير بحثا يفتقد إلى العلمية ولقد تجلى هذا الرأي في أحسن صوره في إحدى الفقرات من كتاب الكتابات في اللسانيات العامة إذ يقول: «أصل اللغة: المسألة عديمة الفائدة بالنسبة للذي له فكرة صائبة عما هو النسق السيميولوجي وظروف حياته، قبل أن ينظر في ظروف نشأته. ليس ثمة مرحلة ما تختلف فيها حياة اللغة عن نشأتها»[32]، ولعل هذه الفقرة تدل دلالة صريحة بما لفلسفة اللغة من ارتباط وثيق بالسيميائيات (السيميولوجيا) في فكر دو سوسير.

لقد ذهب بعض الباحثين إلى تفسير عدول دو سوسير عن الخوض في مسألة أصل اللغة وإخراجها من مجال نظر اللسانيات بتأثره بالمذهب الوضعي لأوغست كونت[33]، ولئن كان الأمر كذلك، فإن الأكيد أن دو سوسير كان مطلعا بفكر كونت ومدى تأثيره في علوم عصره، ويكفي للمرء أن ينظر في قائمة الكتاب الفلسفية التي أعدها دو سوسير للاقتناء عندما كان يشرف على مكتبة كلية الآداب لجامعة جنيف ليتبين له ذلك، فهي تحتوي على عناوين مؤلفات انخرط أصحابها في التيار الوضعي انخراطا تما من مثل أنطوان كورنو، بول جاني، إيميل بوتروس، أندري لالند، أنغري بوانكاري[34].

وليست مسألة أصل اللغة المسألة الفلسفية الوحيدة التي تناولها دو سوسير أو أشار إليها سواء في كتاباته أو في دروسه في اللسانيات العامة، بل إن مسائل فلسفية أخرى شغلت باله، ومن بينها مسألة العلاقة القائمة بين اللغة من جهة والفكر والعقل من جهة أخرى. وفي هذا الشأن فإن تصور دو سوسير حول العلاقة القائمة بين العلامة والفكر أكثر وضوحا وثباتا مما هي عليه في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه. ففي نظر دو سوسير، «ليس الفكر هو الذي ينتج العلامة، بل إن العلامة هي التي توجه الفكر (بل تنتجها في واقع الأمر، ثم تمكنها من إنتاج العلامات»[35]. لكن النظر في

(32) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p.228.

(33) - F. Reboul, Influences positivistes sur Ferdinand de Saussure (1), L'origine du langage et la langue artificielle», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 62, 2009, p. 153-168.

(34) - S. Bouquet, Introduction à la lecture de Saussure, Paris, Payot, 1997, p.250.

(35) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 46.

العلاقة القائمة بين اللغة والفكر لا يستوي إن لم تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة التاريخية والاجتماعية للغة، ومن هذا المنطلق عاب دو سوسير على علماء النفس قلة معرفتهم بالقوانين التي تسير اللغة قائلا: «لم يكن لعلماء النفس، قدماء ومحدثين، إذا ما هم أومئوا إلى الألسن أو اعتبروها حاملا للفكر، فكرة عن قوانينها. إنهم بدون استثناء يعتقدون بأن اللسان «langue» شكل ثابت، إنهم يتحركون ضمن ما أسميه بالمقطع الأفقي للسان، دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عن الظاهرة الاجتماعية والتاريخية التي تنتج عنها»(36).

ولئن ورث علم النفس النظر في إشكالية العلاقة القائمة بين اللغة والفكر عن التفكير الفلسفي فذلك لأن الفلسفة ما حادت يوما عن فكرة الارتباط المتبادل بينهما، فاللغة تعبير عن الفكر وإبراز له، لذلك ترى مصطلح اللغوس يدّل، منذ استعمالاته اليونانية الأولى وفي استخداماته الفلسفية الحديثة، تارة على اللغة ويعني تارة أخرى الفكر. ولقد كان من الطبيعي أن يتساءل القوم عن طبيعة هذا الارتباط، فهل بمقدورنا التفكير دون اللجوء إلى اللغة، أم أن الفكر لا وجود له دون وجود اللغة؟ لقد ذهب برغسون المذهب الأوّل وادعى أن الفكر الحقيقي ليس بالضرورة فكرا لسانيا، بل إن للفكر استقلالا ذاتيا عن اللغة وهي الدعوى التي لخصتها مقولته الشهيرة: «إن الفكر يظل مستقلا مع اللغة»(37).

ولئن كانت العلامة، في عرف دو سوسير، هي التي تنتج الفكر، وليس الفكر هو الذي ينتجها، فإن العلاقة القائمة بين العلامة والفكرة ليست في آخر المطاف من بين المسائل الجوهرية التي يجب البحث فيها والاستمرار في التجادل حولها، بل «إن القاعدة التي يمكن الاطمئنان إليها، والتي يمكن معاينتها، والتي تمثل المرتكز الأوّل والأخير لكل اعتبارات لسانية، وتاريخية، وفلسفية ونفسية، ليست الشكل ولا المعنى، وليست العروة الوثقى التي لا

(36) - Idem, p102.

(37) - H. Bergson, Les données immédiates de la conscience, Paris, 1927, p.202.

انفصام لها بين الشكل والمعنى، وليس أيضا الاختلاف بين المعاني، بل إن مدار الأمر على الاختلاف القائم بين الأشكال»[38].

في بيان مفهوم العلامة وموقعها من سيميائيات دو سوسير

لازلنا لا نعلم الكثير من سيميولوجيات دو سوسير على الرغم من الزخم المعرفي الذي رافق تلقيها من قبل الباحثين الغربيين، وإن الباحث وهو يتصفح ما استجد من لسانيات دو سوسير الجديدة، المستندة إلى ما كتبه دو سوسير حقا، وخاصة ما اتصل بفكره السيميولوجي من مخطوطاته التي ما انفكت الأقلام تتنافس في تحقيقها، ونشرها، والتعريف بها، وقراءتها وتفسير ما عم أو غمض منها، إلى درجة تجعل الباحث منا يعزف تماما عما قيل من قبل عن هذا الفكر السيميولوجي، سواء ما تناقله كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة ومؤلفات المتشبثين به، أو ما أحدثته النظريات السيميولوجية المنتسبة إليه، إن الباحث وهو يتصفح كل هذا ليزداد إعجابا بدو سوسير.

وفي هذا الشأن نريد قبل المضي في التعريف ببعض ما جد في حقل السيميائيات المعاصرة، ولاسيما ما ارتبط بمفهوم العلامة عند دو سوسير، أن نشير إلى ما عثر عليه سيمون بوكي، أحد محققيْ كتاب «كتابات في اللسانيات العامة»، ضمن مخطوطات دو سوسير الجديدة التي تحصلت عليها مكتبة جنيف. وفي هذا المخطوط يكشف دو سوسير عن تصور سيميولوجياتي لا نجد له مثيل في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وهو في شكل معادلة على النحو الذي يلي: «السيميولوجيا = المورفولوجيا، النحو، التركيبيات، الترادف، البلاغة، الأسلوبيات، المعجميات، الخ، الكل متصل»[39].

(38) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p.102.

(39) - S. Bouquet, «D'une théorie de la référence à une linguistique du texte : Saussure contre Saussure ?», Cahiers Ferdinand de Saussure, N° 52, 1999, p. 42.

(Sémiologie =
morphologie, grammaire, syntaxe,
synonymie, rhétorique, stylistique,
lexicologie, etc.
... le tout étant inséparable)

(phonétique)

إن المتأمل في هذه المعادلة تستهويه مقابلتها بالمعادلة التي أسر بها شارل سندرس بورس للسيدة ويلبي حينما قال لها: «اعلمي أنه منذ سن الثانية أو الثالثة عشر، منذ اليوم الذي تناولت فيه من على الأرض، في حجرة أخي الأكبر، نسخة من منطق رتشارد واتلي، وسألته ما المنطق؟ وأجابني إجابة بسيطة، فجلست على الأرض وباشرت قراءته، منذ ذلك اليوم، لم يعد في مقدوري أبدا أن أدرس أي شيء كان - رياضيات، أخلاقا، ميتافيزيقا، جاذبية، دينامية حرارية، بصريات، كيمياء، علم تشريح مقارن، علم نفس، صوتيات، تاريخ علوم، رجال ونساء، نبيذا - إلا بوصفها دراسة سيميائية»[40]. وفي هذا

(40) C. S. Peirce, Ecrits sur le signe, tr. par G. Deledalle, Paris, éd. Seuil, 1978, p. 56.

إشارة واضحة إلى أن النظرية السيميائياتية التي رام صياغتها كانت من الشمولية ما مكّنها من أن تنطبق على جميع العلوم التي درسها. لكننا نروم التقيد بخصوصية فكر دو سوسير السيميائياتي وأوّل ما نطمئن إليه أنه تصور لساني بالدرجة الأولى، يؤسس لوحدة لا انفصام لها، في إطار السيميولوجيات اللسانية، بين فروع اللسانيات المعهودة من مثل المورفولوجيات، والمفرداتيات والتركيبيات والدلاليات، وهي علوم تعنى بدراسة اللسان، وعلوم أخرى تتصل بدراسة الكلام من مثل البلاغة والأسلوبيات وغيرها، وهو تصور ينسجم غاية الانسجام مع تصور دو سوسير للسانيات التي لا يمكن الفصل فيها بين لسانيات للسان ولسانيات للكلام كما روج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير.

وتصب في هذا المسعى تفسيرات فرانسوا راستيي للمعادلة، وهي تفسيرات غايتها إعادة النظر في السيميولوجيا السوسيرية بوصفها لسانيات للنص، واقتراح ترتيب جديد للمعارف التي تستدعيها من خلال الإقرار بما يلي:

- «إن السيميولوجيات تشمل مستوى المحتوى اللساني برمته، فإذا ما أقررنا بأن اللسانيات هي سيميولوجيات الألسن، فإن السيميولوجيات التي تعرف بها هذه المعادلة تعد دلاليات لسانية جامعة، ولعل مصطلح الترادف يدل ههنا على الدلاليات المقتصرة على المستوى المعجمي، لاسيما إذا علمنا أن الدلاليات المعجمية نشأت عن نظرية الترادف التي كانت عصر الأنوار.

- إن السيميولوجيات تألف ههنا بين المستويات الثلاث المعهودة: من الكلمة (المورفولوجيات، المعجميات، الترادف) إلى المقطوعة ثم إلى الجملة (التركيبيات، النحو) وصولا إلى النص (البلاغة والأسلوبيات تحبذان النص المكتوب أو الشفوي).

- إن المواد العلمية هذه لا تنتظم استنادا إلى وجهي العلامة، بل تنتظم وفقا لمستويات اللغة»[41].

---

(41) F. Rastier, Saussure au futur, Paris, Les Belles Lettres, 2015, pp. 157-158.

لقد حاول تيليو دو مورو، وهو واحد من المتخصصين في لسانيات دو سوسير، إعادة رسم معالم تطور فكر دو سوسير اللساني: «يمكنني القول بأن دو سوسير، سواء في كتاباته أو في دروسه، كان يجابه أربعة مسائل رئيسية: أما المسالة الأولى فهي التعرف على الطابع العلائقي للوحدات اللسانية. إن الوحدة اللسانية لا تكتسي في ذاتها أية قيمة بل تكتسي قيمتها من العلاقات التي تقيمها مع الوحدات التي تتواجد معها. وتعد هذه المرحلة من فكر دو سوسير المرحلة الأولى من توالي أفكاره النظرية وهي تتجلى ضمن ما دونه من أفكار كانت معدة لمقال عن ويتني وبعض النصوص المنشورة ضمن كتاب كتابات في اللسانيات العامة. أما المسألة الثانية فهي الطابع السيميولوجي للألسن. إن اللسان، بوصفه نسيجا من العلاقات، يعد في نظر دو سوسير نسقا من العلامات، متميز عن باقي أنساق العلامات الأخرى. وتعبر هذه المرحلة عن موقف إبستيمولوجياتي إذ يتعلق الأمر بالبحث عن موقع اللسانيات من مجموع العلوم كيفية تحديده. ولئن كانت اللغة سيميولوجياتية من نوع خاص، فهلا ثمة شيء يميزها عن الباقي. ولذلك فإن المرحلة الثالثة تبدأ بمساعي دو سوسير الأولى الرامية إلى التعرف عن سيميولوجيا خاصة باللغة. وأولى الإجابات التي يقدمها في هذا الشأن تتجلى في توكيده على الطابع الخطي للعلامة اللسانية، ويفضي به إلى إبراز تتابع الأجزاء المكونة للجملة، والتي أسماها، في بعض مخطوطاته السابقة، وفي دروسه من السنة الجامعية الثانية (1908-1909)، بالتركيب «syntagme». كما تبرز في دروس هذه السنة الإقرار بالطابع الاجتماعي للسان، لكن المرحلة الرابعة تسلمه إلى البحث في اللسان بوصفه شكلا، وهي المرحلة التي تبدأ بدروس السنة الجامعية الثالثة (1910-1911)»[42].

ولئن كنا في هذا الاقتباس عن تيليو دو مورو لم نف تطور فكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائياتي حقه، ولم نوفق كل التوفيق في التعبير عن مراحله المتداخلة، فذلك لأن الغاية القصوى من هذا الفصل إعادة النظر في بعض المفاهيم المتصلة بمفهوم العلامة دو غيرها من المفاهيم والتصورات السيميائياتية

(42) - T. de Mauro, «Saussure sur le chemin de la linguistique», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 59, 2006, pp. 41-54.

المعروفة عن دو سوسير، كما إنه يستكشف ملامح نحسبها ذات أهمية بالغة في فكر دو سوسير، متصلة بتصوره اللسانياتي السيميائياتي، وهي النظر في طبيعة اللسان بوصفه نسقا من العلامة، قصد التميز عن تصورات القرن التاسع عشر للسان بوصفه مدونة من الكلمات، والتحقق من خصوصية العلامة اللسانية، بالتوكيد على طابعها الخطي، مقارنة بأنماط العلامات الأخرى.

إن النظر في لسانيات دو سوسير بوصفها سيميائيات خاصة له ما يبرره من كتابات دو سوسير، كما إن الثنائية القائمة بين السيميائيات العامة والسيميائيات الخاصة ثنائية واردة. ولقد أضحت السيميائيات العامة، في الفكر العلمي المعاصر، ذات أثر بليغ في تطور العلم وتمثل العديد من مسائله، ذلك لأن السيميائيات العامة غايتها إبراز الصلات التي تربط الأنساق الدالة فيما بينها، وهي تنزع إلى المستوى التجريدي، للإجابة عن بعض التساؤلات التي لا ينفك الإنسان يطرحها؛ من قبيل التفكير في معنى الكلام والتكلم عند الإنسان، عن ماهية المعنى، وكيفية اشتغاله، ووصفه، وطبيعة علاقته بالواقع، وغيرها من الأسئلة الأخرى المرتبطة بأشكال المعرفة وشروط تحققها. ولا ريب في أن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة إنما يستوجب إشراك عدد من العلوم الإنسانية مثل فلسفة اللغة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرها من العلوم التي تدارست هي الأخرى مسائل تتصل بالمعنى، وما من شك أيضا في أن إشكالية المعنى ستظل نقطة التقاء هذه العلوم بالسيميائيات لارتباطه، أي المعنى، بالتجارب الإنسانية المتنوعة والمتجددة، ارتبطا وثيقا. ولو نظرنا في أجهزة المصطلحات المتداولة من قبل مختلف اتجاهات السيميائيات ومدارسها لألفينا هذه الأخيرة تشترك في عدد من هذه المصطلحات، حتى وإن تفردت في تحديد المفاهيم التي تحيل إليها، ولعل مصطلحات العلامة، والنسق الدال، واللغة، والنحو، والوظيفة السيميائية، والتعبير والمحتوى، وغيرها كثير، أضحت إرثا اصطلاحيا لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال، بل إن كل المشاريع السيميائية إنما تبدأ معالمها تتشكل انطلاقا من التعريف بمواقفها إزاء هذا المصطلح أو ذاك، وتحديد تصورها إزاء عملية إنتاج المعنى وتلقيه، واقتراح نموذج تحليلي يعبر عنها، كما هو الشأن بالنسبة للسيميائيات الخاصة.

والسيميائيات الخاصة تعنى بوصف قواعد لغة بعينها، وغايتها صياغة نحو خاص بها يتميز عن باقي أنحاء اللغات الأخرى بخصائص تضمن له الاستقلال والتفرد. ويتألف هذا النحو عادة من نوعين من القواعد: 1) قواعد عامة، قد تبلغ أحيانا مرتبة الشمولية، وظيفتها وصف خصيصة مشتركة بين عدد من اللغات، أو اللغات جميعها، مثل خصيصة الخطية التي تشترك كل الألسن فيها، و2) قواعد خاصة بلغة بعينها لا تتعداها إلى لغات أخرى، فلغة الإشارات مثلا تستلزم وضع قواعد وصفٍ خاصة، فهي تشكل نسقا تختلف دواله ومدلولاتها من ثقافة إلى أخرى. ويُفترض قبل هذا الوصف أن السيميائيات الخاصة حددت مجال اشتغالها تحديدا دقيقا يستند إلى معيارين ثابتين هما: أولا، إنها تستقي وجودها من مدونة متجانسة من القواعد التي يمكن ردها إلى مخطط واحد، وثانيا، أن هذه القواعد مختلفة عموما عن القواعد التي تسير عمل لغة مجاورة لها[43]. وهذه القواعد ثلاثة أنواع، منها ما يخص تكوين الوحدات، ومنها ما يخص طرائق تعلقها بعضها ببعض، ومنها ما يخص استخدامها.

إن صياغة سيميائيات عامة مرهون بالدلالة التي يرتضيها الباحثون لمصطلح اللغة الذي انتقل من دلالته على مجموع الألسن البشرية وخلاصة الخصائص التي تشترك فيها إلى دلالته على كل نسق صوري من العلامات، وعلى وجه الخصوص، بالتخلي عن كل المحاولات التي ترمي إلى إسقاط التحاليل السيميائية ذات المنشأ اللساني عليها، من خلال البحث في هذه الأنساق غير اللسانية عما يمكن أن تحتويه من خصائص شبيهة بالخصائص المميزة للغة البشرية كتلك التي تقدم بها هوكت وألتمان، مثل خواص الاعتباطية، والثنائية أو التقطيع المزدوج، والإنتاجية، وتميز العناصر، والتدلال، والاستحضار، والتبادل، والاسترجاع، والتخصص، والتوارث الثقافي، وغيرها من الخصائص التي قد تجد فيها بعض الأنساق الدلالية غير اللسانية بعض من الميزات المشتركة معها[44].

(43) J. M. Klinkenberg, Précis de sémiotique générale, Paris, Seuil, 1996, p. 30.

(44) - J. Lyons, Eléments de sémantique, tr. par J. Durand, Paris, Larousse, 1978, pp. 62 et s.

إن كثيرا من الأبحاث السيميائية التي عنيت باللغات غير البشرية لم ترتق إلى ما حققته السيميائيات اللسانية، فالممارسات الحركية، مثل الحركات الجسدية، والرقص، وغيرها، وإن لم يسلبها أحد من الباحثين ميزة التواصل التي تشترك فيها، وطابع النسقية التي يحكمها، إلا أنها ما تزال تسعى إلى تحديد العناصر الدنيا التي يمكن للتحليل السيميائي التعامل معها، فهل للعلامة الحركية دوال قارة تنوب في كل الأحوال عن مدلولات، وما هي طبيعة العلاقات التي تقيمها العلامات الحركية مع العلامات اللسانية حينما تجتمعان ضمن مرسلة واحدة. وههنا تشير كرستيفا(45) إلى أن قيمة الحركة بوصفها فعلا دلاليا، أو بالأحرى آلية تنبعث منه الدلالة قبل أن تتحدد في الكلام، أثارت اهتمام الحضارات، والأديان والفلسفات المختلفة. فقد كان للحركة الدور الحاسم في نشأة التعبير الرمزي، والكتابي على وجه الخصوص، فالحركة، ومنها الإشارة، يبدو أنها سبقت تسمية الأشياء والعام المحيط، إلى درجة أن التواصل الحركي عادة ما يتحد بالفضاء الذي يحتضنه، كما هو ثابت في كثير من الشعائر الدينية والطقوس الاحتفالية في مختلف الديانات.

إن الاختلافات الجمة التي تميز الأنساق الدلالية غير اللسانية عن نسق اللغة البشرية هو الذي حال دون صياغة سيميائيات عامة قادرة على استيعاب هذه الفروق، لاتخاذ هذه الأخيرة النسق اللساني في الكثير من الأحيان نموذجا يحتذى به، على الرغم من أن بعض الحقول الإبداعية استجابت إلى حد ما للتحليلات السيميائياتية التي أثبت جدارة في ميدان اللسان والأدب، مثلما هو حال سيميائيات الموسيقى التي أثرت المعرفة السيميائياتية باستلهامها لأفكار بورس، وسوسير، وغريماس، وغيرهم من رواد السيميائيات. ولا ريب في أن تتصل سيميائيات الموسيقى بفكر بورس وهو الذي صاغ أصنافه الفانيروسكوبية، الأولانية، والثانيانية، والثالثانية، مستعينا بمثال من الموسيقى، وهو النغم(46).

(45) J. Kristeva, Le langage, cet inconnu, Paris, Seuil, Coll. Points, 1981, p. 300.

(46) - E. Tarasti, la musique et les signes. Précis de sémiotique musicale, tr. par D. Charles et E. Gorge, Paris, l'Harmattan, 2006, p. 21.

النسق

يعد مفهوم النسق من بين المفاهيم التي استعانت بها لسانيات دو سوسير في تحقيق القطيعة مع التصورات السابقة لطبيعة العلامة وعلاقاتها بالفكر والعالم. ولقد بدأ هذا المفهوم يتبلور في فكر دو سوسير السيميائياتي انطلاقا من النقود التي وجهها إلى سابقيه ومعاصريه من لساني القرن التاسع عشر، لاسيما إلى تصورهم الألسن البشرية مدونات من المفردات. ويعد تصور اللسان مدونةً من مفرداتٍ تحيل إلى عالم خارجي من بين التصورات التي ورثتها اللسانيات الحديثة عن أرسطو وقواعد بور رويال(47)، ولا تزال تتداولها بعض نظرياتها على الرغم من النقود الصريحة الذي وجهه لها دو سوسير وكثير من اللغويين المحدثين من بعده من مثل مارتني(48) ويمسليف(49) وغيرهما. وهو تصور يجعل من اللسان قائمة من الكلمات تقابل مجموعة من الأشياء ليس إلا، فيحجب حقيقة اللسان بوصفه نسقا من العلامات وطبيعة هذه الأخيرة الاعتباطية.

وليس يعنينا في هذا المقام ما آل إليه مفهوم النسق في أدبيات لسانيات القرن العشرين وما ورثته النظريات اللسانياتية من تصورات سيميائياتية نهلتها من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب لدو سوسير بقدر ما يعنينا تصور دو سوسير الأصيل كما هو مبثوث في كتاباته الأصلية. ولعل أقدم هذه النصوص مذكرته في النسق الأصلي للصوائت في الألسن الهندية الأوروبية التي نشرت أوّل الأمر سنة 1878 وكان عمره لا يتعدى آنذاك 21 سنة، وهي النتاج العلمي الذي أهله بجدارة بأن يتبوأ المكانة المحمودة ضمن المجتمع العلمي لمدينة ليبزغ الألمانية. ولئن كان الهدف الذي رامه دو سوسير في مذكرته هذه هو دراسة مختلف الصيغ «formes» التي برز فيها ما كان يسمى ب a الهندي الأوروبي، فإن مفهوم النسق هو الذي كان يحدد مسار تطور الفكر فيها، على حسب ما بينه في مقدمتها، قائلا: «إن الموضوع الرئيس لهذا الكتيب هو دراسة

---

(47) - T. de Mauro in F. de Saussure, Cours de linguistique générale, note 129, p 439.

(48) - A. Martinet, Eléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1980, pp. 10-11.

(49) - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, pp. 49-53.

الصيغ المتعددة التي يتجلى من خلالها ما يسمى ب a الهندي الأوروبي، أما سائر الصوائت الأخرى فإننا لا ننظر فيها إلا إذا دعتنا الظواهر المتصلة ب a إلى ذلك. فإذا ما فرغنا من رسم معالم الحقل اللساني، وبدا لنا جدول التصويت الهندي الأورورِبي وقد تحول رويدا رويدا وانتظم حول الصوت a وإذا ما أردنا أن نتخذ موقفا إزاءه فإن ما يعنينا في المقام الأول هو نسق الصوائت بكامله، والذي هو الذي يجب أن يشار إليه منذ الصفحة الأولى»[50].

لقد حجب كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير ردحا من الزمن كتاباته السابقة، وهي مجموع مقالاته التي قدمها إلى جمعية باريس اللسانية ومذكرته ودكتوراه، وهي على الرغم من جمعها ونشرها سنة 1921[51]، إلا أنها توارت عن اهتمام الباحثين على الرغم من أنها تمثل أحسن تمثيل الفكر السوسيري الأصيل ونواته الأولى، لاسيما المذكرة في النسق الأصلي للصوائت في الألسن الهندية الأوروبية، فهي تختزن في نظر العديد من المهتمين بالفكر السوسيري بعض الملامح العلمية من مثل النزعة نحو التجريد والشمولية.

ونريد قبل أن نأتي إلى شيء من التفصيل في مفهوم النسق عند دو سوسير من خلال استعراض بعض المواطن منها، أن نشير بشيء من الإيجاز إلى ما أصبح يعرف بمدونة دو سوسير العلمية، وهي التي يراد بها مجموع الأعمال التي حملت اسمه، سواء ما كتبه بخط يده أو ما أملاه. ولقد رتب فرانسوا راستيي هذه المدونة إلى مراتب مختلفة، أما المرتبة الأولى من النصوص فهي تلك التي كتبها دو سوسير بخط يديه وإليها تنتمي النصوص التي نشرت إبان حياته، وتلك التي نشرت من طرف رودلف أنغلر، وتلك التي نشرت مؤخرا من قِبل سيمون بوكي ورودلف أنغلر، ضمن كتاب «كتابات في اللسانيات العامة»، سنة 2002، وتنتمي إلى هذه المرتبة النصوص السوسيرية المخطوطة المودعة

(50) - F. de Saussure, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Leipsick, B. G. Teubner, 1879, p. 1.

(51) - Recueil des publications scientifiques de F. de Saussure, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Leipsick, B. G. Teubner, 1879, p. 1.

بمكتبتي جامعتي جنيف وهارفارد. ويأتي في المرتبة الثانية ما دونه طلبته من محاضراته، سواء ما سُجل من المحاضرات في اللسانيات العامة، والتي قام بنشرها جزء منها شارل بالي وألبير سشهاي، أو ما دونوه من المحاضرات الأخرى من اللسانيات التاريخية الهندية الأوروبية. أما المرتبة الثالثة فهي من نصيب كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي أخرجه شارل بالي وألبير سشهاي للناس سنة 1916[52]، ويمكننا أن ندرج ضمن هذه المرتبة بعض الترجمات العالمية التي يعتد بها، ونستثني منها الترجمات العربية ونصنفها ضمن المرتبة الرابعة، نظرا للخلل والاختلاف اللذين شاباها.

وتعد المذكرة في النسق الأصلي للصوائت في الألسن الهندية الأوروبية أحد المنافذ إلى فكر دو سوسير الأصيل وفيها تبلورت أولى خصائصه العلمية. ولئن أشار راستيي إلى التناقض الصارخ بين محتوى هذه المذكرة وكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة[53]، فذلك لأن المذكرة تنبأ عن جانب كبير من التجانس بين مكوناتها والتحامها، خلافا ما هو عليه كتاب المحاضرات الذي يشوب أجزاءه الاضطراب إلى حد التناقض في بعض المواطن منه. لقد تمكن دو سوسير، في هذه المذكرة، من خلال وصف القواعد التصريفية للسان الهندي الأوروبي، من التعرف على فونيمين «phonèmes» مجهولين منه، أو ما عرفا فيما بعد بـ «coefficients sonantiques» أو «laryngales».

ولقد تنبه الباحثون المحدثون إلى ضرورة إعادة النظر في موروث دو سوسير اللسانياتي، ولاسيما مذكرته، من منظور ما استجد من مخطوطاته في اللسانيات العامة. ولقد كان بنفنست أبدى إعجابه منذ مطلع ستينيات القرن الماضي من صنيع دو سوسير في مذكرته، فهو في نظره رجل مؤسس، طبعه التوجه مباشرة إلى الخصائص الجوهرية الرئيسية الأولية، فقد استطاع التعرف على ما يميز اللسان عن غيره. إن البحث عن خصوصية اللسان مقارنة بغيره (من الأنساق السيميولوجية) يقود في نظر بنفنست إلى طرح السؤالين التاليين: 1) ما

(52) F. Rastier, Saussure au futur, p.33.

(53) - F. Rastier, «de l’essence double du langage, un projet révélateur», Arena Romanistica, nº 12, 2013, pp. 6-28.

هي المعطيات الرئيسة التي يجب على اللسانيات أن تستند إليها وكيف السبيل إلى الوصول إليها؟ 2) ما هي طبيعة المفاهيم وهو نمط ترابطها؟ وهما سؤالان ما انفكا يوجهان التفكير السوسيري منذ زمن المذكرة[54].

ولئن نحن أفضنا الآن من تحقيق أهمية مفهوم النسق في فكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائي وعدنا بهذا الاهتمام إلى النشأة اللسانياتية الأولى لدو سوسير، فقد آن لنا أن نستقر على دلالة هذا المفهوم، ولقد بين دو سوسير ذلك بكل وضوح، «إن نسق اللسان لا يتمثل إذن في تواجد عدد من الأشكال «formes» A,B,C,D... كما تفترضه مؤلفات كثيرة في اللسانيات، ولا يتمثل في تواجد عدد من الأفكار a,b,c,d... وهو ما لا نعتقده البتة، ولا يتمثل أيضا في تواجد نسب بين الأشكال والأفكار a/A,b/B,c/C,d/D... حتى وإن مثل هذا التصور تطورا ملحوظا بالنسبة للتصور السابق بحيث يؤسس لثنائية كل عنصر، ليس هذا ولا ذاك، إنما يتمثل هذا النسق في اختلاف مبهم قائم بين المعاني سائر فوق سطح الاختلاف القائم بين الأشكال، دون أن يتطابق الاختلاف الأول بالاختلاف الثاني ولا الاختلاف الثاني بالأول»[55].

يجب أن نعترف قبل أن نمضي إلى التفصيل في هذا التعريف أنه سيظل عسيرا على الفهم، لو لم ندرك أن مفهوم النسق لا ينفصل، في فكر دو سوسير، عن مفهوم الشكل كما إنه لا ينفصم عن مفهوم القيمة، بل إن الواحد منها يستدعي دوما الآخر، ذلك أن النسق نسق من العلامات وهو في الآن ذاته نسق من القيم، ولا يمكننا أن نتمثل هذا التعريف إلا بالتوكيد على مفهوم القيمة في فكر دو سوسير، وهو يقول في هذا الشأن: «إن القيم التي يتألف من نسق اللسان أساسا، أو أي نسق من الإشارات، لا تتمثل في الأشكال ولا في المعاني، ولا تتمثل في العلامات ولا في الدلالات، إنما تتمثل في نسبة «rapport» عامة قائمة بين العلامات والدلالات، نسبة قائمة هي الأخرى على

(54) - E. Benveniste, «Saussure après un demi-siècle», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 1963, p. 8-9.

(55) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p.82.

الاختلاف العام القائم بين العلامات فيما بينها من جهة وبين الاختلاف العام القائم بين الدلالات فيما بينها»[56].

وحتى نتمثل هذا التصور تمثلا أعمق يجب أن نتمثل قبل ذلك تمييز دو سوسير بين الصورة الصوتية «figure vocale» والشكل «forme»، ويعد هذا التمييز إحدى الركائز الرئيسة التي يمكن أن يؤسس عليها البحث اللسانياتي، ولقد أشار إليه دو سوسير منذ الصفحات الأولى من كتابه الجديد «كتابات في اللسانيات العامة»، المحقق من قبل سيمون بوكي ورودلف أنغلر، قائلا: «يبدو في واقع الأمر مستحيلا تفضيل إحدى الحقائق اللسانياتية عن غيرها حتى تغدو المنطلق الأوّل في اللسانيات، لكن ثمة حقائق أساسية، خمس أو ست، متصلة فيما بينها اتصالا وثيقا إلى درجة يحسن البدء بأي منهن فنصل منطقيا إلى الأخريات، ونصل إلى كل النتائج نفسها كما لو بدئنا بأي حقيقة أخرى. ويمكننا الاكتفاء مثلا بالقول إنه من الخطأ (ومن المتعذر أيضا) الفصل بين الشكل والمعنى، في حين ما هو صحيح هو الفصل بين الصورة الصوتية من جهة وبين الشكل والمعنى (الشكل-المعنى) من ناحية أخرى. وإن الذي يسلك هذا المسلك ويتتبع هذه الفكرة ليصل بطريقة رياضية إلى النتائج نفسها التي يصل إليها من ينطلق من مبدأ في ظاهره بعيد جدا من مثل التمييز، في اللسان، بين الظواهر الداخلية المرتبطة بالوعي والظواهر الخارجية المدركة مباشرة»[57].

إن التمييز إذن بين الصورة الصوتية والشكل تمييز إجرائي في لسانيات دو سوسير، وهو يذكرنا بالتمييز بين استند إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي في وضع معجمه، وهو الفصل بين المستعمل والمهمل من ألفاظ اللسان العربي، ولقد أضحت هذه الثنائية إحدى ركائز البحث اللسانياتي العربي، فصنفها جلال الدين السيوطي ضمن النوع الرابع عشر من علوم اللغة وأنواعها، ووضعه ضمن باب الإسناد[58]. ونحن نعلم أن الخليل بن أحمد الفراهيدي عندما رام الإعداد

---

(56) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, pp.28-29.

(57) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 17.

(58) جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، تح. محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون، القاهرة، مكتبة دار التراث، الطبعة الثالثة، د. ت.، ص ص. 240-247.

لمعجمه، كتاب العين، الذي أراده مشتملا على كل ما نطقت العرب به، انطلق من مبدأ منهجي رياضي يستند إلى تركيب الحروف الهجائية العربية في ألفاظ (دون أي اعتبار إلى مقوم المعنى) ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية مستقصيا كل التراكيب الممكنة بالجمع بين كل حرف من حروف الهجاء الثمانية والعشرين مع الحروف السبعة والعشرين الأخرى، مثنى وثلاث ورباع وخماس، حتى إذا ارتسمت أمامه مدونة ألفاظ اللسان العربي كلها تأملها فما ألفاه مستعملا من قبل المتكلم العربي أبقى عليه، وما كان دون ذلك أهمله، ومن ذلك نشأت ثنائية المستعمل والمهمل من كلام العرب. قال بن أحمد: «اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نح: قد، دق، شد، دش، والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه، وتسمى مسدوسة وهي نحو: ضرب، ضبر، برض، بضر، رضب، ربض، والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة أوجه فتصير أربعة وعشرين، يكتب مستعملها ويلغى مهملها»(59).

ولقد عرف ابن فارس المهمل على النحو التالي فقال: «المهمل على ضربين: ضربٌ لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتّة، وذلك كجيم تؤلّف مع كاف، أو كاف تقدّم على جيم، وكعين مع غين، أو حاء مع هاء أو غين، فهذا وما أشبَهه لا يأْتَلِف. والضَّرْبُ الآخر: ما يجوزُ تألّف حروفه؛ لكنَّ العرب لم تقل عليه، وذلك كإرادة مُرِيد أن يقول عضخ، فهذا يجوز تألّفه وليس بالنّافر؛ ألا تراهم قد قالوا في الأحرف الثلاثة: خضع، لكن العرب لم تقل عضخ، فهذان ضربان للمهمل. وله ضربٌ ثالث؛ وهو أن يريد مريدٌ أن يتكلّم بكلمةٍ على خمسة أحرف ليس فيها من حروف الذُّلْق أو الإطباق حرف، وأي هذه الثلاثة كان فإنه لا يجوز أن يسمّى كلاماً. وأهل اللغة لم يذكروا المهمَل في أقسام الكلام، وإنما ذكروه في الأبنية المهمَلة التي لم تقل عليها العرب»(60).

---

(59) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهي السمرائي، إيران (قم)، دار الهجرة، الطبعة الأولى، 1405هـ، الجزء الأول، ص. 59.

(60) أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص. 46.

إن ثنائية الفراهيدي (المهمل/المستعمل) تعبير صادق عن ثنائية دو سوسير (الصورة الصوتية/الشكل) وتعيننا على تمثلها تمثلا عميقا، فالمهمل صورة صوتية لأنها مجرد تتابع من الأصوات لا دلالة لها (عضخ)، وأما المستعمل فإنه يندرج ضمن صنف الأشكال التي هي سلسة الأصوات التي تحتمل معنى ما، أو تجد لها استعمالا ما في التعبير باللسان العربي (خضع). ومن ههنا نفهم عدم تمييز دو سوسير بين مفهوم القيمة، والمعنى، والدلالة، والوظيفة، والاستعمال. ولذلك تراه يقول: «إن الإقرار بالشكل «forme» دونما أيما اعتبار للاستعمال يحيل إلى الصورة الصوتية «figure vocale» التي هي من اختصاص الفيزيولوجيا أو الصوتيات»[61].

العلامة

لم ينج مفهوم العلامة من الخلل، شأنه شأن كثير من المفاهيم التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، ومرد هذا الخلل في نظر فرانسوا راستيي إلى الاختزال الذي مارسه عليه شارل بالي وألبير سشهاي، فقد قدما العلامة على أنها كيان مستقل عن باقي العلامات المجاورة، سواء أكانت المجاورة خطية أو استبدالية، وعلى أنها مكونة من دال ومدلول، لكل منهما استقلال ذاتي[62]. صحيح أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أشار في بعض مواطنه إلى المستويين التركيبي والاستبدالي، بيد إن المخطوطات التي عثر عليها تستخدم تمييزا آخر. لقد ميز دو سوسير بين الكلام الفعلي، الموجود حقيقية «effective» والكلام الكامن «potentielle»، أما الكلام الفعلي فهو كل تركيب «syntagme» ناجم عن تواجد عدد من العناصر ضمن جزء من الكلام، وأما ما هو كامن من الكلام فهو مجموعة العناصر المدركة من قبل العقل ومرتبطة فيما بينها[63]. ولئن أبنا إلى كتاب المحاضرات ورمنا التعرف على التصور الذي يروجه عن العلامة اللسانية لألفيناه يسند إليها مبدأين رئيسين

---

(61) F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p.31.

(62) F. Rastier, Saussure au futur, Paris, les Belles Lettres, 2015, p. 64.

(63) F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 61.

هما مبدأي اعتباطية «arbitraire» العلامة اللسانية وخطية «linéarité» الدال، وهما مبدأين لا يخلوان من ضبابية.

وعلى الرغم من اجتهادهما في الوفاء لتصور دو سوسير عن العلامة، فإن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي وضعاه يختزله اختزالا شنيعا، إذ فضلا عن تصورهما العلامة مستقلة عن باقي العلامات المجاورة لها، وتجريدها عن وجودها الخطابي، جرداها من ميزة ثانية تكاد تكون جوهرية، هي خاصية تبليغها «.transmission» إن للعلامة حركية عبر الزمن ليست في نظر دو سوسير ميزة خارجية عنها، بل هي في حقيقة أمرها ميزة داخلة جوهرية فيها، مُؤسسةً لها. ولقد تنبه جُوان فهر إلى هذه الميزة المنسية من فكر دو سوسير، ولكن الطريف أنه لا يستند في إثباتها إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، أو إلى سائر أعمال دو سوسير اللسانياتية سواء المخطوطة أو تلك التي تم تحقيقها ونشرها مؤخرا، وإنما اجتهد في توكيدها باستطلاع أعماله حول الأساطير[64].

ولقد أسلفنا القول في الفصل السابق بأن دو سوسير كان، بالتوازي مع أعماله في اللسانيات العامة، واللسانيات التاريخية والمقارنة، وغيرها من اهتماماته اللسانياتية، يجتهد خلسة بعيدا عن مسامع معاصريه من اللغويين وأنظارهم في فك بعض رموز نصوص أدبية، منها نصوص عن الأسطورة الجرمانية وعلم الأساطير المقارن، وأخرى عن الجناسات التصحيفية. بيد إن مقاربة تصورات دو سوسير الأدبية ليس مشروعا يمكن الاضطلاع به في الوقت الراهن، ولعله مجازفة لا تخلو من مخاطر، لعدم تحقيق مخطوطاته المودعة بمكتبة جنيف ونشرها عن آخرها حتى يصل الباحث إلى تكوين فكرة عامة، شاملة، عنها. لكن ما أضحى معلوما من اهتمامات دو سوسير الأدبي أنه اهتم بمسائل تتصل بالأصول التاريخية للأساطير الجرمانية والاسكندنافية وانتقالها، ولقد كان تكوّن الشخصيات الأسطورية أهم المسائل التي نظر فيها، ولقد باتت في تصوره رموزا إلى تحولات متوالية عبر الزمن في الحياة الاجتماعية، وهي

(64) - J. Fehr, Saussure entre linguistique et sémiologie, tr. P. Caussat, Paris, P. U. F., 2000, p. 118.

في الآن ذاته موضوعات سيميولوجية يتوجب البحث في طرائق عملها[65]. إن النصوص التي اطلع عليها تستنوار بمكتبة جنيف، وهي نصوص تبحث في الأسطورة، تستكشف طابعها السيميولوجي، وفي بعض صفحات هذه المخطوطات يبرز دو سوسير هذه الميزة بقوله: «إن دراسة الأساطير تشترك في ميدان اللسانيات المتاخم لها في كونها تستظهر كائنا لا وجود له، من مثل الكلمة، والشخصية الأسطورية، والحروف الأبجدية، التي ليست سوى أشكالا مختلفة من العلامة، بمعناها الفلسفي»[66].

ولئن كان تحول العلامة عبر الزمن وانتقالها من جيل إلى آخر تعد خصيصة كامنة فيها، غير منضافة فيها، لا نجد لها حضورا في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، فإن الكتاب ذاته لم يعبر فضلا عن ذلك تعبيرا صادقا عن طبيعة العلامة اللسانية ولا عن المفاهيم المتصلة بها، وهو ما يفسر جملة النقود التي وجهت إلى تفكير دو سوسير، لاسيما فيما تعلق بمبدأي الاعتباطية وخطية الدال. وفضلا عن هذا التقصير في إيراد جميع الخصائص المكونة لمفهوم العلامة، لم يتنبه شارل بالي وألبير سشهاي إلى التعدد الدلالي التي اكتنفه، فلقد تبين لسيمون بوكي، بما توفر له مخطوطات دو سوسير، أن دو سوسير كان يستعمل مصطلح العلامة دالا تارة على الوحدة القائمة بين المفهوم والصورة الصوتية، وتارة أخرى يقتصر مدلوله على الصورة السمعية «image acoustique»[67].

مفهوم الاعتباطية

لم تنل مفاهيم دو سوسير اللسانياتية اهتمام اللغويين المحدثين بقدر ما ناله مفهوم الاعتباطية، ولم ينشأ حولها جدل كبير بقدر ما احتدمت حول الاعتباطية

(65) - P.-Y. Testenoire, Littérature orale et sémiologie saussurienne, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz (dir.), En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012, p. 62.

(66) - Bibliothèque de Genève (BGE), Ms fr. 3958/9, fol. 21r., repris dans P.-Y. Testenoire, Littérature orale et sémiologie saussurienne, p. 63.

(67) - S. Bouquet, «Benveniste et la représentation du sens: de l'arbitraire du signe à l'objet extra-linguistique», Linux, nº 9, 1997, p. 117.

الـمُـحاجّات، منذ أن أعاد إيميل بنفنست النظر فيه في مقاله المشهور «طبيعة العلامة اللسانية»، سنة 1939[68]، ولم يتوانى فيه عن وصف التفكير الذي خلص إلى تقرير مبدأ الاعتباطية بأنه تفكير يشوبه عدم التجانس لعدم التحام المفاهيم التي يستدعيها قصد التعبير عنه، ويفضي به إلى التناقض. ولئن كان تقدير بنفنست فيه جانب من الصحة والصواب، فتلكم حجة تنضاف إلى الحجج التي سقناها آنفا لتخليص دو سوسير من النقود التي كثيرا ما وجهت إليه، إذ إن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي استند إليه بنفنست للنظر مجددا في مفهوم الاعتباطية ليس بأي حال من الأحوال من وضع دو سوسير.

وإلى مثل هذا النقد ذهب أوتو يسبرسن في التقرير الذي أعده على إثر نشر كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة سنة 1916، قائلا: «لا أعتقد أن القول في العلاقات القائمة بين الصوت والمعنى قد استنفد بإقرار مادفيق وويتني بطابع المواضعة القائم بينهما، وهو إقرار يؤيده دو سوسير، لكنه كثيرا ما يغالي في الدور الذي تضطلع به الاعتباطية ويقلل من شأن رمزية الأصوات المحاكية»[69]. ولكي نتمثل الحجج التي ساقها بنفنست قصد إعادة النظر في مفهوم اعتباطية العلامة اللسانية لا بد أن نذكر أولا، كما ذكر تودوروف من قبل، بأن مفهوم العلامة هو أساس كل علم يدرس اللغة، لكنه من بين المفاهيم التي يعسر تعريفها نتيجة أهميتها بالدرجة الأولى. وما يزيد في صعوبة تعريفه أن كثيرا من النظريات تجاوزت مستوى الوحدات اللسانية إلى العلامات الأخرى غير الصوتية. ولذلك نجده حريصا في تعريفه للدليل بوصفه كائنا؛ 1) يمكن معاينته فيصبح محسوسا (من خلال النطق به)، و2) يسجل لدى مجموعة معينة من مستعمليه في حد ذاته غيابا. أما القسم المعاين من العلامة فهو ما يدعى بالدال، و أما الغائب منه فهو المدلول، وأما العلاقة التي يقيمانها فيما بينهما فتسمى بالدلالة[70].

---

(68) - E. Benveniste, «Nature du signe linguistique», in Problèmes de linguistique générale 1, pp. 49-55.

(69) - O. Jespersen, «Compte rendu du Cours de linguistique générale», in Linguistica. Selected Papers in English, French and German, p. 108-115.

(70) - O. Ducrot et T. Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1972, pp. 131-132.

ليست العلامة اللسانية في التفكير السيميائياتي المعاصر المستند إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بعيدة عن هذا التعريف، فهي تتكون هي الأخرى من دال ومدلول، أما الدال فهي الصورة السمعية للدال، وهي ليست الصوت ذاته فهو شيء مادي، ولكنها الأثر النفسي لهذا الصوت أو التمثيل الذي تصوره لنا الحواس عنه، إنها صورة حسية(71). وتكمن الميزة الأساسية التي يتصف بها اتحاد الدال بالمدلول، أي العلامة، في اعتباطية العلاقة التي يقيمانها فيما بينهما، بمعنى أنه يمكنني الاستعاضة عن سلسلة الأصوات أ خـ ت التي أشكل بها الدال للتعبير عن مفهوم «الأخت»، بأي سلسلة أخرى، كما هو الشأن في اختلاف الألسن، فلا علاقة داخلية إذن تربط الدال بالمدلول(72).

إن الخلل يتسلل إلى مفهوم الاعتباطية، من وجهة نظر بنفنست، بإدراج غير واع لمكون ثالث وهو الواقع الذي تحيل إليه العلامة اللسانية، إذ بعدما يتم تقرير اعتباطية العلامة اللسانية، نتيجة عدم وجود أية علاقة مبررة بين الدال والمدلول، يحاول واضعا كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، شارل بالي وألبير سشهاي، تبرير هذا المبدأ باللجوء إلى الاختلافات الجمة التي تميز الألسن فيما بينها، من خلال تبيان الفروق القائمة بين مدلولي «bœuf» و«ochs»(73)، ولكن من منظور إحالتهما إلى الواقع. ومن ثم يتسلل الشيء المحال إليه في الواقع إلى التعريف، بعدما تم إرجائه في تعريف العلامة بوصفها وحدة بين دال ومدلول(74). وهو الأمر الذي حدا ببنفنست إلى رد تصور الاعتباطية القائمة بين الدال والمدلول، والإقرار بأن العلاقة، عكس ذلك، ضرورية، لازمة.

ويبدو أن الطابع الاعتباطي للعلامة اللساني هو الذي يميزه عن باقي أنواع العلامات، واللسان بوصفه نتاجا لملكة اللغة، ومجموعة من المواضعات

---

(71) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 98.

(72) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 100.

(73) - ibid.

(74) - E. Benveniste, «Nature du signe linguistique», in Problèmes de linguistique générale 1, p.50.

الضرورية التي يتبناه الكيان الاجتماعي كي يمكن أفراده من ممارسة هذه الملكة، عن بقية الأنساق السيميولوجية الأخرى، من مثل الكتابة، وأبجدية الصم والبكم، والطقوس الرمزية، ومختلف صور الآداب، والإشارات الحربية وغيرها من الأنساق الأخرى. ولئن كان مفهوم الاعتباطية على هذا القدر من الأهمية في تفكير دو سوسير الأصيل، فإن التعبير عنه من قبل شارل بالي وألبير سشهاي في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي وضعاه ونسابه إليه، تعبير يشوبه كثير من التناقض، شأنه شأن عدد من المفاهيم الأخرى، وهذا التعبير يقيم فضلا عن ذلك حِجرا على حقيقة فلسفة دو سوسير وموقفها من الواقع. ولعلنا، والحال هذه، نفهم ما خلص إليه فرانسوا راستيي قائلا: «إن الميدان الأنتولوجي هو الميدان الذي كانت فيه مواقف دو سوسير أكثر جرأة، لكنها ظلت مواقف غير مفهومة»(75).

ولعل أهم البحوث التي تناولت مفهوم الاعتباطية واستعرضت ما سبقها من ملحوظاته ونقود، البحث الذي خصه به رودلف أنغلر، فقد استقصى عددا معتبرا من النصوص وأثبتها، ثم راح يناقشها ويتبين فحواها. ثم استعرض المواطن التي يبرز فيها مفهوم الاعتباطية من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فضلا عن المصادر التي أخذت منها، وخلص إلى القول بأن «الترتيب الذي اتبعه شارل بالي وألبير سشهاي في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لا يتوافق مع التركيب الذي تظهره النصوص المخطوطة. وتفسير ذلك في استحضار دو سوسير لمبدأ الاعتباطية في نصوص مختلفة لا علاقة ظاهرة بينها، واستدعاءه له في المحاضرات في اللسانيات العامة التي ألقاها بمناحي مختلفة، وهذا ما يفسر محاولة التركيب التي عمدا إليها»(76). لكن محاولة التركيب هذه لم تعد بعيدة كل البعد عن تصور دو سوسير الأصيل، فقد أقر رودلف أنغلر، بوفاء تصورها بشأن هذه المسألة لتصور دو سوسير حولها، لكن استعمالهما لبعض المصطلحات لم يكن استعمالا دقيقا، من مثل المصطلحات: اعتباطية الدال،

---

(75) - F. Rastier, Saussure au futur, p. 117.

(76) - R. Engler, «Théorie et critique d'un principe saussurien: L'arbitraire du signe», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 19, 1962, p. 41.

اعتباطية الرابطة، اللسان-الشمول، اللسان-الآنية، اللسان الخاص، الموضوع، الواقع، الأشياء، سلسلة الأصوات، الصورة السمعية، الفكر، المفهوم، وغيرها من المفاهيم السوسيرية التي ما أحسن الناشريْن في التعبير عن معانيها[77].

إن مقارنة النصوص التي استند إليها شارل بالي وألبير سشهاي في صياغة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بالكتاب ذاته لاسيما ما دونه طلبة دو سوسير عنه تكشف عن جملة من الإضافات التي لجآ إليها، وتبرز عددا من التعميمات التي انتهجاها بخصوص بعض المصطلحات، على الرغم من أن تختلف مضامينها، في فكر دو سوسير، باختلاف الأسيقة التي تواردت فيها. ولقد لجأ سيمون بوكي، في هذا الشأن، قصد دحض مزاعم إيميل بنفنست المستندة إلى نصوص غير أصلية (كتاب المحاضرات)، إلى إحصاء كل الفقرات التي تتصل بمسألة الاعتباطية ومقارنتها بمخطوطات دو سوسير الأصلية. وخلص إلى القول بأن السبب الأول لهذا الإخفاق يعود بالدرجة الأولى إلى عدم تنبه شارل بالي وألبير سشهاي، إلى التعدد الدلالي لمفهوم العلامة، في فكر دو سوسير، ذلك إن مفهوم العلامة يكتسي دلالتين مختلفتين، فهو يدل تارة على الوحدة القائمة بين المفهوم والصورة السمعية وتارة أخرى يراد بها الصورة السمعية غير مقترنة بالمفهوم الذي تعبر عنه[78].

خطية الدال

لقد علقت بمفهوم العلامة السوسيرية تصورات ومصطلحات لا علاقة لها بفكر دو سوسير ولا بجهازه المصطلحاتي الذي تعامل به مع الظاهرة اللغوية، ونحن إذ نعيد التوكيد على ضرورة التخلص من سطوة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة على التلقي السيميائياتي لفكر دو سوسير فإننا نريد من خلال التطرق ههنا إلى مصطلح «خطية العلامة اللسانية» إعادة التذكير بالآثار التي خلفتها اجتهادات شارل بالي وألبير سشهاي، والاختزال الذي مارساه على

(77) - Idem, p. 62.

(78) - S. Bouquet, «Benveniste et la représentation du sens: de l'arbitraire du signe à l'objet extra-linguistique», Linux, nº 9, 1997, p. 117.

الكثير من المصطلحات السوسيرية. وخلافا لمبدأ اعتباطية العلامة فإن مبدأ الخطية «linéarité» لم ينل اهتمام اللغويين المحدثين ولا أثار بينهم الجدل الذي أثارته مفاهيم أخرى، بل إن مفهوم الخطية يكاد يغيب كلية عن مدونة المفاهيم اللسانياتية التي تشكّل على منوالها تلقي محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة، على الرغم من أنه مفهوم محوري في تفكير دو سوسير السيميائياتي، ووسيلة من الوسائل التي عمد إليها من أجل تمييز سيميائيات اللسان، أو النسق اللساني عن باقي الأنساق السيميائية الأخرى.

ولقد كان هذا مصيره منذ المرحلة الأولى من مراحل تلقي محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة في أثناء العقود الثلاث الأولى من القرن الماضي، التي أشرنا إلى بعض ملامحها في الفصل الثاني، فقد أغفلت ذكره كل التقارير التي تلت نشر كتاب المحاضرات، فلا أنطوان مايي ممثلا للمدرسة الفرنسية، ولا إيغو شوشار ممثلا للمدرسة الألمانية، ولا أوتو يسبرسن ممثلا للمدرسة الدنمركية، ولا ليونارد بلومفيلد ممثلا للمدرسة الأمريكية، تنبهوا إلى أهميته فقد غمرته آنذاك مسألة التمييز بين اللسان والكلام كما غمرت مفاهيم أساسية أخرى وغيبتها. ولقد استمر غياب مفهوم الخطية عن اهتمامات اللغويين المحدثين، باستثناء البعض القليل منهم، على امتداد مراحل تلقي كتاب المحاضرات، فلا المرحلة الثانية التي شهدت هيمنة التصورات البنوية، ولا المرحلة الثالثة التي انتقل فيها الاهتمام بكتاب المحاضرات من دائرة اللسانيات إلى دائرة العلوم الإنسانية الأخرى، جلبا الانتباه إليه، بل إن المرحلة الرابعة التي نشهدها لا تعيد الاعتبار إلى مفهوم الخطية بتاتا، فإن أنت نظرت في كتاب نصوص دو سوسير الأصلية المنشورة مؤخرا ما وجدت له في فهرس المصطلحات ذكرا قط. فما سر هذا العزوف وما علة غيابه عن الفكر اللسانياتي الحديث؟

إن الظاهر أن سبب هذا العزوف يعود أساسا إلى العرض الموجز الذي حظي به المفهوم، والاختزال الذي مارسه شارل بالي وألبير سشهاي عليه، فإن أنت نظرت في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أدركت ذلك، إذ لا

يتجاوز عرضه الصفحة الواحدة(79)، يُكتفى فيها بالتذكير بأهميته مقارنة بمبدأ الاعتباطية وارتباطه بمسألة العلاقات الترابطية التي تنعقد بين الوحدات اللسانية المتوالية. ولقد بدا المفهوم منذ بداية تداوله مفهوما بديهيا لا يحتاج إلى برهان وتدقيق بالنظر إلى ارتباط التصور اللساني في أذهان الناس بطابعه الخطي الكتابي، لكنه سرعان ما اصطدم بالتصور الفونولوجي للفونيم، فلئن كانت خطية الدال تستند إلى مبدأ توالي مكوناته، فإن تحليل الفونيم إلى ما يسمى بالخصائص المميزة «traits distinctifs» أبان عن ضعفه، وما ثبتت أركانه أما النقود التي وجهها رومان ياكبسون إليه(80).

ويستند أحد هذه النقود إلى مفهوم الخصائص المميزة الذي طورته الدراسات الفونولوجية لتحليل الفونيمات، فهذه الأخيرة، يمكن تحليلها إلى عدد معلوم من الخصائص الثابتة التي يمكن بفضلها التمييز بين الأصوات التي تسهم في أداء المعنى وتمييز العلامات فيما بينها وتلك التي لا تضطلع بذلك والتي تسمى بالألوفونات «allophones»(81). إن الغين والراء فونيمين متمايزين في اللسان العربي لأنهما يسهمان في التمييز بين عدد معتبر من العلامات (الكلمات) العربية من مثل غب/رب، غيب/ريب، مغيب/مريب، بغى/برى، وفيرها من المورفيمات العربية التي ما إن أبدلت فيها إحداهما بالأخرى إلا وأدى هذا الابدال إلى تغيير في المعنى. أما إذا نظرنا لهذه الثنائية في اللسان الفرنسي فإننا لا نجد لها دورا في إحداث الاختلاف في المعاني، ذلك أن الراء أو الغين، مهما كان النطق بها، غينا أو راء، في كلمات من مثل «droite»، أو «porte»، أو «autoroute»، أو «trottoir» أو غيرها من العلامات (الكلمات) الفرنسية، فإنها لا تغير من معاني هذه العلامات شيئا.

إن الخصائص المميزة التي تحدثت عنها الفونولوجيات المحدثة تسهم في تمييز الفونيمات فيما بينها، ولكن الخصائص هذه لا يقوم تواجدها في

---

(79) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 103.

(80) - R. Jakobson et L. Waugh, La charpente phonique du langage, pp. 27-28.

(81) - J. BrandÍo de Carvalho et *al*. Comprendre la phonologie, Paris, P. U. F., 2010, p. 70.

الفونيمات على أساس زمني، فتتابع تتابع الكلمات ضمن الجمل، بل هي ميزات تتواجد معا ضمن فضاء واحد، وهي التي سماها النحاة العرب بصفات الأصوات، قال أبو الأصبع الإشبيلي: «وصفات هذه الحروف هي: الهمس والجهر والشدة والرخاوة والانطباق والانفتاح والاستعلاء والانسفال والمد واللين والصفير والتفشي والاستطالة والتكرير والانحراف والغنة والقلقة والنفخ»[82]. وخلافا للتقليد الفونولوجي السائد فإن تصنيف صفات أصوات اللسان العربي لم يستند إلى ثنائيات ضدية، أو ما سمي بالنزعة الثنائية «binarisme»، بل هذه الصفات تنقسم إلى صنفين هما: الصفات التي لها ضد، من مثل الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، ومنها الصفات التي لا ضد لها من مثل الانحراف والغنة والقلقة. ولقد تنبه القدامى إلى الوظيفة التمييزية للخصائص المميز للأصوات في تأدية المعنى، يقول سيف الدن بن عطاء: «وربما كان للحرف صفتان وثلاث وأكثر، فالحروف تشترك في بعض الصفات وتفترق في بعض والمخرج واحد، وتتفق في الصفات والمخرج مختلف. ولا تجد أحرفا اتفقت في الصفات والمخرج واحد، لأن ذلك يوجب اشتراكها في السمع فتصير بلفظ واحد فلا يفهم الخطاب بها»[83].

ولو عدنا إلى دو سوسير، فإن التصفح المتأني لمخطوطاته أفضى بتستنوار إلى الإقرار بخلوها من مصطلح خطية الدال على الرغم من أن مفهوم الخطية قد توارد ذكره في بعض كراسات طلبة دو سوسير التي استند إليها شارل بالي وألبير سشهاي في صياغة كتاب المحاضرات، لكن المفهوم لم يرتبط قط في كراسات الطلبة بالدال، بل برز في أسيقة أخرى، ومن منها السياق الذي تحدث فيه دو سوسير عن التركيبيات «syntaxe»، في أثناء دروس السنة الجامعية الأولى[84]، يقول في هذا الشأن: «كل تركيبيات تستند إلى مبدأ هو من البساطة إلى درجة يغدو من السذاجة التذكير به: إن

(82) أبو الأصبع الإشبيلي المعرف بابن الطحان، مخارج الحروف وصفاتها، تح. محمد يعقوب تركستاني، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، ص ص. 85-86.

(83) سيف الدين بن عطاء الله، الجواهر المضية على المقدمة الجزرية، تح. عزة بنت هاشم معيني، الرياض، مكتبة الرشد ناشرون، الطبعة الأولى، 2005، ص. 107.

(84) P.-Y. Testenoir, «Genèse d’un principe saussurien : la linéarité», Recto/Verso nº 6, 2010,, p. 39.

الطابعة الخطي للسان، أي استحالة النطق بعنصرين لغويين في الآن ذاته، وهو ما ينجم عنه من أن في كل شكل سابق ولاحق، و لا يمكنني تمثل هذا المبدأ إلا بتصوره في صورة خط مستقيم مكون من أجزاء متوالية»[85].

علاقة العلامة بالواقع والفكر

لقد ألمحنا، ونحن نعيد النظر في مفهوم الاعتباطية، إلى إشكالية علاقة اللغة بالواقع في فكر دو سوسير، وأشرنا إلى صعوبة مقاربتها وقول فرانسوا راستيي بشأنها: «إن الميدان الأنتولوجي هو الميدان الذي كانت فيه مواقف دو سوسير أكثر جرأة، لكنها ظلت مواقف غير مفهومة»[86]. ليس من اليسير حصر كل الأسباب التي أدت إلى سوء الفهم هذا، لكن السبب الرئيس في عدم تمثل الباحثين المحدثين لموقف دو سوسير من العلاقة القائمة بين اللغة والواقع، وموقفه من مسائل لسانية وفلسفية كثيرة أخرى، يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة تلقي فكر دو سوسير، فهذا الأخير لم ينشر في حياته، مقارنة بما كتب ودرّس، إلا النزر القليل، ثم إن ما نشر بعد موته من دروسه لا يعدو أن يكون مجرد تركيب مما دونه طلبته عنه، وكثيرا ما جانب هذا التركيب الذي أنجب كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة جوهر الفكر السوسيري، ولباب أفكاره الخالصة. لقد أسهم هذا الكتاب، نتيجة الكم الهائل من المصطلحات التي استدعاها واضعاه للتعبير عن فكر دو سوسير اللسانياتي، لاسيما ما ارتبط منها بمفهوم العلامة فما وفقا في دقة التمييز بين مفاهيمها، أسهم في اتهام التفكير السوسيري بالغموض، والتناقض في بعض جزئياته، والإسراف في بعض مواقفه. وكان لنا في بنفنست ومسألة الاعتباطية التي عبر عنها شارل بالي وألبير سشهاي تعبيرا فاسدا خير مثال على ذلك، إذ ما أفلحا في التعبير بكل دقة ووضوح عن نظرة دو سوسير إلى علاقة اللغة بالواقع.

لم تكن العلامة يوما ما، منذ محاورات أفلاطون، وأرسطو والرواقيين

---

(85) F. de Saussure, Premier cours de linguistique générale (1907). D'après les cahiers d'Albert Riedlinger, éd. Komatsu, New-York, Pergamon, 1996, p. 70-71.

(86) - F. Rastier, Saussure au futur, p. 117.

وتأملاتهم الفلسفية الأولى، مرورا بتوما الأكويني وبعض الوسيطيين[87]، وعلى امتداد الفكر الفلسفي الغربي، مستغنية عن الواقع، مكتفية بذاتها، بل ظلت علاقتها بما تحيل إليه في عالم الأشياء تُمثل جانبا مكونا لها، وظل المثلث السيميائي هو المنوال المتوارث الغالب، الدال على تجذر البعد الأنتولوجي للعلامة[88]، يقول توما الأكويني: «إن الكلمات علامات على الأفكار، والأفكار محاكاة للأشياء، ومن ثم فإن الكلمات تحيل إلى الأشياء المشار إليها بواسطة الأفكار»[89].

ولقد استقر هذا التصور في أدبيات اللسانيات المعاصرة منذ أن وضع أودغن وريتشارد مثلثهما الدلالي، واستندا إليه للإقرار بالعلاقة السببية التي تنعقد، من وجهة نظرهما، بين العلامات والأفكار، وإذا ما كانت العلامات دالة، فهي كذلك لأنها تقرر شيئا ما، وهو العلاقة القائمة بين الأشياء والأفكار،[90] وجرى ليونس مجراهما وأقر بتصورهما، «لقد أضحى من المعتاد القول إن العبارات، وليست المفاهيم، تحيل إلى الأشياء، (وهي تمثيل لها)، وإننا نأخذ نحن أيضا هذا بهذا الاستعمال»[91]. لقد أسهمت دلاليات أودغن ورتشارد في إرساء دعائم هذا التصور، وتلقفته معظم النظريات اللسانياتية فراحت تسعى إلى تطويره أو التوفيق بينه وبين التصور السوسيري، وتمخضت عن هذا التوفيق مجموعة من المثلثات من مثل مثلثات أولمان[92]، وبالدينغر[93]، وهيغر[94] وغيرهم من الباحثين الذين عاودوا النظر في تصور

(87) - J. Biard, Logique et théorie du signe au XIVe siècle, Paris, Vrin, 1989, p. 147.

(88) - F. Rastier, Sémantique et recherches cognitives, Paris, P.U.F, 1991, p. 75.

(89) - Thomas d'Aquin, Somme théologique, Volume I, tr. F. Lachat, Paris, Louis Vivès Editeur, 3e éd., 1874, p..

(90) - C. K. Odgen & I. A. Richards, The Meaning of Meaning, New York, Harcourt, Brace & World, Inc, 8 éd., 1946, pp. 10-11.

(91) - J. Lyons, Eléments de sémantique, p 84.

(92) - S. Ullman, Précis de sémantique française, Berne, A. Francke, 1952.

(93) - K. Baldinger, «Sémantique et structure conceptuelle», Cahiers de lexicologie, nº 8, 1966, pp. 3-46.

(94) - K. Heger, «Les bases méthodologiques de l'onomasiologie et du classement par concepts», Travaux de linguistique et de littérature, vol. 3, nº 1, 1965, pp. 7-32.

أودغن وريتشارد لطبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والواقع، لكنهم فعلوا ذلك من وجهة النظر التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وهي الوجهة التي لا تعبر عن تصور دو سوسير الأصيل تعبيرا صادقا. ولقد استندت جل هذه البحوث إلى ما أثبته شارل بالي وألبير سشهاي ضمن الفصل الأول من الجزء الأول من كتاب المحاضرات، وهو الفصل الذي يعنى بالتعريف بالعلامة اللسانية وبطبيعتها(95).

إن التعرف على تصور دو سوسير الأصيل لطبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والواقع لا يتحقق إلا بتحليل نقدي لما جاء في كتاب المحاضرات في اللسانيات العام المنسوب إليه، في ضوء ما استجد من لسانيات دو سوسير واستنادا إلى ما حُقق من مخطوطاته المودعة بمكتبة جنيف. لقد باتت كتابات دو سوسير المنشورة حديثا منفذا قويا لتصوره الأصيل، وإن المتأمل في المقال الذي أعدّه سنة 1894 عن ويتني، تبرز أمامه بكل وضوح، خلافا لما هو عليه الأمر في كتاب المحاضرات، خاصية استقلال العلامة عن الواقع، مستعملا لذلك مصطلح العلامة المستقلة، ويقول مثلا في إبراز هذا الموقف: «لعل الفلاسفة، والمناطقة، وعلماء النفس تمكنوا من إطلاعنا على العقد الذي يربط الفكرة بالعلامة، وتحديدا بين الفكرة والعلامة المستقلة. ونحن نعني بالعلامة المستقلة أصناف العلامات ذات الخاصية التي تتمثل في افتقادها لكل رابطة مع الشيء المراد الإشارة إليه»(96). إن توكيد دو سوسير على استقلال اللغة عن الواقع يستند إلى عدد من المبررات والحجج، لعل أهمها، في نظره، يكمن في ميزتيها الرئيستين، فهي في الآن ذاته مواضعة وإرث تاريخي.

لم تكن علاقة اللغة بالفكر، شأنها شأن علاقة اللغة بالواقع، واضحة المعالم في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بل شابها هي الأخرى جانب من الغموض حتى تعذرت الإحاطة بموقف دو سوسير منها إحاطة لا تشوبها شائبة. ولقد تراكمت الأسباب في ذلك حتى غدا مستحيلا تمييز فكر دو

(95) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, pp. 97-100.

(96) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 209.

سوسير عن إضافات شارل بالي وألبير سشهاي، ولو عدنا إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لألفينا علاقة اللغة بالفكر مطروحا على النحو الذي يلي: ليست وظيفة اللغة إزاء الفكر أن تقدم له الوسيلة الصوتية المادية التي تتيح له التعبير عن المعاني، فإذا ما نظرنا إلى سلسلة الأصوات التي يصدرها الإنسان بغض النظر عن دلالتها لوجدناها مادة لا يمكن التمييز بين مقاطعها، مثلما لو تفحصنا أفكارنا دون التعبير عنها بسلسلة من الأصوات لوجدناها هي الأخرى مادة لا يمكن التمييز بين أجزائها؛ فالدور الأساسي الذي تضطلع به الألسن البشرية إزاء الفكر لا يكمن في إنشاء وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، إنما لتكون بمثابة وسيط بين الفكر والصوت، بحيث يؤدي اتحادهما بالضرورة إلى تحديدات لوحدات في كليهما، ولا تنتج هذه التحديدات مادة ثالثة، وإنما تنتج شكلا، هو الشكل اللساني. وكما أن اللسان ليس وسيلة لترجمة الفكر الذي يفترض له وجود مسبق، فكذلك اللسان ليس نسخة طبق الأصل من الواقع[97].

لقد عمد شارل بالي وألبير سشهاي في هذا التصور، كما هو دأبهما في كثير من المواطن من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، إلى الإضافة والاستفاضة، وابتكروا عبارة «تنتج شكلا، ولا تنتج مادة (جوهرا)». إن ما نخلص إليه هو القول بأن للسان وجودا خاصا به، غير الوجود التاريخي أو الأنتولوجي أو الفكري. وهو ما ينافي أيضا التصور الذي توطد انطلاقا من بور روايال، والذي يقول بوجود بنية عامة للفكر وفقها تنتظم الملفوظات[98]. هذا يعني أيضا أن دلالة الكلمة لا يمكن تحديدها بالتعرف على الشيء الذي تحيل إليه في الواقع، بل إن العلامة لا تحيل مباشرة إلى شيء بعينه إلا عن طريق مدلول ينتقي من بين خصائص هذا الشيء ما يتيح علاقة الإحالة هذه[99].

---

(97) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, pp. 155-156.

(98) - A.-M. Paveau et G.-E. Sarfati, Les grandes théories de la linguistique, Paris, A. Colin, 2003, p. 64.

(99) - O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p. 257.

تشير كثير من الفقرات من كتاب المحاضرات إلى علاقة اللسان، بوصفه نسقا سيميائيا، بمختلف الأنساق السيميائية الأخرى، وهي تبرز بوضوح الطابع الجدلي الذي يربط اللسانيات بعلم العلامات الذي تنتمي إليه، ومفهوم الاعتباطية، أهم هذه الخصائص، فالعلامات المتسمة بالطابع الاعتباطي الكلي، أي العلامات اللسانية، هي التي تحقق في نظر دو سوسير، أكثر من غيرها من أنواع العلامات الأخرى، المنوال السيميولوجياتي، لأجل ذلك، يعتبر اللسان، بوصفه أكثر الأنساق التعبيرية تركيبا وانتشارا، أكثرها دلالة على البعد السيميولوجي، ومن ثم تغدو اللسانيات النموذج الأمثل لكل سيميولوجيات[(100)]. ولئن كان هذا ديدن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فإن مخطوطات دو سوسير المحققة والمنشورة مؤخرا تُبرز بكل جلاء العلاقة القائمة بين السيميولوجيات واللسانيات من جهة وبين الأنساق السيميولوجية والألسن من جهة أخرى، وأول ما يلفت انتباه القارئ لهذه النصوص وصف دو سوسير اللسانيات بالسيميولوجيات الخاصة «sémiologie spéciale»، حين يقول مثلا: «إنه من غير المجدي تماما أن نُعمل التفكير قبل التأكد من طبيعة العنصر المختار للسيميولوجيات الخاصة التي هي اللسانيات»[(101)].

ولقد كنا في الفصل الثاني، عند حديثنا عن المرحلة الرابعة من تلقي محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة، ألمحنا إلى الهوة التي باتت تفصل كتاب دو سوسير المزعوم عما تحويه هذه المخطوطات من مسائل فلسفية، ولسانية، وإبستيمولوجية، ومنهجية، وتاريخية، وغيرها من المسائل التي لا يسعنا - ههنا - تتبعها وإحصائها. إن البحوث المعاصرة التي انضوت ضمن هذا التيار الحديث الموسوم بلسانيات دو سوسير الجديدة ما انفكت تستخرج من النصوص الجديدة، لاسيما «De l'essence double du langage»، تصورات غير تلك التي اعتاد الباحثون على تناقلها، ولعل من بين أهمها، في نظرنا، تصوره

(100) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 101.

(101) F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 111.

السيميائياتي. فبينما يبدو التصور السيميائياتي لدو سوسير، كما هو مبثوث في المحاضرات في اللسانيات العامة، مجرد مشروع يحدد سلفا للسيميولوجيات الحق في الوجود، ويشرع لها موضوع هو دراسة العلامة ضمن الحياة الاجتماعية، يبدو مشروع دو سوسير السيميائياتي، كما هو مبثوث الآن في النصوص الجديدة أكر نضجا، ولقد كشف سيمون بوكي مؤخرا عن جانب هام من جوانب هذا المشروع يرتبط بطبيعة العلامة اللسانية، وتصنيف للوحدات السيميائية(102).

لقد نظر سيمون بوكي في النص الذي سنأتي على نقله إلى العربية بعد حين واستخرج منه تصورا عن مستويات التحليل اللساني، وهي في نظره: المستوى الفونيمي والمستوى المورفيمي والمستوى التركيبي، وفي كل مستوى من هذه المستويات تتكون العلامة من وحدة بين دال ومدلول، وترتبط طبيعة الدال بطبيعة المستوى الذي ينتمي إليه. يقول دو سوسير في هذا النص: «إن كل نوع من أنواع العلامات الموجودة باللسان (سواء أكنت علامة صوتية، أو علامة تامة من مثل الكلمة أو الضمير، أو علامة تكميلية من مثل اللواحق أو الجذور، أو العلامات التي لا دلالة لها من مثل الأصوات، أو علامة غير صوتية كوضع العلامة تلوى العلامة الأخرى، كل نوع من هذه الأنواع ذو قيمة سلبية»(103). ولعل الجديد في هذا التصور ما يتصل بطبيعة العلامة اللسانية في مستواها التركيبي، فهي تتألف من مدلول هو المعنى ودال هو الموقع التركيبي «position syntaxique» التي تتخذه المورفيمات ضمن التراكيب.

ولكننا نريد عوض الخوض في تفصيل القول في هذه المستويات أن نشير إلى مسألة ذات أهمية بالغة للذي يروم مدارسة فكر دو سوسير السيميائياتي، ونعني بها مسألة الوحدات. ولقد أشار دو سوسير في غير موضوع من كتابات، وفي أكثر من مناسبة من دروسه إلى الأهمية البالغة التي تكتسيها مسألة الوحدات

(102) S. Bouquet, «Triple articulation de la langue et articulation herméneutique du langage. Quand De l'essence double du langage réinterprète les textes saussuriens», Arena Romanistica, nº 12, 2013, pp. 86-102.

(103) - F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, p. 48.

بالنسبة للتفكير اللسانياتي. ولعل الخاصية البارزة، في هذا الشأن، ضمن الخصائص التي تتميز بها الألسن، أو اللسان عموما، والتي ما انفك دو سوسير منذ مطلع تسعينيات القرن التاسع عشر (1890) يؤكد عليها، هي اشتمالها على تقسيمات أي أنها تتألف من وحدات يمكن تمييز بعضها عن بعض. لكن الوحدات هذه ليست بالضرورة وحدات محددة سلفا، ومن ثم فإن الغاية القصوى التي يجب أن تنشدها اللسانيات العامة هي البحث في الوسائل التي تعين على تحديدها[104].

وتتصل مسألة المستويات اللسانية بمسألة نحسبها هي الأخرى ذات أهمية ونعني بها مسالة التركيب اللساني، وهو الذي عادة ما يشار إليه بالمصطلح الذي وضعه أندري مارتني، «double articulation du langage»، وهو المصطلح الدال على طريقة تركيب الوحدات اللسانية، أما التركيب الأول (بعضهم يستعمل مصطلح التقطيع) فهو الذي تشترك المورفيمات (المونيمات حسب مارتني) في تحقيقه وأما التركيب الثاني فهو الذي تشترك الفونيمات في تحقيقه قصد إنتاج المورفيمات[105]. إن التصور اللساني هذا لطبيعة الواقعة اللسانية يختلف كل الاختلاف عن التصور اللساني لدو سوسير والذي نحاول عرض جانب منه في هذه الصفحات، مسترشدين في ذلك بتفسير سيمون بوكي الذي أشرنا إليه منذ قليل.

ولعل القارئ قد تساءل لماذا وضعنا مقولة دو سوسير: «ليس للسان وعي بالصوت إلا بوصفه علامة»[106] في صدر هذا الكتاب الموجز. إنها تمثل - في نظرنا - تصورا أصيلا عن حقيقة الواقعة اللسانية. ولقد انتقينا هذه المقولة من سياق حديثه عن الفروق القائمة بين الصوتيات والمورفولوجيات. إن التفريق القائم على وصف المورفولوجيات بأنها دراسة الأشكال اللسانية، والصوتيات بوصفها دراسة أصوات اللغة، تفريق لا يمكن الركون إليه، سواء على المستوى النظري أو العملي إذ غالبا ما لا يمكن التمييز بينهما ضمن التحليل اللسانياتي،

(104) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, ècrits de linguistique générale, p. 48.

(105) - A. Martinet, èléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1980, p. 17-18.

(106) - F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, p. 182.

ولعل الطريقة المثلى في التمكن من التمييز بين العلمين هي إدراج العامل الزمني كفيصل بينهما، يقول دو سوسير: «كلما نظرنا في الصيغة ذاتها في أزمنة مختلفة كان عملنا ذلك في علم الصوتيات، أما إذا نظرنا في صيغ مختلفة في زمن واحد، كان عملنا ذلك عملا في علم المورفولوجيا»[107].

لقد كثر استعمال دو سوسير للفظ اللسان مرادفا للفرد المتكلم في كتاب الكتابات في اللسانيات العامة، ففي سياق حديثه عن حقيقة الوقائع اللسانية يقول مثلا: «إن التعبير الأول عن واقع الأمور أن يقال إن اللسان (أي الفرد المتكلم) لا يدرك لا الفكرة a، ولا الشكل A، إنما يدرك النسبة a/A فقط»[108]، ولذلك فإننا نفهم مقولته هذه على النحو التالي: «ليس للفرد المتكلم وعي بالصوت إلا بوصفه علامة»، ويدّل هذا على أن مفهوم العلامة لا يقتصر على مستوى لساني دون مستوى آخر، بل يشمل جميع المستويات اللسانية، وبعبارة أخرى فإن مفهوم العلامة أفقي «transversal». وتعد خاصة الأفقية من بين الخصائص التي استند إليها سيمون بوكي في تأويله (أو تفسيره)، أو قل قراءته لنصوص دو سوسير الجديدة، وهي خاصية فرعية عن خاصية عامة هي الخاصية السيميائية «sémioticité»، ويراد بها «إن اللغة، أي استخدام اللسان ضمن الكلام، ملكة سيميائية»[109].

وإذا كان الصوت، من حيث إدراكه من قبل الفرد المتكلم، علامة، فما هما داله ومدلوله؟ لا يمكننا الإجابة عن هذا السؤال إلا إذا انتقلنا إلى المستوى المورفيمي، أي بالنظر إلى الفونيم (أو الصوت من حيث كونه علامة) ضمن المورفيم الذي يشارك في تشكيله، وذلك بالتعرف على طبيعته الخلافية. ومن ههنا يمكن أن نستخلص أن الصوت لا وجود له في ذاته من حيث كونه صوتا أنجز مفردا، بل إن وجوده يستمده - أولا - من حيث اشتراكه في تشكيل مورفيما ما، ثم - ثانيا - من حيث كونه مختلفا عن بقية الفونيمات التي تسهم

---

(107) - Ibid.

(108) - F. de Saussure, ècrits de linguistique générale, p.39.

(109) - S. Bouquet, «Principes d'une linguistique de l'interprétation: une épistémologie néosaussurienne», Langages, nº 185, 2012, pp. 25-26.

في تشكيل هذا المورفيم. وبعد، فإن النتيجة التي نخلص إليها في هذا الشأن مفادها أن التمييز بين مختلف المستويات إنما هو تمييز منهجي، بالنظر إلى الطابع الخطي للكلام.

في التداوليات ولسانيات دو سوسير

لـم يكن للتداوليات - بادئ الأمر - صلة بالفكر اللسانياتي، بل إن الفكر الفلسفي هو الذي أنتج أولـى التصورات التداولية. ذلك أن اللغة، والألسن إذن، لـم تكن موضوعا انفردت بدراسته اللسانيات، بل إن الفلسفة نظرت هي الأخرى، منذ اليونان، فـي كثير من المسائل التي ارتبطت باللغة من حيث كونها ملكة إنسانية، وبالألسن بوصفها أنساقا سيميائية ووسيلة من وسائل التواصل البشري. ولعل التداوليات، من هذه الناحية، لـهي تتويج لهذا الـمسار الحافل بالتأملات، والتصورات، والأنساق الفكرية الفلسفية التي لم تغب عنها مسألة اللغة بل ظلت محورا مهما من محاور التحاور الفلسفي. فما بالنا ونحن نروم استكشاف ما جد من فكر دو سوسير اللسانياتي نعاود الحديث عن التداوليات ونخصها بالذكر في هذا الفصل؟

صحيح أن التداوليات نشأت أوّل الأمر من رحم فلسفة اللغة لكنها ما انفكت تعاود، في ثيابها اللساني، النظر في منجزات اللسانيات وتتهمها بالقصور في مدارسة الاستعمال اللغوي والاقتصار، بدل ذلك، على النسق اللساني، أو بعبارة أخرى، تُعنى باللسان وتتناسى الكلام. لقد رفعت التداوليات اللسانياتية منذ إنجازاتها الأولى راية الهجوم على اللسانيات وكثيرا ما ناصبت المسلمات اللسانياتية التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة العداء، ولئن كنا غالبا ما نتفهم حالة الامتعاض التي عبرت عنها مواد عملية حديثة من هيمنة اللسانيات البنوية، إلا أننا ما عدنا نتقبل إصرارها، وإصرار باحثينا العرب، على اتهام فكر دو سوسير اللسانياتي بهذا التقصير والإفراط، التقصير عن مدارسة الكلام والإفراط في مدارسة اللسان. ولئن ألقينا النظر مرة أخرى في ما استجد من فكر دو سوسير لاتضح لنا دون أدنى ريب أن الادعاءات التي تزعم أنه كان بنويا صرفا ادعاءات لا أساس لها من الصحة. ولقد بلغت هذه الادعاءات

مستوى من الغلو، نتيجة جهل، إلى درجة أنها باتت تقابل بين أنموذج دو سوسير، المؤسس الأول للسانيات، وأنموذج جون أوستين، المؤسس الأول للتداوليات[110].

ولكننا نود، قبل أن نستعرض مجمل النقود التي وجهت إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من قبل الباحثين في التداوليات اللسانياتية، أن نحدد مادة التداوليات وموضوعها، وفي هذا الشأن ميز ديكرو بين نوعين من التداوليات، أما النوع الأول من التداوليات فإنه يُعنى بكل ما له، ضمن عملية إنتاج المعنى، صلة بالحال التي أنجزت فيها الملفوظات، ولا يقتصر على دراسة البنية اللسانية للجمل المستعملة. ولقد بات الباحثون منذ ستينيات القرن الماضي مجمعون على ضرورة إدراج الحال ضمن العناصر المعينة على فهم الملفوظات وتفسيرها، لاسيما الملفوظات التي تشتمل على الضمائر، وتفترض تحديد ما تحيل إليه، وأفعال الكلام التي تفترض تحديد طبيعتها، وغيرها من العناصر الأخرى التي لا يمكن التعرف على مكوناتها إلا باللجوء إلى الحال التي أنجزت فيها. وأما النوع الثاني من التداوليات فإنه يُعنى في مقابل ذلك بالعلاقات التي تنعقد بين المتخاطبين حسب طبيعة أفعال الكلام التي يتبادلونها[111]. وفي كلتا التداوليتين، يبرز جليا الحرص على التميز عن الدراسات البنوية وتجاوز الحدود التي رسمتها لدراسة المعنى، وتحديد الآليات التي تعين على فهمه و تفسيره. ويمكننا، بعد التعرف على موضوع التداوليات، أن نوجز مجمل النقود التي وجهت إلى دو سوسير في المسائل الآتية: إزاحة الكلام من الدرس اللسانياتي، عدم العناية بالفرد المتكلم، إقصاء الحال والسياق والاستعمال من حقل اللسانيات.

---

(110) ينظر على سبيل المثال لا الحصر:

- J. Moeschler, «Pragmatique et linguistique de la parole», in R. Amacker et R. Engler (pub.), Présence de Saussure, Actes du Colloque international de Genève (21-23 mars 1988), Genève, Droz, 1990, p. 143.

(111) - O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, pp. 131-132.

إزاحة الكلام

اشتملت اللسانيات، كما هي مبثوثة في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة التي نشره شارل بالي وأبير سشهاي، ونسباه إلى دو سوسير، على قسمين؛ أحدهما أساسي موضوعه اللسان «langue»، والآخر ثانوي موضوعه الكلام «parole»؛ فاللغة «langage»، بوصفها ملكة إنسانية وميزة كلية مشتركة بين بني البشر كافة، تختلف اختلافا بينا عن الألسن التي تبقى جزئية ودائمة التغير، لا يتكلم بالواحد منها سوى عدد معين من الأفراد، قَلَّ أو كثر. ولذلك فإن دلالتَهما متمايزتان تمايزا واضحا؛ إذ اللسان قسم معلوم وأساسي من اللغة، «إنه (أي اللسان) نتاج لملكة اللغة، ومجموعة من المواضعات الضرورية التي يتبناه الكيان الاجتماعي كي يمكن أفراده من ممارسة هذه الملكة»[112].

لكن تقسيم اللسانيات على هذا النحو وترتيب قسميْه ترتيبا تفاضليا لا يخلو من تناقض إذا ما قارنا بعض الفقرات من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة ببعض، إذ بينما يعد الفصل بين اللسان والكلام وإخراج الكلام من دائرة اللسانيات مبدأ ثابتا، تراه في مواطن أخرى من الكتاب مبدأ نسبيا كما هو الحال عند الحديث عن التغير اللساني: «إن اللسان ضروري لكي يصبح الكلام مفهوما ويحقق كل آثاره، ولكن الكلام ضروري هو الآخر لكي يستقر اللسان، وهو من الناحية التاريخية أسبق، فكيف لنا أن نعمد إلى الجمع بين الفكرة والصورة السمعية لو لم نلحظ هذا الجمع سلفا ضمن فعل كلامي؟ [...] ثم إن الكلام هو الذي يمكن اللسان من التحول [...] إن ثمة إذن ترابط بين اللسان والكلام»[113].

وقد لازم فصل اللغة عن اللسان فصل الكلام عن هذا الأخير وإزاحته من نطاق اللسانيات ليغدو اللسان، في نظر واضعي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وحده - بوصفه نسقا سيميولوجيا منظما ومستقلا عن الفرد الذي يستخدمه من أجل الكلام - الموضوع العلمي الوحيد الذي يمكن

(112) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 25.

(113) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p.◦ñ.

للسانيات أن تصفه وفق قواعد خاصة بها، أما الكلام - ومن ثم الخطاب الذي تتلاحم في تشكيله عدة عناصر خارجية (الفرد المتكلم، الحال، المرجع، المعنى...) هي في الأصل موضوع علوم أخرى- لا يمكن أن يكون موضوعا علميا خاصا باللسانيات لا يشاركها فيه علم آخر[114].

ليس غريبا إذن أن تنبري أقلام اللغويين المحدثين، لاسيما من نحا منهم المنحى التداولي، للتبليغ عن هذا التناقض الصارخ إلى درجة القدح في تصور دو سوسير، وما هو بتصور دو سوسير، ولو أنهم اجتهدوا في العودة إلى الأصول التي أنشأ منها شارل بالي وألبير سشهاي نص كتاب المحاضرات لأدركوا مقدار الآثار الوخيمة التي نجمت عن اجتهاداتهما، فصحيح أن دو سوسير ميّز بين اللسان والكلام، وصحيح أيضا أنه افترض لكل منهما نظرية خاصة تتخذه موضوعا لها، لكنه ما اتخذ اللسان، بأي حال من الأحوال، الموضوع الرئيس للسانيات العامة وما أخرج منها البحث في الكلام. ولو عدنا إلى دروس محاضرات السنة الثالثة كما هي منشورة من قبل كوماتسو لبان لنا موقف دو سوسير المنهجي جليا[115].

ولقد أسهمت مخطوطات دو سوسير المنشورة في دحض هذا الزعم القائل بإقصاء لسانيات دو سوسير الكلام من مجال تحرياتها وأبانت عن حقيقة كونه مجرد اختلاق، ففي بعض الملحوظات المحضرة للمحاضرات الثانية (1908-1909) المحققة ضمن كتاباته الجديدة أشار دو سوسير إلى التمييز بين اللسان والكلام ضمن سلسلة من الثنائيات هي: ثنائية الجانبين النفسيين للعلامة، ويعني بهما الدال والمدلول، وثنائية الفرد والجماعة، حين يقول: «تتألف الثنائية الثالثة من اللسان والكلام (إن العلامة، لأنها مزدوجة سلفا من خلال الجمع الداخلي الذي تتألف منه ومزدوجة لانتمائها إلى نسقين، هي في استعمال «manutention» ثنائي). إن اللسان منظم اجتماعيا ولا يرتبط بالفرد، أما ما هو مرتبط بالفرد، أو متصل بالكلام، فهو 1) كل ما صوتي، و 2) كل ما تأليف «combinaison»،

---

(114) - Idem, p 30.

(115) - F. de Saussure, Troisième Cours de linguistique générale (1910-1911), d'après les cahiers d'Emile Constantin, p. 92.

وكل ما هو إرادي »[116]، ولو كان دو سوسير رام إقصاء الكلام من اللسانيات ما توانى عن الإفصاح به، بل يكتفي بالإشارة إلى وجود لسانياتين، دون أي ترتيب بينهما.

لقد ظل هذا الترتيب الذي فرضه شارل بالي وألبير سشهاي على اللسانيات سائدا لفترة طويلة من تاريخ اللسانيات الحديث، وظل مفهوم اللسان، بوصفه سننا «code» هو الآخر[117]، المفهوم الذي توارثته أجيال من اللغويين، لاسيما بعدما اتخذه ياكبسون مفهوما إجرائيا لتحليل عملية التواصل. وإذا كانت هذه التفرقة، من المنظور الإبستيمولوجي، الملاذ الذي لجأ إليه السوسيريون من بعد لما كانت تحققه من توجه علمي جديد مقارنة بالممارسات اللسانياتية الأولى، فإنها ما انفكت تبين عن قصورها في معالجة العلاقات الوثيقة التي يقيمها الأفراد المتكلمين فيما بينهم، والتي تتجلى بكل وضوح في أفعال الكلام، التي كان يعتقد في استحالة دراستها دراسة موضوعية وصياغتها في قوانين ثابتة. ولعل اقتضاء الكلام للأفراد، سواء متلفظين أو كتبة، مستمعين أو قارئين، وحال تلاقي بينهم، وواقع يحيلون إليه، وأفعال كلامية يصدرونها، حال دون إقبال جل المناهج البنوية على دراسة الكلام، لاعتصامهم بمقولة المحايثة التي تقتضي مدارسة اللسان في ذاته ولذاته، ولاسيما تصور شارل بالي وألبير سشهاي للفرد المتكلم بوصفه فردا حرا منتجا لملفوظات لا يوجد ما يقال عنها نتيجة تضافر وقائع كبيرة في تكوينها؛ لسانية، ونفسية، واجتماعية وأنثروبولوجية.

ولعل النتيجة الأولى التي تصدر عن هذا التصور فصل مفهوم الخطاب عن آليات إنتاجه التي أسهمت في تكوينه ومختلف الوقائع المرتبطة به؛ إذ لا يخفى ههنا مدى تأثير الفلسفة الكانتية والنظرية الاقتصادية البورجوازية، وكيف يخلف الفصل بين اللسان والكلام تغييب الفرد المتكلم (أو إرجائه) من حقل التحريات اللسانياتية، مثلما ينتج الفصل بين السنكرونية والدياكرونية إزالة التاريخ. ولذلك يغدو الكلام مجرد مجموعة عينات يستعان بها للوصول إلى اللسان، مجموعة

(116) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 298.

(117) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p.٥.

من الجمل مصاغة سلفا لا غير، تضع حدا لأقصى المراتب التي يمكن للتحليل الوصول عندها، ويبقى النص أو الخطاب خارج دائرة المعرفة، مجهول المعالم، صعب المنال.

إننا لم نتمكن على الرغم من تجوالنا الدؤوب في أدبيات اللسانيات السوسيرية من الوقوف على الحجج والظروف والغايات التي دفعت بشارل بالي وألبير سشهاي إلى اتخاذ قرار إقصاء الكلام من حقل اللسانيات. والغريب في الأمر إقرارهما بوجود لسانيات، غير اللسانيات التي ملآ بها صفحات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، تعنى بالكلام، لكنها، في نظرهما، لسانيات ثانوية، بينة الحدود مع لسانيات اللسان.

الفرد المتكلم

يمثل إقصاء الكلام من مجال اللسانيات في حقيقة الأمر ثلاثة إقصاءات؛ إنه إقصاء للأفراد المتكلمين، وإقصاء للحال، وإقصاء للاستعمالات اليومية للغة[118]؛ فقد اقتدى ياكبسون بشارل بالي وألبير سشهاي في إقصائهما للأفراد المتكلمين وأضحى نموذجه التواصلي الذي وضعه على إثر بوهلير الإطار العام الذي ما إن حاولت اللسانيات أن تطل على الكلام، أي على استخدامات السنن «code»، إلا واقتدت به؛ فهو موضوع في شكل حوار مثالي بين شخصين حرين واعيين، يمتلكان السنن نفسه، وتسيره وظائف معلومة[119]، كما يوحي إليه مخطط ياكبسون المشهور.

وعلى الرغم من الفائدة التي اكتساها النموذج اللساني آنذاك، مقارنة بالنماذج التواصلية الأخرى - كالنماذج التقنية (نموذج شانون وويفر، سبرنيطيقا وينر)، ونماذج التفاعل الاجتماعي - بتأكيد ياكبسون على أن تبادل المرسلات ليس مجرد بث فيزيائي للمعلومات، إنما هو نشاط وظائفي يرتبط في الآن ذاته بالمرسل والمتلقي، وبمكونات النموذج الأخرى، وعلى الرغم من أن نموذجه

(118) - R. Eluerd, La pragmatique linguistique, Paris, F. Nathan, 1985, p 9.

(119) - R. Jakobson, Essais de linguistique générale, tr N. Ruwet, Paris, éd Minuit, 1963, p 214.

يختزن البذرة الأولى التي ستنمو منها إحدى الأسس التي اعتمدتها مختلف المقاربات التي عنيت بتحليل المحادثة، والمتمثلة أساسا في إدراج - ولو بتحديد غير دقيق - الظروف الاجتماعية للتواصل ضمن ما حدد بمفهوم السياق، فلقد ظل، وكثير من اللغويين على إثره، على غير اكتراث بالعلاقات الاجتماعية ضمن دراسة المبادلات اللسانية[120]، غافلين عن تحذير باختين منذ العام 1929 من النزعة الـموضوعية الـمجردة في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، حيث كتب أن «مادة اللسان ليست مكونة من نسق مجرد من الأشكال اللسانية، إنما يتألف من ظاهرة التفاعل الكلامي الاجتماعية»[121]. وهي الأطروحة التي أخذت بها فيما بعد إثنوغرافيا التواصل التي اقترحت نموذجا تواصليا يؤكد على مفهوم الحال الاجتماعية.

هذا، وقد ثار كثير من اللغويين المحدثين على ميزة التجانس التي ميزت بها اللسانيات موضوعها؛ أي اللسان أو السنن كما في عرف ياكبسون؛ جاعلا منه، ضمن مخططه التواصلي الذي لمحنا إليه من قليل، قاسما مشتركا بين الباث والمتلقي، لا وجود فيه للملكية الفردية وليست اللهجة الفردية عنده سوى ضرب من الخيال[122]، ولذلك ألمح ليريس أن «كثيرا من الناس يعتقدون اعتقادا ساذجا أن اللغة ولدت لتسهل لديهم علاقاتهم المتبادلة، ولأجل ذلك وضعوا المعاجم ليدونوا بها كلماتهم، المحددة المعنى، القائم على العادة والمعرفة بأصول الكلمات «étymologie». بيد إن المعرفة بأصول الكلمات علم لا نفع فيه تماما لأنه لا ينبأ عن معنى الكلمة الحقيقي شيئا؛ أي دلالتها الخاصة، الفردية، التي يضفيها على الكلمة كل واحد حسب رغبته»[123].

كما أشارت أوراشيوني[124] من جهتها إلى هشاشة مفهوم السنن وبانتقاد

(120) - E. Marc et D. Picard, L'interaction sociale, Paris, P. U. F., 1989, p 26.

(121) - M. Bakhtine, Le marxisme et la philosophie du langage, p 136.

(122) - R. Jakobson, Essais de linguistique générale, Paris, Seuil, 1963, p 33.

(123) - M. Leiris cité par C. Kerbrat-Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, A. Colin, 1980, p 228, n 8.

(124) - C. Kerbrat-Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 14.

تجانسه المزعوم لم يلبث الفكر اللسانياتي أن برهن على ضرورة تخطي هذا التصور، وسواء كان اللسان ذلك الكنز الخارجي عن الأفراد - كما هو في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة[125] - أو كان موضوعا باطنيا - في شكل كفاية لدى الفرد المتكلم فتجعل منه فردا مثاليا، مجردا، وممثلا لمجموعة لسانية متجانسة - كما هو عند شومسكي[126]، فإن هذا التصور لا يعبر عن حقيقة اللسان الذي تمتزج فيه كثير من اللهجات، الجماعية والفردية. ثم إن مفهوم التواصل الذي يقتصر مدلوله - بحسب ديكرو[127] - على عملية تبادل المرسلات قصد إعلام المتلقي بمعلومات لم تكن لديه من قبل لم يعد يحضا بقبول عدد من اللغويين وفلاسفة اللغة، على الرغم من القطيعة الإبستمولوجية التي أحدثها مع تصور القرن التاسع عشر لوظيفة اللغة الأساسية والمتمثلة في تمثيل الفكر، ولم يكن استعمالها الفعلي بالنسبة له سوى وظيفة ثانوية، بل إنها وظيفة خطيرة لأنها تؤدي بالألسن إلى الاختلال التدريجي والانقراض. كما بين بنفينست[128] استحالة تحديد معنى بعض الوحدات (أنا «je» وأنت «tu») التي تنتمي إلى اللسان خارج إطار الكلام، ولا يقتصر الأمر على هذين الضميرين، بل يتعداهما إلا كثير من الوحدات اللسانية الأخرى حتى لتغدو الذاتية وقد حلت في جميع أركان الألسن؛ فضميري المتكلم «je» والمخاطب «tu» لا تكمن حقيقتهما إلا ضمن الخطاب الذي يمنح لهما تفردهما، إذ لا يدل الضمير «je» إلا على الشخص الذي يتكلم[129]، وهذا يعني أنه لا يكتسي أي قيمة إلا ضمن الحال التي أنشأ فيها، ولا يكتسب وجودا لسانيا إلا ضمن الكلام[130].

وفضلا عن هذا الإسهام فقد كان لبنفينست الفضل في تخليص اللسانيات من ربقة التمييز بين اللسان والكلام وتبعاته؛ إذ جعل من الجملة بدورها الوحدة

(125) - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p 30.

(126) - N. Chomsky, Aspects de la théorie syntaxique, tr. J.-C. Milner, Paris, Seuil, 1971, p 12.

(127) - O. Ducort, Qu'est ce que le structuralisme, Paris, Seuil, 1968, p 12.

(128) - E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, 1, Paris, éd Gallimard, 1966, p 228.

(129) - Idem, p 252.

(130) - R. Eluerd, La pragmatique linguistique, Paris, Nathan, 1985, p 32.

اللسانية الصغرى لمجال أوسع أسماه بالخطاب، وبذلك «نغادر ميدان اللسان - يقول بنفنست - بوصفه نسقا من العلامات لنلج فضاء آخر، هو فضاء اللسان بوصفه وسيلة للتواصل، تعبيره الخطاب... وهـما، أي الجملة والخطاب، ميدانان مختلفان بالرغم من أنهما ينطويان على الحقيقة نفسها، وينتجان نوعين مختلفين من اللسانيات على الرغم من أن سبيليهما يتقطعان في أي لحظة؛ فهناك من جهة، اللسان بوصفه مجموعة من العلامات الصورية، التي يتم إبرازها بإجراءات صارمة، وترتيبها ضمن أقسام، وتنظيمها ضمن بنيات وأنساق، ومن جهة أخرى تمظهر اللسان ضمن التواصل الحي»[131]. وعلى إثر هذا التصور الجديد، وبعد ضم دراسة استعمال النسق إلى دراسة النسق بدأ التساؤل عن طبيعة الوقائع التداولية؛ هل تنتمي إلى الكفاية أم إلى الأداء؟ إلى اللسان أم إلى الكلام؟ وهي مسألة ترتبط بطبيعة النظرية التداولية ذاتها؛ فإذا كانت التداوليات تنتمي إلى حقل الدلاليات أو ما يدعى بالتداوليات المدمجة - كما هو موقف ديكرو - فإنها تنتمي إلى لسانيات اللسان، أما إن كانت منفصلة عن النظرية اللسانية (التي تقتصر على الدراية الفونولوجية والتركيبية والدلالية)، فإنها إذن من اختصاص لسانيات الكلام التي تعنى باستعمالات نسق اللسان[132]، وهي الوجهة التي يتخذها غرايس.

إن الإقرار بإقصاء لسانيات دو سوسير للفرد المتكلم إقرار لم يعد له قاعدة علمية تسنده، بل بات من الفرضيات الواهية التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فقد مكنت مخطوطات دو سوسير المنشورة ضمن كتاباته في اللسانيات العامة من إدراك مدى كثافة حضور الفرد المتكلم في تصوراته اللسانياتية، وإن الباحث وهو يتصفح هذه الكتابات ليدرك المكانة التي حضي بها الفرد المتكلم في تصور دو سوسير لجملة من المسائل اللسانياتية من مثل التمييز بين الصور الصوتية والأشكال اللسانية، إذ إنه تمييز قائم في وعي الفرد المتكلم، «إن الشكل صورة صوتية محددة في وعي الأفراد المتكلمين، أي أن

---

(131) - E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, 1, p 130.

(132) - J. Moeschler, Théorie et pragmatique conversationnelle, Paris, A. Colin, 1996, p 24.

لها وجودا معلوما وحدودا معلومة»[133]. ولقد تواتر اللجوء إلى الفرد المتكلم، وإلى وعيه بوصفه عنصرا أساسيا في المعادلة اللغوية عند دو سوسير، إلى درجة التكافؤ القائم بين مفهوم اللسان (وليس الكلام) ومفهوم الفرد المتكلم، في فكر دو سوسير، «إن أولى الحقائق اللسانياتية هي القول بأن اللسان (أي الفرد المتكلم) لا يدرك لا الفكرة، ولا الشكل، وإنما يدرك النسبة القائمة بينهما»[134]. ولذلك كانت إحدى النقود التي وجهها دو سوسير إلى من سبقه من اللغويين، ولاسيما اللسانيات التاريخية المقارنة، أو ما كان يسميه بمدرسة فرانز بوب، عدم وعيها بالفرد المتكلم، «إن سوء الفهم الذي وقعت فيه المدرسة التي أسسها فرانز بوب يكمن في اعتقادها امتلاك الألسن جسدا وجودا افتراضيين دونما ارتباط بالأفراد المتكلمين»[135].

إقصاء الحال والسياق

لقد رافق إقصاء الأفراد المتكلمين إقصاء من قبل اللسانيات الصورية، البنوية والتوليدية الحال من مجال ممارستها، وهي، أي الحال، تشمل عادة السياق النصي؛ أي المحيط الكلامي أو الكتابي للملفوظ، السياق الموقفي الذي يشمل كل ما يحيط بالأفراد المتكلمين، بما في ذلك الزمن والمكان والغرض الذي تواصلوا من أجله، فضلا عن السياق العالمي[136]. ولعل الصفة الأولى للسياق مما يتعين التوكيد عليها - على حد تعبير فان دايك[137]، هي الصفة أو الميزة المحركة، فليس السياق مجرد حالة لفظ، وإنما هو على الأقل متوالية من أحوال اللفظ وفضلا عن ذلك، لا تظل المواقف مماثلة في الزمان، وإنما تتغير وعلى ذلك فكل سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث.

والطريف في الأمر أن مفهوم السياق أضحى المعيار الذي يتخذه كثير من

(133) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p 37.

(134) - Idem, p 39.

(135) - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p.129.

(136) - R. Eluerd, La pragmatique linguistique, p 13.

(137) ت. فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000، ص 258.

الباحثين في تصنيف الدراسات التداولياتية، كما هو شأن كل من باريت وفرنسيس جاك؛ إذ يُلاحَظ أن مفاهيم السياق النصي أو اللساني، والسياق المرجعي، وسياق الحال والسياق التفاعلي كلها مفاهيم ترتبط ارتباطا وثيقا بنوع خاص من الممارسات التداولياتية؛ بحيث يحيل مفهوم السياق النصي إلى جملة الدراسات التي تمخضت عن اللسانيات النصية، وتحليل الخطاب والمحادثة، ويفترض تجاوز أطر الجملة إلى نصوص بأكملها لا تغدو الجمل فيها سوى مؤشرات لتنظيم وحدات أشمل منها.

وبينما يشير مفهوم السياق المرجعي إلى تداوليات الفلاسفة المناطقة الذين تمخضت أعمالهم عن تأسيس تداوليات الإشارة كما هي بارزة عند مونتاغ، في حين طرح مفهوم السياق الحالي الذي يتسع مجاله ليشمل كل الأحوال التي تنتجها الثقافة كالطقوس الاحتفالية والنقاشات البرلمانية، والمرافعات أمام المحاكم، والمفاوضات وغيرها، أمام علماء اللسانيات الاجتماعية مسألة تصنيف هذه الأحوال وأي المعايير الاحتكام إليها؛ مثل مفهوم الدور الذي يضطلع به المشاركون. وأخيرا نشأت كثير من الأبحاث التداولية على مفهوم السياق التفاعلي الذي يمكن بموجبه عزل صنف معين من الأحوال يتكون أساسا من الأفعال اللسانية ذاتها. وإذ ذاك يبدو لنا كيف يصبح مفهوم السياق مفهوما محوريا وأداة إجرائية فعالة بالنسبة للأبحاث التداولية حتى ليغدو صفة ملازمة لنظرية بعينها كما هو شأن نظرية فيرث السياقية للمعنى، إذ يقوم تحليل معنى - على حد تعبير ليونس[138] - الملفوظ على تسييق تسلسلي للوقائع، سياق داخل سياق، كل واحد من هذه الأسيقة يعد وظيفة، أو عنصرا من السياق الأشمل، بحيث تنتمي كلها إلى سياق الثقافة.

الاستعمال

لم تكن الاستعمالات العادية للغة تثير اهتمام علماء اللغة حتى عهد قريب لا لشيء إلا لأنها كانت تمثل بالنسبة لهم الجانب العشوائي وغير المنظم من

(138) J. Lyons, Sémantique linguistique, p 235.

اللغة وقد بين لنا التاريخ - على حد تعبير مارتني[139] - مدى صعوبة استخراج اللسانيات العلمية من النحو المعياري، إذ كان معظم الذين اهتموا باللغة أو بالألسن حتى عهد قريب إنما يفعلون ذلك بمقاصد معيارية، سواء أَجَهروا بها أم بدت من أعمالهم. ولم يكن النحاة القدامى يعتقدون في تميز اللسان المكتوب عن اللسان المنطوق وحسب، بل إن في اللسان المكتوب شكل مميز، اللسان الأدبي، هو أكثرها صحة ونقاء، فكان دورهم يتمثل في المحافظة عليه من الفساد[140]. فالمعيارية التي التزمت بها جل المدارس النحوية وأورثتها اللسانيات التي اقتفت أثرها في الاكتفاء بدراسة السنن بدل استعمالاته اليومية حالت دون وصف شامل لكل جوانب اللغة المتعددة.

ولقد بينت كثير من الدراسات اللسانية المعاصرة أنه من المستحيل أحيانا وصف بعض السلوكات القولية دون اللجوء إلى محيطها غير القولي، وبصفة عامة لا يمكن دراسة المعنى دراسة كافية دون الأخذ بعين الاعتبار المرجع، ولن نتمكن من تحليل الكفاية اللسانية ما لم ندرج دراسة الكفاية الأيديولوجية، ولن نتمكن من وصف مرسلة ما ما لم نكن على دراية بالسياق الذي نشأت فيه والآثار التي ترمي إلى تحقيقها[141]. فالكلام على - حد تعبير كربرات أوراشيوني[142] - والمحادثة إذن، ليس مجرد تبادل للمعلومات، بل هو إنجاز لفعل ما، محكوم بقواعد خاصة، قد تكون البعض منها حسب هبرماس كلية، من شأنه تغيير حالة المتلقي ونسق معتقداته و/أو موقفه السلوكي. وهذا يعني أن فهم الملفوظ يفترض تحديد - فضلا عن محتواه الإعلامي - مرماه التداولي؛ أي قيمته وقوته الأدائيتين. إن استعمال اللغة ليس - على حد تعبير فان دايك[143] - إنجاز فعل مخصوص فقط، وإنما هو جزء كامل من التفاعل الاجتماعي. فأنساق اللغة هي أمور متواضع عليها، إذ هي لا تنظم ضروب

---

(139) - A. Martinet, Eléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1980, p 6.

(140) - J. Lyons, Linguistique générale, tr F. Dubois-Charlier et D. Robinson, Paris, Larousse, 1970, p 35.

(141) - C. Kerbrat-Orecchioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, p 8.

(142) - Idem, p 185.

(143) ت. فان دايك، النص والسياق، ص 227.

التأثير والتأثر الاجتماعي فحسب، وإنما مقولات تلك الأنساق وقواعدها تنمو وتتطور تحت تأثير بنية التفاعل داخل المجتمع.

لكن، وعلى الرغم من هذه التطويقات، فإن وجهة النظر السوسيرية (أي اللسانيات البنوية) - إذ كان دو سوسير كثيرا ما يردد بأن وجهة النظر هي التي تحدد موضوع الدراسة - أثمرت في صياغة طرق تحليل فعالة، خاصة طريقة الإبدال، التي استطاعت بفضلها تقسيم المدونة، وتحديد الوحدات الدلالية والصوتية الصغرى غير الدالة بكل دقة، والاهتداء إلى الخصائص المميزة التي تشكل التقابل بين الوحدة وسائر الوحدات الأخرى من المستوى ذاته، المورفيمي، والفونيمي، وجمع الوحدات التي تشترك في بعض الخصائص التوزيعية ضمن أنموذج معين(144).

وإذا كانت النتائج التي توصلت إليها اللسانيات البنوية في ميدان الفونولوجية من الأهمية ما لا يمكن لأحد نكرانها، فإن التركيبيات صاغت هي الأخرى تحليلا للجمل إلى مكوناتها المباشرة يعبر أحسن تعبير عن كيفية انتظام العلاقات القائمة بين المقطوعات داخل الجملة، وداخل هذه الأخيرة، بين المورفيمات، كما استطاعت الدلاليات مؤخرا من التوصل إلى استثمار المبادئ البنوية في تحليل المعنى عن طريق البحث عن الخصائص المميزة للمعنى، أي السيمات، على شاكلة الفونولوجية في بحثها عن الفيمات. ومن ههنا، فإن في حساب اللسانيات البنوية سجلا حافل بالاكتشافات حق لها أن تكون مرحلة حاسمة من مراحل تطور اللسانيات الحديثة.

لقد آخذ شومسكي البنوية على عدم أخذها بعين الاعتبار مسألة الإبداع التي يولد بموجبها المتكلم المستمع بقدر محدود من الأصناف والقواعد التي تمثل كفايته اللسانية، عددا غير محدود من الجمل، وليس سواها. ويبرر رفض النحو التوليدي لبعض التصورات السوسيرية فيقترح استبدالها بتصورات أخرى؛ فمن التصور الآني للغة، إلى تصورها الدينامي، ومن الاكتفاء بإدراك الوقائع على مستوى تسلسل المورفيمات والفونيمات إلى افتراض سلسلة من المستويات

---

(144) J. Cervoni, L'énonciation, Paris, P. U. F., 1987, p 10-11.

المتراتبة على مستوى كل جملة، ومجموعة من القواعد التحويلية للانتقال من البنية العميقة إلى البنية السطحية، وأخيرا، من وصف بنوي للمدونات إلى افتراض شكل اشتقاقي من نوع رياضي لسلسلة من العمليات المنظمة التي يكون نتاجها الجملة. ويمثل التمييز بين الكفاية والأداء عند شومسكي تمييزا بين المعارف (أو مجموع المعلومات) التي يتوفر عليها المتكلم المستمع المثالي بخصوص لسانه، وبين تحيين هذه المعارف أثناء عملية التواصل، ليصبح موضوع اللسانيات؛ اللسان، ذلك النسق المركب من القواعد الفونولوجية، والتركيبية والدلالية المستبطنة من قبل الفرد المتكلم.

وإذا كان هذا التمييز يقترض الكثير من تمييز دو سوسير بين اللسان والكلام، فإن الاختلاف الجوهري بين الكفاية والأداء من جهة وبين اللسان والكلام من جهة أخرى يرتبط أساسا بوصف الكلام من قبل دو سوسير بالفعل الفردي واللسان بالكنز الجماعي، في حين ليست الكفاية لدى شومسكي خاصية للجماعة بل خاصية للفرد المتكلم[145]، وبذلك استطاعت اللسانيات التوليدية زحزحة الدرس اللساني ناحية الفرد بعد إذ صار السنن إطار الممارسات اللسانية على مدى سنين طوال.

ويجب التذكير في هذا المقام بأن صاحب النحو التوليدي لم يوضح بجلاء في بعض كتاباته تمييزه بين الكفاية والأداء؛ ففي البعض منها تظهر الكفاية وكأنها مستقلة تماما عن الأداء، في حين يظهر الأداء في بعض الكتابات الأخرى وكأنه الإنجاز التطبيقي لتوليد القواعد الذي تحتوي عليه الكفاية، وهو التصور الذي نشأت عنه عدد من الأبحاث اللسانية النفسية التي عنيت على وجه الخصوص بإثبات تصورات شومسكي للكفاية استنادا إلى بعض معطيات الأداء التجريبية[146].

هذه الدراسات اللسانية النفسية انقسم أصحابها عموما إلى فريقين؛ فريق

- O. Ducrot et T. Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, (145) Seuil, 1972, p 159.

- J. P. Bronckart, Théories de langage, une introduction critique, Bruxelles, P. Mardaga, (146) 2e éd., 1981, p 251.

ركز على مفهوم التحويل، بوصفه عملية فردية، تحدث في الزمن ومن ثم يمكن حسابها، بحيث يستلزم إنتاج الجملة المركبة جملة من التحويلات المنفصلة عن بعضها البعض، يمثل مجموع مدد إنجازها المدة الإجمالية لإنجاز الجملة. وفريق آخر نشأت أبحاثه عن التعديلات التي أجراها شومسكي على نظريته، خاصة بعد صدور كتابه «Aspects of the theory of syntax» العام 1965، وإدراج الدلاليات كمكون أساسي للنموذج وتقليص دور التحويلات ووضعها «statut». وقد ظهر تأثير شومسكي على هذين الفريقين بوضوح وقوة مقارنة ببعض اللغويين النفسانيين الآخرين الذين اعتبروا النحو التوليدي يوفر أفضل وصف ممكن للجمل للمقاربة اللسانية النفسية التي تعنى باستكشاف العمليات التي ينتج بها المتكلم الملفوظات ويفهمها[147].

وكان فهم الجمل أو استخراج المعنى بوجه عام يقتصر بتأثير من اللسانيات التوليدية على البحث في المكونات التركيبية للجمل أو الخطابات، وقد اهتدت اللسانيات النفسية خلال الستينيات بنموذج شومسكي، لكن كثيرا من هذه الأعمال التي عنيت ابتداء من الستينيات بكل ما له ضمن المعنى صلة بسياق التلفظ، بينت قصور المادة اللسانية في تحديد المعنى؛ فمعرفة السياق ضرورية مثلا من أجل تحديد المرجع الذي تحيل إليه الضمائر، ومعرفة طبيعة فعل الكلام الذي ينجزه المتكلم من خلال إمكانية التمييز بين الإعلام والتحذير والوعد وغيرها، وحتى في تحديد عدد الأفراد المقصودين وغيرها من المقاصد التي يبتغيها المتكلم، والتي لا يمكن إدراكها لولا إحالتها الدائمة على السياق[148].

وامتداد لهذا التصور نادى عدد من اللغويين المحدثين - ريكاناتي[149] مثلا - بضرورة التمييز بين معنيين للجملة؛ معناها الوصفي ومعناها التداولي الذين يمثلان معناها العام، فقد يكون للجملتين المعنى الوصفي ذاته دون أن

(147) - Idem, pp. 255-261.

(148) - O. Ducrot et J.-M. Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1995, p 128.

(149) - F. Recanati, Les énoncés performatifs, Paris, Minuit, 1986, p 25.

تشتركان في المعنى التداولي؛ من ذلك قولنا: «رحل أحمد إلى المدينة» و«محمد! رحل إلى المدينة». ويظهر جليا هذا التمييز بين قسمي معنى الجمل العام على مستوى مكوناتها؛ فدلالة الكلمة «طاولة» دلالة وصفية، تجمع بين هذه الكلمة وبين نوع من الأشياء التي نتلكم بشأنها وذلك باستعمالها، في حين أن الدلالة المنوطة بصيغة الأمر دلالة تداولية لا تجمع بين الكلمة ونوع الأشياء التي نتلكم بشأنها حين استعمالها، ولكن بين الكلمة وما ننجزه بها.

نحو لسانيات للكلام

لا يمكننا ههنا أن نخوض في تفصيل كل العقبات التي حالت دون اهتداء اللسانيات إلى البعد التداولي، ولكننا نريد أن نذكر مرة أخرى بالآثار الوخيمة للاجتهادات التي قام بها شارل بالي وألبير سشهاي في التعبير عن أفكار دو سوسير، حتى ننبه، كما نبه عدد من دارسي النصوص السوسيرية، إلى الضرر الذي ألحقاه بمحاضراته وقدموها للمجتمع العلمي على أنها أفكاره، وما هي بأفكاره، إن هي إلا محاولات لسانية لا علاقة لها بما كان دو سوسير يلقنه لطلبته، ولولا العثور على مخطوطاته لظل فكر دو سوسير اللساني الأصيل مجهولا. وإن الباحث، وهو يتصفح هذه النصوص التي لم تترجم بعدُ إلى اللسان العربي، يدرك لا محالة الهوة التي تفصل كتاب دو سوسير المزعوم عما تحويه هذه المخطوطات من مسائل فلسفية، ولسانية، وإبستيمولوجية، ومنهجية، وتاريخية، وغيرها من المسائل التي لا يسعنا - ههنا - تتبعها وإحصائها. لكننا سنكتفي بالإشارة، إذ يتعلق الأمر بحقل التداوليات، إلى مسألة لا شك في أنها ستعيد النظر من جديد في كثير من الأفكار التي نسبت إلى دو سوسير، ونعني بها مسألة «الخطاب» وعلاقته باللسان، ففي «ملحوظة حول الخطاب»، يتساءل دو سوسير عن معنى الخطاب ويميزه عن اللسان تمييزا صريحا.

يقول: «لا يُبتكر اللسان إلا لغاية التخاطب، ولكن ما الذي يفصل الخطاب عن اللسان، أو بعبارة أخرى، ما الذي، في لحظة ما، يجيز لنا القول بأن اللسان تحول إلى خطاب؟ إن اللسان يتوفر على مجموعة من المفاهيم الجاهزة، أي متخذة شكلا لسانيا، مثل ثور، وبحيرة، وسماء، وقوي، وأحمر، وحزين، وخمسة، وذاب، ورأى، ففي أي وقت، واستنادا إلى

أي علمية، ووفقا لأي علاقة، وفي أي ظروف، تُنشأ هذه المفاهيم خطابا؟ إن سلسلة المفاهيم هذه، على الرغم من سعتها بما توحي به من أفكار، لن تُطلع أبدا أي إنسان أن المتلفظ بها يريد إبلاغه شيئا ما. فما الذي يجب توفره حتى نفهم شيئا ما من خلال استخدام المفاهيم التي يتوفر عليها اللسان؟ والسؤال هذا سؤال عن ماهية الخطاب، والإجابة عنه لأول وهلة إجابة بسيطة: ففيما يقوم الخطاب على التوكيد على العلاقات التي تنعقد بين هذه المفاهيم التي صيغت لسانيا، يقتصر اللسان، سلفا، على صياغة المفاهيم، منفردة تنتظر أن يجمع بينها حتى يتم التعبير عن الفكر»(150).

لا بد أن نشير قبل المضي في تفسير هذه المذكرة إلى العقبات الناجمة عن الترجمة، والتي عادة ما تحول دون تمثل دقيق وأصيل للمعنى، فلو عدنا - مثلا - إلى النص الأصلي لألفينا دو سوسير يعبر عن علاقة الخطاب باللسان بقوله:

«La langue entre en action comme discours»

في حين أننا اكتفينا بترجمة العبارة على النحو التالي: «أن اللسان تَحَول إلى خطاب»، فأغفلنا، أو فقدنا، دلالة هامة من دلالات هذه العبارة، وهي أن اللسان إنما يتحول إلى خطاب، عن طريق الفعل، أي أن الخطاب يُفعِّل اللسان، فيصبح بذلك الخطاب نشاطا لسانيا. وليست العقبات التي تحول دون تمثل صحيح للمعنى والناجمة عن الترجمة ميزة الانتقال من اللسان الفرنسي إلى اللسان العربي، بل هي ميزة النقل عموما، فلقد أشارت - مثلا - الباحثة ألكسندرا نوفكوفسكا(151) إلى المعوقات التي حالت دون استيعاب صحيح لفكر باختين بعد ترجمة آثاره إلى اللسان الفرنسي، ولاسيما صعوبة تأويل بعض المصطلحات الروسية المستعملة من قبل هذا السيميائي إذ إنها تتخذ دلالات متنوعة من العسير تحديد أي منها أولى بالاحتفاظ، ومنها عبارة «slovo» التي قد تعني الكلمة، أو المصطلح، أو الخطاب أو الكلام.

(150) - F. de Saussure, «Note sur le discours» (Fonds BPU 1996), in ècrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002, p. 277.

(151) - A. Nowakowska, «Dialogisme, polyphonie: des textes russes de M. bakhtine à la linguistique contemporaine», in J. Bres et al., Dialogisme et polyphonie, Bruxelles, De Boeck, 2005, p. 20.

خاتـمة

إننا نأمل بعد الذي جئنا على ذكره من القرائن والحجج، وما سقناه من النصوص والفقرات من كتابات دو سوسير الجديدة، وما عايناه من الأفكار التي احتوى عليها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، نأمل أن القارئ أضحى مقتنعا بضرورة وضع كتاب المحاضرات جانبا، والإقبال على نصوص دو سوسير الأصلية، حتى يتمكن من الاطلاع على أفكاره الأصيلة التي لا خلل فيها ولا اضطراب.

ولئن بتنا نفهم طبيعة النقود التي توالت على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة منذ العقود الأولى التي تلت نشره بالنظر إلى طبيعة تكوينه، وكيفية ترتيب أجزائه وفصوله، فإن الحاجة أضحت ملحة لإعادة النظر من جديد في تاريخ اللسانيات في ضوء ما استجد من فكر دو سوسير اللسانياتي والسيميائياتي، على إثر تحقيق جزء من مخطوطاته المودعة في مكتبتي جامعة جنيف وجامعة هارفارد، مخطوطات تبرز مدى تنوع فكر دو سوسير وتنوعه، إذ لم نعد نختزله في جانبه اللسانياتي، بل أضحى يطرح مسائل فلسفية، وأنتروبولوجية، وأدبية ونقدية. وإنا نأمل أن تسارع الجامعات والمؤسسات العلمية العربية إلى استدراك هذا النقص فتعين في وضع نسخ من هذه المخطوطات في متناول الأساتذة وطلبة الجامعات المعنيين بالفكر اللسانياتي المعاصر، لما تفتحه من آفاق جديدة تعيد النظر في كثير من مسلمات اللسانيات الحديثة والقديمة، وتسهم في مد الجسور بين لسانيات دو سوسير واللسانيات العربية لاشتراكهما في عدد من المسائل، نراها غير قليلة.

والحمد لله من قبل ومن بعد، وصلى الله على نبينا محمد وسلم تسليما كثيرا.

مكتبة البحث

المؤلفات العربية

- أبو الأصبع الإشبيلي المعرف بابن الطحان، مخارج الحروف وصفاتها، تح. محمد يعقوب تركستاني، بيروت، الطبعة الأولى، 1984.
- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، 2004.
- أبو حفص الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تح. عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1998.
- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة، 2008.
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، بيروت، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، 2001.
- باروخ بروي، قراءات في فلسفة العلوم، تر. نجيب الحصادي، بيروت، دار النهضة العربية، 1997.
- ت. فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000.
- ج. بياجي، البنيوية، تر. عارف منيمنة وبشير أوبري، بيروت، منشروات عويدات، 1980.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهي السمرائي، إيران (قم)، دار الهجرة، الطبعة الأولى، 1405 ه
- سعيد بن كراد، السيميائيات: النشأة والموضوع، مجلة عالم الفكر، العدد 3، 2007.
- سمير شريف استيتية، اللسانيات، المجال، والوظيفة، والمنهج، عمان، جدارا للكتاب العالمي، الطبعة الثانية، 2005.
- شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، بيروت، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2004.
- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2000.
- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، تونس، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1986.

- عبد السلام مسدي، ما وراء اللغة. بحث في الخلفيات المعرفية، تونس، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، 1994.
- عبد الواحد وافي، علم اللغة، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، 2004.
- فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، تر. يوئيل يوسف عزيز، مر. مالك يوسف المطلبي، بغداد، دار آفاق عربية، 1985.
- فرديناند ده سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر. يوسف غازي ومجيد النصر، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986.
- فرديناند دى سوسير، فصول في علم اللغة العام، تر. أحمد نعيم الكراعين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1986.
- فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر. صالح القرمادي، محمد الشاوش ومحمد عجينة، تونس، الدار العربية للكاتب، 1985.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983.
- مجموعة من الكتاب، اللغة، إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توقبال للنشر، الطبعة الرابعة، 2005.
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح. عبد الله بن محسن التركي، القاهرة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 2001.
- محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، ليبيا، دار الكتب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2004.
- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، سورية، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، 2002.

المؤلفات الأجنبية

A

- **Adam** J.-M., La linguistique textuelle, Paris, A. Coli, 3e éd., 2011, pp. 10-23
- **Amacker** R., «Correspondance Bally-Meillet (1906-1932)», Cahiers Ferdinand de Saussure, No 43, 1989, pp..
- **Auroux** S. *et al.*, La philosophie du langage, Paris, P. U. F., 1996.
- **Auroux** S., «Les antinomines méthodologiques», in Histoire des idées linguistiques, Tome 3, Belgique, P. Mardaga, 2000.
- **Auroux** S., La philosophie du langage, Paris, P. U. F., Que sais-je?, 2e éd., 2013.

B

- **Baggioni** D., «Le débat Schuchardt/Meillet sur la parenté des langues (1906-1928)»,

Histoire Epistémologie Langage, nº 8, tome 10, 1988, pp. 85-97.
- **Bakhtine** M., Le marxisme et la philosophie du langage ; essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, Paris, Minuit, Paris, 1977.
- **Baldinger** K., «Sémantique et structure conceptuelle», Cahiers de lexicologie, nº 8, 1966, pp. 3-46.
- **Barthes** R., «Rhétorique de l'image», Communications, nº 4, 1964, pp. 40-51.
- **Barthes** R., «Eléments de sémiologie», Communications, nº 4, 1964, pp. 91-135.
- **Benveniste** E., «Ferdinand de Saussure à l'ècole des Hautes ètudes», ècole Pratique des Hautes ètudes, IVe section, Annuaire 1964-1965, 1965, pp. 20-34.
- **Benveniste** E., «Saussure après un demi-siècle», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 1963, p. 8-9.
- **Benveniste** E., Problèmes de linguistique générale, 1, Paris, Gallimard, 1966.
- **Benvensite** E. (pub.), «Lettres de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 21, 1964, pp. 91-130.
- **Bergson** H., Essai sur les données immédiates de la conscience, Evreux, Imprimerie C. Hérissey,-¿ñ.
- **Biard** J., Logique et théorie du signe au XIVe siècle, Paris, Vrin, 1989, p. 147.
- **Biard** J., Logique et théorie du signe au XIVe siècle, Paris, Vrin, 1989.
- **Bloomfield** L., «Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale», The Modern Language Journal, Vol. 8, nº 5, 1924, pp. 317-319.
- **Boas** F., Handbook of American Indian Languages, Washington, Government Office Printing, Part 1, 1911.
- **Boone** A., «La dichotomie synchronie-diachronie dans l'œuvre de Gustave Guillaume», Langue française, nº 107, 1995, pp. 36-42.
- **Bota** C., «La question de l'ordre dans les cours et les écrits saussuriens de linguistique générale. Essai de refonte géométrique», Cahiers Ferdinand de Saussure, Nº 55, 2002.
- **Bouquet** S., «Benveniste et la représentation du sens : de l'arbitraire du signe à l'objet extra-linguistique», Linux, nº 9, 1997.
- **Bouquet** S., «D'une théorie de la référence à une linguistique du texte : Saussure contre Saussure ?», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 52, 1999.
- **Bouquet** S., «Principes d'une linguistique de l'interprétation : une épistémologie néo-saussurienne», Langages, nº 185, 2012.
- **Bouquet** S., «Triple articulation de la langue et articulation herméneutique du langage. Quand De l'essence double du langage réinterprète les textes saussuriens», Arena Romanistica, nº 12, 2013, pp. 86-102.
- **Bouquet** S., Introduction à la lecture de Saussure, Paris, Payot, 1997.
- **BrandÍo** de Carvalho J. et *al*. Comprendre la phonologie, Paris, P. U. F., 2010.
- **Bronckart** J.-P., «L'analyse du signe et la genèse de la pensée consciente», Cahier de l'Herne, nº 76, 2003, pp. 94-107.
- **Bronckart** J.-P., Théories de langage, une introduction critique, Bruxelles, P. Mardaga, 2e éd., 1981.
- **Buss** M. et **JÌger** L., «Le saussurisme en Allemagne au XXe siècle», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº56, 2003, pp. 133-154
- **Buyssens** E., La communication et l'articulation linguistique, Presses Universitaires de Bruxelles, 1967.
- **Buyssens** E., Les langages et le discours, Bruxelles, Presses Universitaires de Bruxelles, 1943.

C

- **Calvet**, L.-J. Pour et contre Saussure. Vers une linguistique sociale, Paris, Payot, 1975.

- **Cassirer** E., The philosohpy of symbolic forms, Volume One : Language, tr. R. Manheim, Yale, Yale University Press, 1980.
- **Cervoni** J., L'énonciation, Paris, P. U. F., 1987.
- **Chevalier** J.-C., «Les congrès internationaux et la linguistique», in S. Auroux, Histoire des idées linguistiques, Tome 3, Bruxelles, Mardaga, 2000.
- **Chevalier** J.-C., «Trubetzkoy, Jakobson et la France 1919-1939», Cahiers de ILSL, nº 9, 1997, pp. 33-46
- **Chidichimon** A., «Karcevski étudiant à l'Université de Genève 1908-1914», Acta Structuralica, nº 1, 2016, pp..
- **Chomsky** N., Aspects de la théorie syntaxique, tr. J.-C. Milner, Paris, Seuil, 1971.
- **Christophe** R., «Le signe, 'domaine fermé'. Saussure et le Cours de linguistique générale, cent ans après», Poétique, nº 144, 2005, pp. 387-411.
- **Coquet** J.-C., Sémiotique, L'école de Paris, Paris, Hachette, 1982.
- **Courtés** J., Analyse sémiotique du discours. De l'énoncé à l'énonciation, Paris, Hachette, 1991,
- **Courtés** J., Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Paris, Hachette, 1976.
- **Cudakova** M. O. et **Toddes** E. A., «La première traduction russe du Cours de linguistique générale de F. de Saussure et l'activité du Cercle linguistique de Moscou», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 36, 1982, pp. 63-91.

D

- **Dedet** A., «La référence à Saussure chez G. Guillaume», Linx, nº 7, 1995, pp. 461-469.
- **Duchet** J.-L., La phonologie, Paris, P. U. F., Que sais-je ?, 1e éd., 1981.
- **Ducrot** O. et *al.*, Qu'est-ce que le structuralisme ?, Paris, Seuil, 1968.
- **Ducrot** O. et Schaeffer J.-M., Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1995.

E

- **Eco** U., La sémiotique et la philosophie du langage, tr. M. Bouzaher, Paris, Seuil, 2001.
- **Eluerd** R., La pragmatique linguistique, Paris, F. Nathan, 1985.
- **Engler** R., «Sémiologies saussurienne. 2. Le canevas», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 34, 1980, pp..
- **Engler** R., «Théorie et critique d'un principe saussurien : L'arbitraire du signe», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 19, 1962, pp..
- **Engler** R., «Théorie et critique d'un principe saussurien : L'arbitraire du signe», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 19, 1962, pp..
- **Escudé** P. (coor.), Jules Ronjat, 1913-2013, Unité et diversité des langues. Théorie et pratique de l'acquisition bilingue et de l'intercompréhension, 2016, p. 40.

F

- **Fadda** E., «Le lieu théorique de la sémiologie de L. J. Prieto. Note sur la présence de Saussure dans la sémiologie actuelle», Cahiers Ferdinand de Saussure, Nº 54, 2001, pp. 385-403.
- **Fehr** J., Saussure entre linguistique et sémiologie, tr. P. Caussat, Paris, P. U. F., 2000.
- **Fleury** M., «Notes et documents sur Ferdinand de Saussure (1880-1891)», ècole Pratique des Hautes ètudes, IVe section, Annuaire 1964-1965, 1965, pp. 35-67.
- **Frei** H., «Saussure contre Saussure», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 9, 1950, pp.

G

- **Gadin** F., «La typologie des signes chez Saussure», Langages, nº 165, 2007, pp. 82-88.
- **Gardon** F., De dangereux édifices. Saussure lecteur de Lucrèce. Paris, Peeters, 2002.
- **Gautier** L., «Entretien avec M. De Saussure, 6 Mai 1911», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 58, 2005, pp. 69-70.
- **Geeraerts** D., «Des deux côtés de la sémantique structurale : sémantique historique et sémantique cognitive», Histoire èpistémologie Langage, t. 15, fas. 1, 1993, pp. 111-129.
- **Godel** R., «Inventaire des manuscrits remis à la Bibliothèque publique et universitaire de Genève», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 17, 1960, pp. 5-11.
- **Godel** R., «La linguistique de la parole», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 38, 1984, pp. 155-167.
- **Godel** R., Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, Genève, Droz, 1957.
- **Godel** R., «Souvenirs de F. de Saussure concernant sa jeunesse et ses études», Cahiers Ferdinand de Saussure, 1960, p. 16-17.
- **Greimas** A. J. et *al*., Essais de sémiotique poétique, Paris, Larousse, 1972.
- **Greimas** A. -J., «L'actualité du saussurisme», Le français moderne, nº 24, 1956, pp. 191-203.
- **Greimas** A. J., Sémantique structurale, Paris, Larousse, 1966.
- **Greimas** A.-J. et Courtés J., Sémiotique. Dictionnaire raisonnée de la théorie du langage, Paris, Hachette, 1979.
- **Greimas** A.-J., Sémantique structurale, Paris, Larousse, 1966.
- **Greimas** A.-J. et Landowski E., Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Paris, Hachette, 1979.
- **Greimas** A.-J., Du sens, Paris, Seuil, 1970.
- **Greimas**, A.-J. «L'actualité du saussurisme», Le français moderne, nº 24, 1956, pp. 191-203.

H

- **Hénault** A., Histoire de la sémiotique, Paris, P. U. F., Que sais-je ?, 2e éd., 1997.
- **Hjelmslev** L., Essais linguistiques, Paris, Minuit, 1971.
- **Hjelmslev** L., Nouveaux essais, Paris, P. U. F., 1985.
- **Hjelmslev** L., Prolégomènes à une théorie du langage, Tr U. Canger et A. Wewer, Paris, Minuit, 1984.
- **Hombert** J.-M. et **Lenclud** G., Comment le langage est venu à l'homme, Paris, Fayard, 2014.

I

- **Ivanova** E., «Le problème de la traductibilité des termes linguistiques (l'interprétation de langue-langage parole de Saussure en russe)», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 53, 2000, pp. 177-196.

J

- **Jacob** A., Introduction à la philosophie du langage, Paris, Gallimard, 1976.
- **Jakobson** R. et Waugh L., La charpente phonique du langage, tr. A. Kihm Paris, Minuit. 1980.
- **Jakobson** R., «Proposition au premier congrès international de linguistes. Quelles sont les méthodes les mieux appropriées à un exposé complet et pratique de la phonologie d'une langue quelconque ?», in Selected Writings, I - Phonological Studies, Netherlands, Mouton & Co, 1962, p. 3-6.

- **Jakobson** R., Essais de linguistique générale, tr N. Ruwet, Paris, Minuit, 1963.
- **Jespersen** O., «Compte rendu du Cours de linguistique générale», in Linguistica. Selected Papers in English, French and German, London, Routledge, 1933.
- **Jespersen** O., Essentials of English Grammar, London, Routledge, 2006 (1e éd., 1933).
- **Jespersen** O., Language, its nature, development and origin, London, Georges Allen & Unwin LTD, 10e éd., 1954 (1e éd., 1922).
- **Jespersen**, O., «Efficiency in Linguistic Change», in Selected Wrigtings, New York, Taylor & Francis, 2010.
- **Johannesm** F., «Saussure : cours, publications, manuscrits, lettres et documents. Les contours de l'œuvre posthume et ses rapports avec l'œuvre publiée». Histoire èpistémologie Langage, tome 18, fascicule 2, 1996, pp.

K

- **Kerbrat-Orecchioni** C., L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, A. Colin, 1980.
- **Klinkenberg** J. M., Précis de sémiotique générale, Paris, Seuil, 1996.
- **Koerner** K., «Meillet, Saussure et la linguistique générale», Histoire, Epistémologie, Langage, vol. 10, nº 1, 1988, pp. 57-73.
- **Kristeva** J., «Les épistémologies de la linguistique», Langages, nº 24, 1971, pp..
- **Kristeva** J., Le langage, cet inconnu, Paris, Seuil, 1981.
- **Kristéva** J., Sémiologie in Encyclopaedia Universalis, France, 2000.

L

- **Ladmiral**, J.-R., Traduire : théorèmes pour la traduction, Paris, Gallimard, 1994.
- **Lafont** R. et Gardès-Madray F., Introduction à l'analyse textuelle, Paris, Larousse, 1976.
- **Lalande** A., Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Paris, P. U. F., 4e éd., 1997.
- **Lepschy** G. C., La linguistique structurale, tr L.-J. Calvet, Paris, Payot, 1976.
- **Leroy** M., Les grands courants de la linguistique moderne, Bruxelles, P. U. B., 1967.
- **Lévis Strauss** C., «L'analyse structurale en linguistique et en anthropologie», Word, vol. 1, nº 1, 1945, pp. 33-53.
- **Littré** E., La science du point de vue philosophique, Paris, Didier, 1884.
- **Lyons** J., Eléments de sémantique, tr. J. Durand, Paris, Larousse, 1978.
- **Lyons** J., Linguistique générale, tr F. Dubois-Charlier et D. Robinson, Paris, Larousse, 1970.

M

- **Malmberg** B., Les nouvelles tendances de la linguistique, tr. J. Gengoux, Paris, P. U. F., 1969
- **Marc** E. et **Picard** D., L'interaction sociale, Paris, P. U. F., 1989.
- **Martinet** A., «Au sujet des fondements de la théorie linguistique de Louis Hjelmslev», Bulletin de la Société de Linguistique de Paris, t. 42, I, 1946, p 19.
- **Martinet** A., Eléments de linguistique générale, Paris, A. Colin, 1980.
- **Mauro** T. de, «Saussure sur le chemin de la linguistique», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 59, 2006, pp. 41-54.
- **Meillet** A., «Ferdinand de Saussure. - Cours de linguistique générale», in C. Normand et *al.*, Avant Saussure, Choix de textes (1875-1924), Bruxelles, Editions Complexe, 1978.

- **Meillet** A., Linguistique historique et linguistique générale II, Paris, Klincksieck, 1936.
- **Mejia Quijano** C., «Rudolph Engler. L'ouvrage d'un philologue artiste», Cahiers Ferdinand de Saussure, Nº 58, 2005, p. 9.
- **Meschonnic** H., «Saussure ou la poétique interrompue», Langages, nº 159, 2005, pp. 10-18
- **Metz** C., «Le cinéma : langue ou langage», Communications, nº 4, 1964, pp. 52-90.
- **Milner** J.-C., Introduction à une science du langage, Paris, Seuil, 1995.
- **Moeschler** J., «Pragmatique et linguistique de la parole», in R. Amacker et R. Engler (pub.), Présence de Saussure, Actes du Colloque international de Genève (21-23 mars 1988), Genève, Droz, 1990, pp..
- **Moeschler** J., Théorie et pragmatique conversationnelle, Paris, A. Colin, 1996.
- **Mounin** G., «Buyssens (Eric). La communication et l'articulation linguistique», Revue belge de philologie et d'histoire, vol. 47, nº 2, pp. 533-538.
- **Mounin** G., Histoire de la linguistique. Des origines au XX^e siècle, Paris, P. U. F., 1967.
- **Mounin** G., Introduction à la sémiologie, Paris, Minuit, 1970.

N

- **Nattiez** J.-J, «Le point de vue sémiologique», Cahier de linguistique, nº 5, 1975, p. 49-76.
- **Naville** A., Nouvelle classification des sciences. Etude philosophique, Paris, 1901.
- **Normand** C. et *al*., Avant Saussure, Choix de textes (1875-1924), Bruxelles, Editions Complexes, 1978.
- **Nowakowska** A., «Dialogisme, polyphonie : des textes russes de M. Bakhtine à la linguistique contemporaine», in J. Bres et al., Dialogisme et polyphonie, Bruxelles, De Boeck, 2005.

O

- **Odgen** C. K. & **Richards** I. A., The Meaning of Meaning, New York, Harcourt, Brace & World, Inc, 8 éd., 1946, pp. 10-11.
- **Oseki-Dépré** I., Théories et pratiques de la traduction littéraire, Paris, A. Colin, 1999.

P

- **Parret** H., «Les manuscrits saussuriens de Harvard», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 47, 1993, pp..
- **Paveau** A.-M. et **Sarfati** A.-M., Les grandes théories de la linguistique, Paris, A. Colin, 2003.
- **Paveau** M.-A. et **Sarfati** G.-è., Les grandes théories de la linguistique. De la grammaire comparée à la pragmatique, Paris, A. Colin, 2003.
- **Peirce** C. S., Ecrits sur le signe, tr. G. Deledalle, Paris, Seuil, 1978.
- **Petit** D. et **Mejõa Quijanov**, «Du nouveau à propos du voyage de F.de Saussure en Lituanie», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 61, 2008, pp. 133-157.
- **Petroff** A., «L'autre Saussure», *Semen* [En ligne], nº 2, 1985.
- **Prieto**, L. J. La sémiologie, in A. Martinet (dir.), Le langage, Paris, Encyclopédie de la pléiade, 1968, pp. 93-144.
- **Puech** C., «L'émergence de la notion de 'discours' en France et les destins du saussurisme», Langages, nº 159, 2005/3, p 95.

R

- **Rastier** F., «De l’essence double du langage, un projet révélateur», Arena Romanistica, nº 12, 2013, pp. 6-28.
- **Rastier** F., Saussure au futur, Paris, les Belles Lettres, 2015.
- **Rastier** F., Sémantique et recherches cognitives, Paris, P.U.F, 1991
- **Reboul** F., «Influences positivistes sur Ferdinand de Saussure (1), L’origine du langage et la langue artificielle», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 62, 2009, p. 153-168.
- **Recanati** F., Les énoncés performatifs, Paris, Minuit, 1986.
- **Regard** P., Contribution à l’étude des prépositions dans la langue du Nouveau Testament, Paris, E. Leroux, 1919.
- **Robins** R. H., Linguistique générale. Une introduction, tr. P. Guivarc’h, Paris, A. Colin, 1973.
- **Rousseau** A., «Ferdinand de Saussure descripteur des langues», in L. de Saussure (éd.), Nouveaux regards sur Saussure, Genève, Droz, 2006, pp. 71-93
- **Rousseau**, J.-J. Essai sur l’origine des langues, Paris, A. Belin, 1817.

S

- **Saussure** F. de, «Essai pour réduire les mots du grec, du latin et de l’allemand à un petit nombre de racines», édité par B. Davis, Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 32, 1978, pp. 73-101.
- **Saussure** F. de, Cours de linguistique générale (1908-1909), Introduction d’après les notes d’étudiants, établi par R. Godel, Cahiers Ferdinand de Saussure, Nº 15, 1957, pp. 3-103
- **Saussure** F. de, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Tome 1, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1968.
- **Saussure** F. de, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Tome 2 : appendice. Notes de F. de Saussure sur la linguistique générale, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1974.
- **Saussure** F. de, Cours de linguistique générale, édition critique établie par T. de Mauro, Paris, Payot & Rivages, 2005.
- **Saussure** F. de, Course in General Linguistics, Edited by C. Bally and A. Sechehaye in collaboration with A. Riedlinger, tr. W. Baskin, New York City, The Philosophical Library, 1959.
- **Saussure** F. de, Deuxième Cours de linguistique générale (1908-1909), d’après les cahiers d’Albert Riedlinger et Charles Patois, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1996.
- **Saussure** F. de, ècrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002.
- **Saussure** F. de, Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, Leipsick, B. G. Teubner, 1879.
- **Saussure** F. de, Premier Cours de linguistique générale (1907), d’après les cahiers d’Albert Riedlinger, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1996.
- **Saussure** F. de, Recueil des publications scientifiques de F. de Saussure, Leipsick, B. G. Teubner, 1879, p. 1.
- **Saussure** F. de, Troisième Cours de linguistique générale (1910-1911), d’après les cahiers d’Emile Constantin, édité par E. Komatsu, Tokyo, Université Gakushuin, 1993.
- **Schuchardt** H., «Phonétique comparée», Romania, nº 9, tome 3, 1874, pp. 1-30.
- **Sechehaye** A., «Les trois linguistiques saussuriennes», Vox Romanica, nº 5, 1940, pp. 1-48.

- **Silvio Avalle** D., «La sémiologie de la narrativité chez Saussure», in Ch. Bouazis, Essais de la théorie du texte», Paris, Galilée, 1973, pp. 17-49.
- **Sofia** E., «Cent ans de philologie saussurienne : Lettres échanges par Albert Sechehaye et Charles Bally en vue d'une l'édition du Cours de linguistique générale (1916)», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 66, 2013, pp. 181-197.
- **Sériot** P., «Changements de paradigmes dans la linguistique soviétique des années 1920-30», Histoire èpistémologie Langage, tome 17, fascicule 2, 1995. Une familière étrangeté : la linguistique russe et soviétique. pp. 235-251.
- **Stelling-Michaud** S., «Notice biographique», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 14, 1956, pp..
- **Sumpf** J., «Les traits principaux de la tradition linguistique française», Langue française, nº 14, 1972, pp. 70-98.

T

- **Tarasti** E., La musique et les signes. Précis de sémiotique musicale, tr. D. Charles et E. Gorge, Paris, l'Harmattan, 2006.
- **Testenoire** P.-Y., «Genèse d'un principe saussurien : la linéarité», Recto/Verso, nº 6, 2010.
- **Testenoire** P.-Y., Littérature orale et sémiologie saussurienne, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz (dir.), En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012, pp. 61-77.
- **Testenoire** P.-Y., Littérature orale et sémiologie saussurienne, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz (dir.), En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012, p. 62
- **Thomas** d'Aquin, Somme théologique, Volume I, tr. F. Lachat, Paris, Louis Vivès Editeur, 3e éd., 1874, p..
- **Troubeztkoy** N., «La phonologie actuelle», Journal de psychologie normale et pathologique, 1933, Paris, Librairie Félix Alcan, 1933, pp. 227-246.

U

- **Ullman** S., Précis de sémantique française, Berne, A. Francke, 1952.

V

- **Vauthier** B., «Bakhtine et/ou Saussure ? ou de l'histoire du malentendu des malentendus saussuriens», Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 55, 2002, p. 241-266.
- **Vendryès** J., «Le caractère social du langage et la doctrine de F. de Saussure», Journal de psychologie normale et pathologique, nº, 1921, pp. 617-624.
- **Verleyen** S., «Les avatars d'une dichotomie saussurienne : Synchronie et diachronie dans les théories modernes du changement linguistique» Travaux de linguistique, nº 57, 2008, pp. 133-153
- **Vvedenskij** D. N., «Ferdinand de Saussure et sa place dans la linguistique [préface préface à la première édition soviétique du Cours de linguistique générale de F. de Saussure (Moscou, éd. SOCEKGIZ, 1933)]», tr. P. Seriot, Cahiers Ferdinand de Saussure, nº 53, 2000, pp. 199-221.

W

- **Wells** S. R., «De Saussure's System of Linguistics», Word, Vol. 3, nº 1/2, 1947, pp. 1-31.

Z

- **Zilberberg** C., Raison et poétique, Paris, P. U. F., 1988.